

أغسطس 2013

396

إله الصدفة

رواية

تأليف: كريستن تورب
ترجمة: أ. دنى غالي
مراجعة: أ. عواطف جون ضاحي



إله الصدفة

رواية

تـــألـــيـــف: كريستن توروب

تـــرجـــمـــة: أ. دنى غالي

مـــراجـــعـــة: أ. عواطف جون ضاحي

• إله الصدفة

رواية

العنوان الأصلي:

Tilfældets Gud

By: Kirsten Thorup 2011

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 396

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

الفهرس

مقدمة

تحتل الكاتبة كيرستن توروب مكانة خاصة في تاريخ الأدب الدنماركي لتميز نتاجها وتنوعه أيضا بين الشعر والمسرح والفيلم والأعمال التلفزيونية. بدأ مشوارها الأدبي في العام ١٩٦٧ بكتابة الشعر، حيث أصدرت ثلاثة دواوين ومجموعة قصصية قبل أن تصدر روايتها الأولى «بيبي» في العام ١٩٧٣. توالى بعدها إصدارها العديد من الروايات التي تجلت عبرها مقدرتها وهواها لهذا العالم على الأخص، فصدرت «جوانا» ١٩٧٧، «الصيف الطويل» ١٩٧٩، «جنة وجحيم» ١٩٨٢، «الحدود القصوى» ١٩٨٧، «حبيبي المجهول» ١٩٩٤، «بونساي» ٢٠٠٠، «الأرض الحرام» ٢٠٠٣، «زمن ما قبل الحرب» ٢٠٠٧ وأخيرا «إله الصدفة» عام ٢٠١١.

حصلت على منحة التفرغ مدى الحياة للكتابة الإبداعية من الدولة وقد حازت العديد من الجوائز التقديرية وتمت ترجمة أعمالها إلى العديد من اللغات في العالم.

عرف عنها كونها كاتبة غير معنية بما تؤثره الساحة الثقافية والسوق، مخلصة دوما في كتاباتها لما تؤمن به. تدخل في جدالات سياسية وتدلي برأيها بوضوح ومباشرة ومن دون تردد، وإن لم تكن منتمية إلى حزب أو منظمة. يتضح الحس الإنساني العالي لديها من خلال ما تكتبه من مقالات وتشارك فيه من نشاطات، سواء كانت أدبية أو سياسية أو حتى اجتماعية.

كانت من ضمن المؤسسين لجمعية الصداقة الدنماركية الفلسطينية في العام ١٩٨٨، وقد شغلت منصب رئيس للجمعية بضع سنوات. كما اختيرت عضوة في العديد من اللجان المشرفة على نشاطات المؤسسات الثقافية في الدنمارك.

تتناول في مجمل رواياتها وبشكل رئيسي موضوعي الانتقال من الريف إلى المدينة والحرب، من خلال ذلك تستعرض توروب بمقدرة التغيرات التي طرأت وتطرأ تاريخيا واجتماعيا على الحياة والعلاقات الإنسانية والاقتصاد في هذا البلد الإسكندنافي منذ الأربعينيات فالخمسينيات والستينيات وإلى ما قبل نهاية العقد الأول من الألفية الثانية في آخر عمل لها.

في روايتها الأخيرة «إله الصدفة» تختار توروب ثيمة مختلفة تماما في تناولها بعد زيارة لها إلى غامبيا قبل بضع سنوات ولقائها بطفلة هناك. نحن والآخر هو ما تناقشه في روايتها التي تعكس بدقة وتركيز دأبها في سبيل فهم علاقتنا بعضنا ببعض في هذا العالم الذي يفترض أن تكون المسافات قد تقلصت فيه بفضل السفر وسهولة انتقال المعلومة عن طريق النت. تتنقل بهذا بين ثلاث بيئات مختلفة من العاصمة الدنماركية كوبنهاجن، إلى منتجعات غامبيا المطلة على الأطلنطي، ومنها إلى العاصمة البريطانية لندن. تتوغل في الجانب النفسي والاجتماعي والسياسي والديني لبطلتيها وتسلط الضوء على الفوارق عبرها بين الغنى والفقر، السلطة والضعف، المادي والروحي، الأبيض والأسود. وعلى الرغم من

ذلـك لا يكون خفيـا ما تحـاول الكاتبة التشـديد عليه أخيرا رمزيـا فـي كون الإنسـانية لها وعـي واحد تمتزج فيـه أرواحنا وتضيع الحدود.

المترجمة

«أنت والـ أنت الذي بجانبكَ واحد»

ريزارد كابوشينيسكي - كتاب الآخر

١
الظلمة هناك

من عجائب القدر أن يستقر قرارها على اختيار غرب أفريقيا وليس إحدى جزر سيشيل التي كانت وفق تصورها أكثر جاذبية، ولكن الأماكن كانت محجوزة بعد أن حصلت على منفذ صغير في مفكرتها. كان القرار مستعجلا وغير محسوب، اتُخذَ بعد إجهاد حاد وأخذ منحى عجيبا بعدها. عندما كانت في حالات استثنائية تسافر في إجازة كانت تختار أحد بلدان البحر المتوسط في قسمه الأوروبي ولكنها لم تكن واثقة من الجو خارج موسم السياحة. لقد شاركت في اجتماعات ومؤتمرات في جوهانسبورغ ولكنها لم تتوافر على معرفة بأفريقيا. لم تكن القارة التي تتخيل نفسها وهي تلعب دور السائحة فيها.

كما لم يكن هناك ما يُنتقد من أجله فندق «جولدن باي» ما دام كان بعيدا جدا عن صراخ الطواويس ورائحة القردة في المدرَج. لقد حجزتُ في الفندق الوحيد المقبول بشعور موقن بالجودة (وفق الصور والوصف على صفحة الإنترنت) في هذا الجزء من البلد الذي كان المركز السياحي. تمليك إنجليزي وطراز متميز بسرادق واطئ وبناية رئيسية أنيقة مع مطاعم،

ومقاهـي، وبـارات وناد ليلي مع كازينو. أسـفل متنزه الفندق عبر السـلّم الماهوغاني العريض يقع شـاطيء السـياح، حيث يتحرك الجنـود للحراسـة بزيهم العسـكري التمويهي ومسدسـاتهم في أحزمتهم. كانوا يطاردون باعة الفاكهة المتجولين غير المرخَصين، ويبعدونهم عن المنطقة المغلقة المسوّرة بضراوة وبحرص كبير على ضيـوف الفندق. عليهـا أن تعتاد أمر أنها لم تكن على شـواطيء البحـر المتوسـط بـل هـي خـارج هـذا العالـم. وأن حُماتهـا على الشاطئ هم من السود وليس البيض.

وبما أَنها قد ألقتْ بنفسها الآن في المجهول فقد كانت تتطلع إلـى معرفة البلد وطبيعته، تتجول وحدهـا كما اعتادت أن تفعل عندمـا تكون فـي جنوب أوروبـا. ولكنهـا أخطأت في حسـاباتها. بمجرد أن تجرأت يوما على الخروج من منطقة الفندق المحروسة وتمشّت عبر شارع السياح المملوء بالمطاعم ومكاتب تصريف العملة والسـوبرماركتات حتـى هاجمهـا الشـبّان الذين كانـوا يعرضون عليها أن يكونوا مرشـدين سياحيين أو عشاقا. أوضحتْ لهم أنَها لا تحتاج إلى مرشد ولا صديق، ولكنهم لا يأخذون كلمة «لا» بعين الاعتبار. التصقوا بها وطلبوا وطلبوا وطلبوا، محبسها، ساعتها، نقودهـا، قطعـة من جلدها الأبيض. نفضتهـم عنها وركضتْ إلى الفندق واشـتكتهم إلى حراس الأمن عند المدخل الذين استمعوا إلـى شـكواها بقـدر كبير من الجديـة (ذلك يتعلق بسـمعة البلد كهدف سـياحي وبالتالـي الناتج القومي الإجمالـي له). حصلتْ على رقم هاتف للخط السـاخن الذين يمكن للسـياح استخدامه فـي حالـة تعرضهم إلـى تحرّش مـا. ولكنها لـم تكن قـادرة على

التعرف على من أقلق أمانها من بين هؤلاء حيث اختفوا في الظل تحت الأشجار وقد كانوا جميعا يشبه بعضهم البعض.

لم تتحرك من منطقة الفندق بعد تجربتها المزعجة مع «الجَهَلَة» الثلاثة كما يطلق الحراس على هؤلاء الشبان الذين كانوا يحومون حول الفنادق السياحية أملا بالحصول على صفقة تجارية رابحة. لم تكن ترتخي إلا بعد اجتيازها حراس أمن الفندق ووصولها إلى المتنزه الفاره المحوط بجدار عالٍ، المملوء بالنافورات والمزدحم بأنواع الطيور والأشجار الاستوائية والأزهار بألوانها المختلفة والحدائق المسقية التي تتخللها ممرات أفعوانية مبلّطة تقود الضيوف إلى منحوتات أفريقية متميزة.

الفنادق بكراسي الاستلقاء الملونة كلٌ وفق منطقة الشاطئ المعلّمة له، قد صُفّت إلى جانب بعضها البعض على امتداد الساحل المطل على المحيط الأطلسي.

الشاطئ كان متنفّسها وهروبها اليومي من محمية الفندق المغلقة. كانت تجلس في المكان نفسه، وعلي كرسي الاستلقاء نفسه كل يوم حيث تضع منشفتها منذ الصباح الباكر لحجزه. لو لم تكن تأخذ الاحتياطات اللازمة فلن تجد كرسيا فارغا عندما تعود بعد الإفطار على مهلها والساعة تقارب العاشرة. في اليوم الأول كان عليها أن تعود خالية الوفاض من حيث أتت. لم يكن هناك أحد على الشاطئ، ولكن المناشف بحجم الشراشف كانت قد وُضعَت على كل كرسي.

بعد أربع ساعات من الجهد في حرب المناشف (كلما كان الاستيقاظ والمجيء إلى الشاطئ مع المنشفة أبكر زادت إمكانية

الحصول على كرسي استلقاء في المكان الافضل بما يخص المنظر والمسافة من البحر) استدارت عائدة إلى كرسيها بروبها بلون النعناع وحذاء البحر المطاطي اللين والمنشفة الإضافية على كتفيها. كانت تجلس معظم الوقت على الكرسي تتأمل من خلف نظارتها الشمسية الحياة على الشاطئ بخفية. لم تكن تجرؤ على غلق عينيها خوفا من أن يتسلل إليها أحد من دون أن تنتبه له. سواء كان من ضيوف الفندق الإنجليز نساء أو رجالا، أو من بائعي الفاكهة والعصير الذين يتسللون عبر الشاطئ المحلي في لحظة غياب الحراسة إلى شاطيء السياح من الجهة الأخرى من المتنزه الطبيعي المملوء بالقردة الحريرية الرمادية التي تثب من مكان إلى مكان في متنزه فندقها.

الباعة من الشاطئ المحلي كانوا فتيات في عمر طالبات المدارس (وبضعة أولاد كبار) يمشون بتوازن بارع مع صينية الفاكهة والمكسرات على رؤوسهم. كانوا مطاردين على الدوام من قبل الجنود الذين يبعدونهم. يضربونهم في بعض الأحيان على الظهر والكتف بالعصي. لكنهم يعودون ثانية من دون كلل بمجرد أن ينسحب الجنود بزيهم الضيق إلى مناطق أخرى من الشاطئ أو إلى الظل لكي يستريحوا مع سيجارة وكولا. كان من الواضح أن الحياة بالنسبة إلى الفتيات هي في تمكنهن من بيع بضاعتهن للسياح المتمكنين ماديا، الآلهة البرونزية التي تتمدّد على كراسي الفندق الزرقاء، أو تذهب أزواجا لجمع الصدف والمحار عند حواف الشاطئ.

في الأيام الأولى جلست وحيدة في عزلة تحت مظلتها.

شـعرت بحرارة الإشعاع تسـري فيها وتصل عظامها وتذيب البرد الشـتائي حتى النخاع. تجنبتْ القـراءة في مجلة Wallpaper التـي اشـترتها على عجـل في المطـار. كانت خائفة مـن أن تفقد سـيطرتها فـي المحيط الذي لـم تعتد عليه. اللغـز كان كيف أنها وعلى الرغم من حالة الإنذار التي كانت عليها لم تشـعر بالخطر يقترب منها ولم تلحظ له أثرا من طرف عينيها.

من غير إنذار مسبق شـعرتْ بإشـعاع من قبل كائن بشري قريب جدا منها. ارتعدت غير قادرة على الحركة. كأن جسـدها قد تسـمّر فـي مكانه على الكرسـي. تفصّد العرق من جبينهـا. كانت نظارتها الشمسـية لصق صدغيها تحدّ من مجال رؤيتها. ظلّت جالسـة في وضع ثابت غير مريح، سجينة القرب المفروض عليها. حرّكت يدها كأنهـا تنشّ ذبابة. ألم يكن هناك من أحد؟ هل كانت ضحية لخداع حواس؟ لم تجرؤ على أن تدير رأسها لترى إن كان هناك بالفعل من يقف إلى الجانب الأيسر منها. سمعت شيئا ما يمكن أن يكون نَفَسا مكتومـا. كان هنـاك حذر متـردد في ذلك التنفس غير المحسـوس، شيء ما مؤثر وسريع العطب. كانت إحدى البائعات الصغيرات التي دنت قريبا جدا من ذراع كرسيها بوضع منسحب بعض الشيء بعيدا عن مدى النظر.

- هل تريدين شيئا؟

صوت طالع من زفير ناعم ملأ السؤال بأمل مشدود لرد فعل إيجابي منها. هل يمكن لمخلوق بشري أن يقاوم هكذا هجوم؟ هل يمكنها؟

كان ذلك هو السـؤال. تمنت لو أنهـا كانت قادرة على المقاومة. ولكـن ذلـك لم يكن ممكنا. صارت رقيقة، ذابت مثل تمثال الرجل

الثلجي تحت شمس الربيع. أصاب ذلك الصوت الناعم سمعها وواصل طريقه عبر أذنها.

جمال قدسي، رنين جرس فضي خفيف ملأها. لم يكن بمقدورها شرح ذلك. لم تكن تؤمن بوجود ما يطلق عليه العالم الآخر أو الأعلى إلى جانب العالم المادي. فقط ما يمكن قياسه ووزنه، وسماعه ورؤيته بالعين المجردة أو الميكروسكوب هو الموجود. في نظرها كل ذلك الحديث عن الروحي واللامادي كان من الخرافيات. ولكن هنا على الشاطئ «على مبعدة عشرة آلاف سنة ضوئية من الوطن» حيث تتحد السماء بالبحر حدث الذي لا يمكن توضيحه. صوت طفولي مرتجف تخلّل جلدها ومسّها. لم تكن مستعدة لذلك إطلاقا.

استجمعت شجاعتها أخيرا وأدارت رأسها. الجسم الضئيل وقف مزروعا بالرمل، مستقيما مثل شمعة في صينية ضخمة على الرأس.

- تريدين؟ شدّت ذراع روبها الصباحي.

- تريدين، تريدين؟ ألحتْ الطفلة.

استسلمت. شعرتْ بالإطراء لاختيارها هي، ومع هذا الإصرار الذي هدَمَ مناعتها.

- ماذا لديك؟

- كل شيء. كان شَعْرُ الفتاة المجعد بلونه الأسود الرمادي مضفورا بإحكام من جبهتها إلى رقبتها في شدّات صغيرة مشعثة. الفراغات بين الضفائر الرفيعة كانت أكبر من الضفائر نفسها والتي بان من خلالها جلد رأسها ذو اللون البني الفاتح.

لا بـد أن كل تلـك الضفائر موجعة لمنطقة الجلد هذه الحسّاسـة من الرأس.

«كل شـيء»، ربمـا ببعض مـن المبالغة. بضعة أكياس مكسـرات وعذق موز كان كلُّ ما تبقى في صينيتها.

- بوس ليْدي، الصوت كأنَه كان مهدُدا.

- أعطيني بضع حبّات من المكسّـرات، حفنة منها فقط، قالت لها. لماذا هذه الـ «حفنة منها فقط»، فكرت غير راضية عن نفسها. كانـت المكسـرات قد وُزنـت ووزعتْ في أكيـاس نايلون بـدا أنَها قد اسـتعملت كثيـرا. همّـتْ البنت بإفـراغ كيس المكسّـرات في يدها. وكيف ستدفع لها الآن؟

- خذي بنفسكِ، قالتْ راجية من البنت أن تلتقط بضع ورقات مـن المحفظة التـي كانت تحملها في حزام تحت روبها الصباحي. هـي لا تنـزل إلـى البحـر لـذا كان مـن الممكـن أن تحمـل معهـا محفظتها على الشاطئ. لا يمكن أن تتخيل نفسها من غير نقود أو بطاقة ائتمانية بحوزتها.

لـم تكتشـف قبـل الآن كـم كانت الطفلـة نحيلة، مجـرد جلد وعظـم. كانـت مفاصـل يدها بسـمك عيـدان تنظيـف الغليون. الجلـد يميل أكثر إلـى الرصاصي منه إلى الأسـود. بلوزتها كانت متسـخة ومنكمشة، ما جعلها تبدو كأنها قد كبرت عليها. وجهها كان عريضـا خشـن المعاني، وأسـنانها البيض كانـت كأنَها مبقّعة بأزهـار صغيـرة بلـون الصدأ. كانـت طويلة، وبدت أكبـر عمرا من بقية باعة السـاحل. برزت مثل «البطة القبيحة» بحركات مرتبكة غيـر مترابطـة. أخـذت وقتـا طويلا فـي التقاطها إحـدى ورقات

العشرين دالاسي في راحة يدها ذات اللون الكريمي من المحفظة لتريها إياها بفخر. هزّت رأسها قائلة: «شكرا لمساعدتك» على الرغم من أن العشرين دالاسي كانت سعرا مبالغا فيه لحفنة المكسرات اليابسة. وضعت الفتاة الورقة في جيبها وظلت واقفة تدبك بقدميها الحافيتين من تحت تنورتها الطويلة. شعرتْ بحرج لترددها. الصفقة انتهت. لم يعد هناك من شيء بينهما. كانت بحاجة لتختلي وحدها. قد طال أمد هذا اللقاء الإجباري. أدارت رأسها بعيدا عن الطفلة لكنها ظلت تشعر بالقرب الكثيف والنفس القصير الحذر يعود إلى أذنيها. كأن المشهد سيبدأ من جديد، وطقسا غامضا سيتكرر.

عليها أن توقف هذا الحصار فنهضت بشكل مفاجيء من الكرسي ووقفت بطولها أمام البنت التي وصلت بارتفاعها إلى منتصف صدرها. نظرتْ إلى قامة البنت الناشفة التي لم تشبه طفلة بقدر ما كانت تشبه فتاة شابة لم تشبّ، قد توقف نموها. نظرت إليها بعينين كبيرتين بريئتين وبمنتهى اللطف. هل يمكن أن تكون متخلفة عقليا؟

- ما اسمك؟ سألت وفاجأت نفسها بالسؤال.

- مارياما، قالت البنت بصوت هامس تقريبا.

- إذن فنحن أخوات بالأسماء. قلبها بدأ يطرق داخل صدرها. هل أرسلت المصادفة هذه المخلوقة التعسة لتعترض طريقها وتضعها تحت الاختبار؟

- أخوات بالاسم؟ هزّت البنت رأسها وبدت كأنها ستطلق ساقيها للريح لتهرب بعيدا عن هذا الوحش الأبيض مثلما تتخيله.

- اسمي أيضا ماريانا، أوضحت لها.

- ماريانا. انحنت وندّت عنها ضحكة صغيرة من دون صوت.

- مارياناتان. أشارت البنت إليها بانفعال ثم نظرت إلى نفسها ثانية كأنها في عرض إيمائي مفزع.

- يسمونني نانا، قاطَعَتْها لكي توقفها.

- نانا، رددتْ البنت ويحلقتْ فيها كما لو كانت من عجائب الدنيا أو هي رقم ثمانية.

- اسمي ماريام، ماريام.. بحرف الميم وليس ماريانا.

- حسنا.. ماريام بحرف الميم هل نذهب في جولة؟ قالت نانا وهي تشعر بارتياح غريب.

- ولكني.. في الشغل الآن، أعمل بيزنس. رمشت ماريام بنرفزة.

- سأشتري كل الصينية، كم تطلبين؟

- مائة دالاسي، قالت ماريام وفتحت عينيها على اتساعهما. سحبت نانا ورقة من فئة المائة من محفظتها حول خصرها، وقفت ممسكة بها. نظرت ماريام إلى الورقة بجوع وتركت بقايا بيع اليوم لها. وضعت الموز والمكسرات على المنشفة في الكرسي الذي كان منطقتها الخاصة أثناء وجودها على الشاطئ.

- هل تقضين العطلة هنا وحدكِ؟ قالت ماريام بشعور مختلط من التعجب والشفقة.

- خذي هذا، أمرت نانا بدلا من الجواب وأشارت إلى صينيتها المعدنية.

- وضعيها على كرسيي، واصلت بثقة سائح زائفة.

- سيسرقونها في الحال. ماريانا نظرت بهلع ولم تشاركها كما يظهر تقييمها للأمان على شاطيء السياح. استسلمت نانا لمعرفة ماريانا بالمنطقة ورأت من زاوية عينيها أن المسرحية الصغيرة قد أيقظتْ انتباه ضيوف الفندق الذين جلسوا وقد توجهت وجوههم صوبهما. كان كرسي نانا أقصى الصف حدّ صف كراسي الاستلقاء البيضاء التي تعود إلى الفندق المجاور والتي احتلت قطعة الشاطئ التالية. ما رأته العيون من خلف النظارات السود لم يكن بمقدروها بالطبع معرفته. ولكنها لا تحب أن تكون تحت المراقبة. لا تحب أن تُرى، أن يصدر حكم عليها، أن يقيّمها أحد، أن تزنها وتقيسها النظرات الأجنبية. مبادرتها البريئة، جولة للمشي بمحاذاة الشاطئ برفقة بائعة الشاطئ الصغيرة لا يجب أن تكون مثار تدخّل فضولي وشكوك حول دوافع مشبوهة. في لحظة وجدت نفسها ممسكة برشاش تحصد جمع السياح المستلقين المبحلقين. كانت هذه الاستعارات من أفلام الإثارة وألعاب الكمبيوتر جزءا من وعيها، على الرغم من أنَها كانت بطبيعتها مسالمة مثل يوم هاديء في غابة من أشجار البتولا عند خليج في بحر البلطيق.

لم تدع نانا عدم ارتياحها لهذا العدد من النظارات الشمسية من صنف الألف يورو أن يزعجها، والتي كانت مصوبة نحوها هي وماريانا التي أنزلت بحركةٍ أنيقة الصينية إلى الأرض. كانت أصغر وأخفّ مما بدت عليه عندما كانت مستقرة فوق قامة البنت النحيلة. من دون صبر عرضت نانا عليها حمل الصينية في حقيبة الشاطئ ولكن ماريانا رفضت وأصرّتْ على حملها بنفسها. عنادها غير العملي أزعج نانا.

كان بإمكانها حمل الصينية في سلتها المضفورة الجميلة التي اشترتها من بوتيك الهدايا والتحف في الفندق والذي حوى كل ما يشتهيه القلب ابتداء من السلال المضفورة والحقائب، والقماش المطبوع، والسجاد المنسوج إلى الأقنعة المخيفة والطبول بمختلف الأحجام. كل شيء قد وضع بعناية وفق المنشأ: نيجيريا، بوركينا فاسو، أوغندا، غانا، كونغو، كينيا، سنغال، تنزانيا. كانت تزور هذه القاعة الفسيحة جيدة التهوية التي تقع عند مدخل الفندق كل مساء قبل العشاء بشكل أشبه بالقسري. تتأكد إن كان هناك كنز صغير ما قد فاتها أن تتنبه إليه. عليها أن تستنشق القارة السوداء في الشكل المكثّف للبضاعة المعروضة وتفوز بآخر طراز لتصميم أفريقي بثمن زهيد جدا بحساب اليورو.

استعدت مارياما للانطلاق بانتظار أن تجمع نانا أشياءها. لم تترك غير المنشفة ملقاة على كرسي الاستلقاء الذي لم تشأ أن تفقد حقها به. وضعت حقيبة الشاطئ على كتفها وانعطفتا معا تجاه الماء عبر الساحل حيث تجمعت أكوام من الصدف بألوان رقيقة من الباستيل.

عندما ابتعدتا مسافة من كراسي الاستلقاء وشعرتا بهواء البحر المالح المنعش أخذت مارياما بيدها. اهتزت نانا كأن مسّا كهربائيا اعتراها. تجمّدت يدها، لم تستطع تحريكها، أو سحبها. بقيت جامدة باردة تحضن يدي مارياما الصغيرة الحية الدافئة. لا تتذكر أنها مرت بشيء شبيه بهذا. لقد كبرتْ من دون تماس جسدي واختارت بالفطرة أن تتجنب الاحتكاك بالآخرين. كانت تخشى حتى المصافحة وتجبر على القيام بها كواجب بما يتعلق

بعملها. التماس مع بشرة غريب كان يملأها بشعور من عدم الارتياح ودوار يبعث على الغثيان. ولكنها تعلمت أن تتقبله.

كنوع من رد فعل صادّ سألت مارياما عن عمرها.

- خمس عشرة سنة.

- ولماذا لستِ في المدرسة بدلا من بيع الفاكهة والمكسرات؟

- أنا أذهب إلى المدرسة قبل الظهر. ارتجف صوتها.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟ قالت نانا. على الشاشة في الطائرة كان هناك فيلم عن الأوضاع في البلد، أظهر أن كثيرا من العائلات كانت على درجة من الفقر لا تمكنهم من إرسال أطفالهم إلى المدارس. وقد كانت الأولوية للأولاد على الرغم من أن الرئيس قد قرر مؤخرا أن يدفع البنات نصف القسط المقرر للمدرسة. ربما كان تصريح مارياما مجرد حلم. أنَها لا تشبه بنتا قد تعلمت الكتابة والقراءة.

مشيَتا بمحاذاة الساحل مع الريح العاصفة بشكل مائل من جهة البحر. الأمواج بزبدها تهدر تجاههما. وجدت نانا حجة مقنعة كي تفلت يد مارياما الجافة الغريبة كأنها جلد وعظم. كانت الأصداف من الجمال بحيث يصعب تركها في مكانها. وقفت وانحنت واختارت لها مجموعة مناسبة لتزيين الحمام في بيتها. تابعت والأصداف تخرخش في حقيبتها. مارياما تأخرت خلفها.

- هيا أسرعي، قالت لها، خجلة من ظهورها كالمرأه البيضاء الطويلة مع الأجيرة الصغيرة التي تتخلّف في السير مسافة محسوبة. لم تكن ترغب في أن يُحكَم عليها أخلاقيا أو أن تكون عرضة للضحك فتشبّثت بمارياما. تابعتا السير حتى وصلتا

نهاية المنحدرات والآحراش التي امتدت إلى الماء طوال الساحل.

اقترحت نانا أن تجلسا وتستريحا على الرمل قبل عودتهما. جلستْ مارياما مع صينيتها من الصفيح في حضنها. التصقت بها كأنها أعز ما تملك.

– هل لديك ما يؤكل؟ ساندويتش؟ سألت بطبيعية ونظرت إليها تلك النظرة البريئة بعينين مفتوحتين. كان على نانا أن تعتذر لما لم تتزود به. أكلت مارياما إحدى الموزات التي باعتها إلى نانا ولكنها لم ترغب في شيء من المكسرات. كما لم تكن دعوتها إلى مطعم الفندق أو بار المسبح ممكنة بعد النزهة. كان الدخول إلى منطقة الفندق ممنوعا منعا باتا. بالطبع لم يكن ذلك لكل الغامبيين ولكن للفقراء والمعوزين الذين يحومون حول مدخل الفندق وعلى الساحل. ومارياما كانت من ضمنهم. لم يكن بمقدورها حتى مرافقتها كضيفة لها.

– هل تصيرين متعهدتي، سيدتي؟ ثانية تكلمت بصوت مُصرّ ملحاح.

– ماذا تعنين؟ شعرت نانا بعدم ارتياح إزاء طلب جديد وندمت على إقدامها تجاه هذه الطفلة. اعتقدت أنها عثرت على امرأة شابة تخالطها وتخفف من وحدتها وتسعد بها ولكنها أخطأت الحساب. كان الأمر صفقة عمل مدبّرة.

– أن تتعهدي بدراستي سيدتي؟ كررت. هذه الـ «سيدتي» أزعجت نانا. بدت كأنها للتهكم.

– لا أعتقد أنك تذهبين إلى المدرسة. ولكنك شاطرة لمعرفتك أن الأوروبيين يغرمون بفكرة تعلم الأفريقيين وحصولهم على

دراسة، ردّت عليها نانا بشعور غريزي بضرورة الانسحاب من البداية.

- أنا لا أكذب سيدتي، قالت مارياما وقد كشفت عن غضب غير متوقع. نظرت إلى نانا بوجه يعلوه الاحتقار. بدأ الهلع يدبّ في جسدها. وعلى الرغم من كل شيء فماريامـا لديها الامتياز بأنها تلعب على أرضها.

- هلا عدنا؟ قالت نانا ونهضت ونفضت الرمل من على روبها. شعور فجائي بالعوق لأَنها لم ترتدي ما يقتضي من ملابس. كان تجرّدا جعلها هشة.

- سأبقى هنا. قالت ماريامـا وهي تراقب ما حولها.

- كُفّي عن هذا الهراء، قالت نانا بإقناع الأم.

- تعالي. مدّت يدها لماريامـا.

- لا، سأنتظر أصدقائي هنا، باقية هنا. رفضها كان بمنزلة صفعة بالوجه، عرض لتهميشها كغريبة في منطقة ماريامـا بعيدا عن شواطيء الفندق.

نسيت نانا أنها كانت أكثر من مجرد كائن تعيس يقف على الرمل، أن لها حياة خارج منطقة السياحة، حياة عامرة بالأقارب، الجيران، الزملاء، أن لها عائلة بتاريخ طويل. كان ذلك ما أفزعها، وجود ماريامـا عندما كانت هي خارج الصورة اختزلها إلى مجرد حياد بلا وجه كجزء من تيار السواح المجهولين. ما الذي تفعله هنا، في هذا المكان الموحش، هذه البقعة من الكرة الأرضية التي دمرها المناخ؟ عرض سفر درجة أولى، إزاحة فجائية، هروب من اليومي المبرمج. لِمَ بحق السماء تترك نفسها تُدحَر من قبل

رغبة عنيدة لفتاة نكرة؟ مجرد كائنة جبانة طارت مباشرة من حاضنتها الغربية إلى هنا. أدنى صدمة، أدنى مقاومة تواجهها ضد مخططاتها الجاهزة تولّد كآبة ورعبا لديها. عليها أن تتماسك وأن تظهر للفتاة من هي ومن أين أتت.

- هل أصابك شيء؟ صدر الصوت الحذر ثانية مقرمشا مثل موسيقى حلوة.

- هيا ستأتين معي الآن، قالت نانا بانفعال وشدّت بقوة ذراعها النحيلة. عضّت مارياما شفتها ألما.

- أنت تؤلمينني، قالت بتأثر وشكوى.

- سأنادي أصدقائي. صفّرت مارياما بشفتيها. ظهرت من الأحراش فتاة بدت أصغر سنا من مارياما ولكنها أجمل وأقل تعاسة.

- من أنت؟ قالت نانا منزعجة من صداع بدأت تشعر به. ولكنها لم تشأ أن تظهر ضعفا وتغطّ رأسها داخل الحقيبة بحثا عن حبوب مسكنة وقنينة ماء.

- أنا أختها، قالت الفتاة بثقة افتقدتها مارياما.

- عندي عائلة كبيرة، العديد من الأخوات والإخوة، أوضحت مارياما بتحرر أكبر بحضور أختها. وقفتا معا. تلف الأخت ذراعها حول مارياما.

- أنا أساعدها.

- بماذا؟

- أولاد السوء. إنهم يطاردون مارياما ويسرقون بضاعتها ونقودها وأحيانا صينيتها وكل شيء. لذلك أنا من يضربهم.

- لا تبدين قوية.
- ولكنها الأقوى من بين الفتيات على الشاطئ، أكدت ماريا ما.
- هل تبيعين الفاكهة والمكسرات أيضا مثل ماريا ما؟
- إنها لا تصلح للتجارة، إنها حارسي، قالت ماريا ما بدلا منها.
- اسمها مادلين مثل جدتنا، أضافت بزهو.
- ما عمر مادلين؟ سألت نانا.
- أنت تهتمين كثيرا بالعمر. قالت ماريا ما مقطبة الجبين.
- انسي الأمر، قالت نانا. لم تحسب حسابا لوجود الأخت.

نانا اعتادت التعامل شخصا مع شخص، شعرت بأنها أفلتت زمام الأمر في الموقف. شرعت بالمشي عودة إلى الفندق. كانت الأختان تسرعان بالمشي من خلفها. ألقت الشمس بقبضتها على الشاطئ المفتوح. الرمل بدرجة الغليان، حرق قدمها عبر الحذاء المطاط. تزيد نانا من السرعة. الفتاتان كانتا على جانبيها تمسك كل منهما بذراع.

- هل أنت غاضبة سيدتي؟ قالت ماريا ما بصوتها الناعم جدا والذي جرّدها من سلاحها وجعلها تنفتح. توقفت وتملّصت منهما.

- دعوني، كلتاكما، قالت وقد ندمت بمرارة على مبادرتها حول متنزه الشاطئ. كانت أساسا غاضبة من نفسها، لأنها فقدت الشعور بالتصرف المناسب، عَصَتْ جهاز إنذارها الداخلي وخاضت متجاوزة الحد بين المحليين والسياح. الحدود كانت ضرورية لمصلحة الكرة الأرضية، كان من الأهمية على الأخص ألا يتم تجاوز الخطوط الطبيعية الفاصلة.

أن يلتزم المرء جانبه من السياج ويبقى مُسيطرا.

- ولكنني صديقتك، قالت مارياما في محاولة منها لتصحيح الوضع. استدارت الأخت، المحاربة الصغيرة ووقفت تراقبهما من على مبعدة.

- مزاجي سيئ، لست على مايرام، تعللت نانا. مارياما تناولت يدها بحذر وهذه المرة شعرت نانا بالحركة أكثر طبيعية.

- لا تخافي، الناس الأغنياء دائما خائفون. قالت لمواساتها وضغطت على يدها. حيلة بسيطة قامت بتبديل الأدوار وكان لمارياما اليد الطولى.

- هل تحبين بلدي؟

- لا أعرف شيئا عن بلدك. قالت نانا متبرّمة لكنها فاجأت نفسها باحتفاظها بيد الطفلة في يدها. أهكذا وبهذه السهولة ومن دون ألم تتعافى من فوبيا عانت منها مدى الحياة؟ تفصّد العرق تحت روبها الصباحي. وحذاؤها المطاطي من غوتشي أخذ يلذعها برغم بطانته الخفيفة من الجلد.

- ولكنك تعرفينني يا سيدتي. بصوت لا يُقهر. أدركت بخشية كبيرة أن مارياما لن تتركها ثانية. أدركت أنها ألقت بنفسها طُعما. وفتحت الطريق لقوى الظلام. مارياما تقدس كل ما لا تود معرفته والذي أخفته بعيدا في الثقوب السود لوعيها تحت الخانة التي تدعى نظام العالم. لقد استسلمت نانا في لحظة سهو لنبضها التلقائي وهي الآن في ورطة.

واصلتا يدا بيد في عودتهما بمحاذاة الشاطئ. أخذت نانا أنفاسا عميقة من أجل أن تخفّف من توتر أعصابها وتهدأ.

- سأنتظرك كل يوم وسأعطيك سعرا مناسبا للنزهة على الشاطئ، واصلت مارياما بتفاؤل. نانا كانت قد وقعت في الشرك ولكنها تجنّبت التحرّر منه. كبتت إشارات الخطر وركّزت تفكيرها على الشاطئ والموج والصدف، على الألوان الصارخة والحرارة الاستوائية، على المرتفَع بدرجات سلّمه صعودا إلى الفندق حيث يقف الجنود المسلحون في حراسة للشاطيء. في جزء من الثانية رأت الشاطئ وقد تغطى برمل بلون دم قانٍ. هزّت رأسها لتنفض الرؤية البشعة عنها وحاولت أن ترتخي. كانت في عطلة وبعد أسبوع ستكون بعيدة جدا عن «قلب الظلام». ستكون في بلدها ثانية في الأجواء الشمالية لخط العرض المعتدلة، في شقتها هناك، العش الدافيء حيث لا يمكن أن يصلها مكروه.

كانتا قد عادتا إلى الفندق حيث كراسي الاستلقاء. كانت معظم الكراسي فارغة ومتروكة. تناولت نانا كاميرتها الرقمية من حقيبتها تنوي التقاط صورة لمارياما، لتثبت لنفسها ولزملائها أن الطفلة لها وجود حقيقي في الواقع. كان مزاجها هنا قد تحسّن.

- لا سيدتي، لا أحب.

- ولكني سأدفع لكِ مارياما، قالت نانا مستسلمة. فهمت أخيرا قوانين اللعبة الأساسية. البيع والشراء كان دستور العالم. لا شيء في هذا العالم مجانا. لكل شيء ثمنه. كيف أتت على نسيان مباديء ما يتعلمه الأطفال والذي درسته فوق ذلك في الجامعة؟ لابد أنها الحرارة وتأثيرات الحواس القوية التي جعلتها تفقد رشدها.

- ستسرق كاميرتك روحي وأنا لا أبيع روحي بالمال.

- كفي عن هذا الهراء مارياما.

- أوكي ١٠٠ دالاسي. تنهدت ماريامـا وبـدت كأنها قد أقرّت أمامها بذلك.

- أهلا بكِ في القرن الحادي والعشرين، قالت نانا مازحة.

ابتسمت ماريامـا غير واثقة.

- هل نحن أصدقاء؟ سألتها.

- ما وراء هذا؟

- أنتظركِ غدا.

- متى؟

- بعد الظهر.

- أوكي، نلتقي هنـاك. تناولت نانا منشـفتها وتوجهت صوب سلّم الفنـدق حيث رُسم علـى كل درجة في السلّم عبارة فندق جولدن باي بالذهب.

- نسيتِ صورتكِ، قالت ماريامـا وحملت الصينية الفارغة على رأسـها. وقفـت جاهزة للتصوير وانتقلتْ باحتـراف بين الأوضاع المختلفـة. التقطـت نانـا بضـع صور لهـا مع المحيط الأطلسي كخلفيـة بموجه الـذي علا أمتارا. مدّت ماريامـا يدها ودفعت نانا المبلغ. لقد فهمت كل منهما الأخرى. وها هي تشـعر بأنها صارت في المستوى عينه من جحيم السياحة هذا الذي يوهم بأنه الجنة.

أسـرعت ماريامـا بخطوات سريعة لتبتعد عن شاطيء الفندق متجهة صوب الشـاطئ المحلي الذي يقع على مبعدة من المنطقة المغلقـة. لـم تـر نانا إلا حشـدا مـن النـاس تقرفصوا حـول قدر

للطبخ فوق جمر الحطب. تتصور أنها عوائل قد أعدّت وجبة طعام لها على الشاطئ، شكرت من ثم الأجداد بإيقاع الطبول الذي أبقاها مستيقظة حتى الصباح. وفي انتظارها ليلة أرق أخرى مع الطبول المدمدمة التي اخترقت سدادات أذنيها. بقيت واقفة تتأمل مارياما. في ضباب القيظ اللامع بدا كأنها كانت تسير وتسير من دون أن تتحرك من مكانها. بين الحين والآخر تتعثر وتقع، من المحتمل بسبب التعب الذي سيطر عليها بعد يوم عمل وجولاتها تلك صاعدة نازلة طوال خط الشاطئ. ظلُّها الصغير يتضاءل ويتضاءل حتى يبلعها الضباب وتختفي.

احتفلت نانا بحدث اليوم بفتح زجاجة شراب مع طبق محار للمقبلات. شربت مع نفسها ورفعت الكأس وحيّت زوجين إنجليزيين في الطاولة إلى جانبها. كانت ترتدي تصميما أفريقيا من قماش قطني أسود بنقش متعرج أصفر، اشترته من بوتيك الهدايا مبكرا في الصباح، وقد سُلّمَ إلى استقبال الفندق قبل طعام الفطور وبين وقت الضحى وحتى المغيب تم تصميمه على الطراز الأفريقي التقليدي في صالون خياطة محلي. الشيء الوحيد الذي أضافته هو حزام من جلد الظباء انتقته على عجلة من قسم الجلود في البوتيك. القفاطين الكبيرة الواسعة بقماش فضفاض لم تكن مما يناسب ذوقها ولكن التصميم الأفريقي يزنّره حزام عريض بدا حقا أنيقا مع قوامها الطويل المتأرجح الرخو بعض الشيء.

كرّم الزوجان إيماءة نانا بدعوتها إلى طاولتهما لتناول وجبة العشاء معهما. تم اختراق حاجز الصوت لديها فشعرت بتواصلها

مـع كل العالـم. كان يسـعدها رؤيـة ماريـاما ثانية فـي الغد، وأخذت تناقش هذين الودودين بانطلاق. تحدثوا عن درجة تصنيف الفندق، معـدات الغرف، مسـتوى الخدمة، وجبة عشـاء اليـوم والجودة التي تخص الفندق وما هو مفقود فيه. كل ما يدور في رؤوس السياح التي تئـزّ وأذهانهم المتعبة. منحوا درجات الاسـتحقاق وشـربوا بإسـراف كأنهـم ينـوون إغراق الحـزن. هل كان هو اشـتياقهم إلـى محيطهم المعتاد؟ هل كان الشك في حقهم بالوجود الآن وبالتحديد هنا؟ هل كان الخوف من الظلمة التي تترصد عبر النوافذ؟ لصفير الأصوات ومجيء الليل؟ هذا الخوف المبطن والقلق أنتج مرحا شديدا وحركة رشيقة سريعة لتبديل الشرشف الأبيض.

– خمس نجوم تماما، صاح بِن. ملأت زوجته اللطيفة بياترس الكـؤوس فصلصلت، مهدهـدة على ترفهم المرتعش وسـط البحر الأفريقي الهائج.

لم يكونوا قد تبادلوا معلومات شخصية تخصهم بعد. تجنّبت نانـا قدر الإمكان التحدث عن نفسـها. أخفت نفسـها خلف قناع محايـد ومجهـول. كانت تشـعر بنفسـها مختلفة وتبرز بشـكلها الأفضـل فـي العمـل وكل مـا يتعلـق بالجانـب المهنـي. اللقاءات الاجتماعية والأحاديث الجانبية كانت تكلفها جهدا مثل تكليفها بتنفيذ عمل يقع خارج قدراتها.

حالما يتحـول الحـديث ويصـير شـخصيا وعاطفيا تنسـحب. لا روح ولا مشاعر لديها لتفرّغها.

– نانا هل أنت بخير؟ مرّ صوت بياترس متخللا شرودها.

– عفوا.

- شردتِ بعيدا. ربما تفكرين فيهم هناك في بلدك؟ قالت بياتريس بلطف.

- ليس لي أحد.. هناك.

- لا بد لنا من أحد. أظهرت بياتريس مراعاة بشكل غير معتاد ما جعل نانا تستغرب ذلك. هل رأت شيئا لم يمكن للآخرين أن يروه؟

- بالطبع. سارعت لتقول.

- عندما نكون في الخارج نشتاق إلى الوطن وعندما نعود يتملكنا الشوق للسفر، أكملت بياتريس كأنها تحدّث نفسها.

- ما الذي أتى بكِ إلى هذه البقعة من الأرض؟ قاطع بِن قائلا.

- المصادفة، اللحظة الأخيرة... سفرة لقضاء عطلة، تمتمت نانا.

لم تكن ترغب في الكشف عن أن سفرتها كانت اقتطاعا من وقت العمل لتفادي الإجهاد والضغط النفسي تم تنظيمها من قبل مدرّب الحياة المسؤول عن ذلك في الشركة.

- إذن أنتِ لستِ بالبيزنس، خبيرة بأفريقيا أو شيء من هذا القبيل؟ كان بِن هو الرقة بعينها.

- بعيدا جدا عن هذا. جواب نانا المختصر لم يبطل من عزيمة الاثنين اللطيفين اللذين جعلاها تنفتح بسؤالهما الجريء والمباشر.

- سفرة لقضاء العطلة فكرة جيدة، أكد بِن الذي كان رجلا قصيرا ممتلئا نصف أصلع بقميص بنصف أكمام، وبنطال سفاري وحذاء بحّارة. كانت بياتريس أطول منه، كتفان عريضتان

معضّلتان، قامة رشيقة ملفوفة بفستان بزهرات صغيرة من قماش قطني خفيف. لم تستطع نانا رفع عينيها عن بياتريس. هي ترى النساء أجمل وأكثر جاذبية من الرجال، ولكن ليس بالضرورة أكثر ذكاء.

- أريد أن أعيش .. عالما آخر. كان على نانا أن تختلق سببا مقنعا لاتخاذها خيار هذه السفرة غير التقليدية.

- وما المجال الذي تعملين فيه إذن.. عندما لا تقيمين هنا؟ تبنت بياتريس السؤال.

- أنا مديرة في راوار العالمية. تم انتقائي للتعيين بعد حصولي على الماجستير. أخذت نانا دورها في الحديث كأنها في مقابلة عمل. لم تكن معتادة على التحدث عن نفسها.

- ممتازة، انبرت بياتريس قائلة. احمرّ خدا نانا. كانت تتحرج من الملاطفات.

- هل أنتِ نابغة نانا؟ أمال بِن رأسه وأطرفَ عينيه.

- لِمَ لا؟ تمّمت بياتريس بارتياح.

- أنا إنسانة بعقلي ليس بمشاعري، قالتها بموضوعية كأنها كانت تتحدث عن شخص وهمي.

- هكذا تعبير لا يمكن أن يأتي به إلا الناس الحساسون، ابتسمت بياتريس. ترحابها كان طبيعيا جدا إلى درجة أن خوف نانا المزروع من الناس الذين لا تعرفهم تلاشى.

- هل أنت طبيبة، محللة نفسية؟ لا، لا أظنك كذلك، قالت لبياتريس. لطالما تلقّت جلسات منهم من دون أن يحالفها الحظ. لم يكن لديها الصبر لتتم كل برنامجهم.

- تخمين جيد. لست محللة نفسية ولكن أنثروبولوجية.
ضربت بياتريس يديها قائلة.
- هذا ما حلمت به أنا أيضا ذات مرة ولكن خانتني شجاعتي.
قالت نانا باندفاع.
- أي شجاعة؟ سألت بياتريس.
- أن أعيش بين الغرباء بعادات غريبة في ظروف غريبة.
تجنبت أن تقول «بدائية».
- إن كان المرء يشعر بنفسه غريبا بين غرباء فهذا بسبب كونه هو غريبا عن نفسه، قالت بياتريس. أطلق بِن ضحكة عالية.
- هذا موضوع «بي» المفضل.
- بِن يعمل في مملكة الحيوانات، أجابته بياتريس.
- بيطري رجاء، صاح بِن مادا يده صوبها.
- نحن في منتصف الفترة لمشروع السلامة البيولوجية لمصلحة مركز «أبوكو» للثروة الحيوانية، قسم الصحة والإنتاج الحيواني تحديدا.. لا يبعد كثيرا عن الفندق، أضاف كنوع من الاعتذار لأنهما يقيمان في فندق خمس نجوم.
- نحاول ضبط خطوط ميزانية المشروع، تسلمت بياتريس الحديث.
تبادلا الحديث عن تجاربهما بالأمس عندما كانا في الأدغال عند أحد مربي الدجاج بما يتعلق ببرنامج التلقيح «keep the birds from flu». شريكهما كانت له وظيفة وزارية جدية في الدولة يرتدي بدلة رجالية ضيقة، اشتكى الانفجار في الأسعار المخفّضة الأوروبية لمعامل تصنيع الدجاج المجمّد التي دمّرت السوق المحلي لمزارع البلد الصغيرة.

- لعلمك فقط، أنهى بن كلامه بنبرة تهكمية من نفسه.

- لن نزعجك أكثر بإحصائياتنا الموثوقة بخصوص الزراعة والتوعية الصحية للأغذية، أضافت بياتريس. اكتفت نانا بهزة خفيفة من رأسها. العمل في مجال المساعدات كان بعيدا كل البعد عن عالمها لكي يثير الاهتمام لديها.

طلب بن المزيد من الشراب واثقا بأن المطعم سيبقى مفتوحا مادام هناك ضيوف والموسيقي الوحيد بالجاكت والرباط كان يعزف الأغاني القديمة الكلاسيكية المعروفة على الكي بورد. بدأ المكان يفرغ. كثيرون كان عليهم الاستيقاظ باكرا في الغد في جولة سياحية. الصباحات الباردة كانت تستغل لرحلات سيارات الجيب المتعبة في الريف.

- إذن أنت تعملين ضمن الاستثمار وسوق الأسهم؟ سألها. نانا هزّت رأسها بالإيجاب.

- من المؤكد أنك تعملين ٢٤ ساعة؟ قالت بياتريس.

- أنا متزوجة من عملي. اعترفت نانا بصوت خفيض.

حرّكت بياتريس يدها محتجة.

- إنه الشعور بالواجب الذي فيك.

- لا أسميه واجبا. أنا أستخدم نفسي بأقصى ما لديّ وأقدم ما هو مطلوب مني. سميه تسديدا معقولا لكل ما استثمره المجتمع في دراستي العليا الباهظة التكاليف.

- العمل وباء عصرنا، صرنا جنود عمل، قالت بياتريس.

- لا تحبطي من عزيمة صديقتنا، اعترض بن منزعجا بعض الشيء.

- أقولها كما هي لا غير، بِن نحن نعمل ولا نعرف من نحن، قالت بياتريس مصرة بهدوء.

- العمل آخر رذيلة تبقّت لنا، قال بِن بمرح مقتبسا ذلك من فن غرافيت من على أحد الجدران في لندن سيتي.

- أنا سعيدة بلقائكما، قالت نانا بتلقائية.

- ونحن كذلك عزيزتي. أضاءت عينا بِن اللتان تشبهان عيني سنجاب.

- أتوقع أنك لا تعملين ليل نهار فقط ولكن يمتد ذلك إلى اللاوعي والأحلام، مستمرة بياتريس بالقول.

- أنا استغل كل فهرسي الإبداعي.

- جميل أنكِ مازلت تستخدمين الكلمة «إبداع». تذكرني بتلك الأيام التي كنا فيها نؤمن بالمستقبل وكنا جزءا من صف العولمة الإبداعي. بياتريس بدت جميلة، فاتنة، فكرت نانا مع نفسها.

- أعيش مثل راهبة والعمل صلاتي، مرّ القول عبر رأسها مثل سطر شِعري. نظرت بياتريس إليها. أحبت نانا نظرتها الفاحصة الهادئة.

- أملنا الوحيد أن نصير فقراء من جديد. الفقر وحده الذي يمكن أن يعيدنا إلى الطريق كبشر في عالم إنساني.

وجّهت بياتريس انتباهها إلى بِن ثانية.

- ألا تجدين في هذا رومانسية عالية؟ اعترض بِن.

- لا أعني العوز والتعاسة، ولكن الاعتدال والاحترام لأسلوب حياة مستدام وقنوع، الفضائل القديمة بمفهوم حديث. شاب وجه بياتريس الشاحب لونا. تساءلت نانا مع نفسها إن كان للزوجين

أطفال أم لديهما ما يكفيهما بعملهما. لو ترك لها اختيار والدين كانت اختارت هذين الزوجين. تمنت أن تكون طفلتهما.

- الغنى يشوه العقل ويقسّي الحواس ويدّعي الخلود، تابعت بياتريس. بدوا كأنهما يديران حوارا خاصا بينهما لن ينتهي بوجود نانا.

- كل الحضارات اضمحلّت من داخلها. أقرّ بِن.

- الإمبراطورية الرومانية، هزّت بياتريس رأسها موافقة ووضعت يدها على ذراعه. شعرت نانا بأنها كانت متعبة، غير معتادة كما هي الآن على اللقاءات الاجتماعية خارج مجالات العمل الاعتيادية. تمنت لو كان بمقدورها الانسحاب إلى غرفتها في الكوخ لترتمي على سريرها. بينما بدا كل من بياتريس وبِن على العكس نشيطين محبّين للحديث على الرغم من أن الوقت متأخر.

في النهاية كانوا الوحيدين في المطعم. وقف نادل متهيئا عند الباب المطل على المتنزه ينظر بعين فارغة في القاعة. اثنان آخران يقاومان تثاؤبهما، بينما يقومان بتعديل الموائد. لم يطلب منهم أحد دفع الحساب ومغادرة المطعم. للضيوف مطلق السيادة وحق البقاء طوال الليل إن شاءوا.

- شراب؟ اقترح بِن. لم يكن بمقدور نانا إلا أن تقبل الكأس الأخير وتندم بالوقت عينه. ولكن بِن لوّح للنادل الذي جاء في الحال مع الشراب والقائمة في علبة خشبية صغيرة بغطاء مقوّس. نظرت بياتريس إلى بِن ونهضت. وضع بِن فئات ورقية من الدالاسي في العلبة التي خبأ أصحاب المطعم بداخلها هدايا صغيرة من الشيكولاتة وأقراص اليانسون لتنظيف الأسنان.

- لنبق على تواصل، قال بِن بلطف وهمّ بمصافحتها كأنه حدس أنها لا تحب أن يمسّها غريب. بقيت جالسة بمكانها هادئة تستمتع بالشراب، عارفة أن الفاتورة تم دفعها.

لم تتمكن من النوم ليلا. ولم تكن هي لتتوقع ذلك بعد حفلة المساء الحية، كؤوس الشراب من بعدها. هذا عدا أصوات الطبول المدمدمة المدمرة للأعصاب التي كانت في محل ما بالخارج في ظلمة الليل. بلعت جرعة مضاعفة من الحبوب المنومة ولكنها لم تستطع أن ترتخي. استلقت وتقلبت على الفراش بين الشراشف المنشاة ورأسها مملوء بخطط لصباح اليوم التالي مع ماريااما. هل تشتري لها هدية من بوتيك الهدايا في الفندق أم أنها تفضل الدفع نقدا؟ عليها أن تستعد جيدا وتكتب كل أسئلتها على ورقة. ربما كان بمقدورها أيضا تقديم شيء لعائلتها؟ وجدت نفسها في نوع من حالة غبطة. وقفت وتخبطت في الظلمة وعادت بحضن مملوء بالقناني إلى سريرها وأفرغت الواحدة بعد الأخرى. لم تستطع أن تستوعب ذهنيا الجو الذي كان مفرط الإثارة إلا عن طريق ضربه بيد من حديد. هل كانت المشاعر هي التي استبدّت بها. أم كان ذلك مجرد خيالها الذي قادها من خلف الأضواء ومنحها وَهْمَ أن تكون على تواصل مع كل ما هو حي، الأشجار، النباتات، الحيوانات والبشر؟ أم هي الأرواح الأفريقية التي اقتحمت الجدران والأبواب المقفلة والنوافذ وسلبت منها عقلها؟

لم تستطع البقاء في السرير. احتاجت لأن تتحرك. نهضت وارتدت ملابسها لتقوم بنزهة حول الفندق خارجا. كانوا قد نصحوا النزلاء بعدم المشي من دون مرافق في المنطقة ليلا.

على الرغم من جولات حراس الأمن الدورية. تضع كل التحذيرات جانبا وتتجاهل تعاليم الفندق الأمنية. في العادة لا يمكن لها أن تتجاوز لوحة «حظر تجوال» أو الأحمر في المرور لكنها شعرت بأنها محجوزة وتحتاج إلى هواء.

بقميص طويل الأكمام، بنطلون من الكتّان وخطوات واثقة بحذاء الركض مشت عبر الباب إلى الخارج وأقفلت الباب مرتين من خلفها. استقبلها عطر ورود مبهر دافيء ونباتات جافة مثل مخدر. كان الظلام يحفّ المكان حول الأكواخ، العشب كان ناعما مثل سجادة من الإسفنج حيث الأقدام تغطس بأمان على قاعدة ثابتة. وجدت نفسها في حالة من السلام ومن دون خطر. كانت مثل طفل مقمّط داخل تلك العتمة. من أين أتاها شعور الأمان الخدّاع الذي لم تشعر به يوما في قارتها هي، لا في وضح النهار ولا بعد حلول الظلام؟

ابتعدت عن الساحل بين الأكواخ المظلمة التي تمكنت من تمييز خطوطها في اللمعان المنعكس لمبنى الفندق الرئيسي والإضاءة الخافتة لممرات المتنزه. سرعان ما اعتادت عيناها الظلمة وتمكنت نوعا ما من التعرف على المكان. من دون إنذار ومثل نبت من الأرض انتصبت قامةٌ أمامها تماما. شعرت بقبضة قوية على ذراعها وصرخت. كان أحد حراس الفندق. أضاء وجهها وعرف في الحال أنها من نزلاء الفندق.

- آسف مام، لا يجب أن تكوني هنا في هذا الوقت من الليل، قال لها معاتبا، بلغة مجروحة تقريبا. لو حصل لها مكروه سيفقد وظيفته، أصرّ بقوله. نزهتها تلك التي جاءت من دون تفكير كانت تهديدا لأساس وجوده.

- عـذرا، قالـت منزعجـة لشـعورها بسـلب حريتهـا. الحارس واصل بمصالحة أكبر.

- إن كنتِ في حاجة إلى هواء نقي يمكنك مرافقتي في جولتي ودعيني بعدها أرافقكِ الطريق إلى الكوخ، عرض الحارس عليها.

شـكرت لطـف الرجـل الـذي كان والظلمـة واحـدا. لـم تكن ترى منه إلا الخطوط الفسـفورية لزيه الرسـمي. كان شيئا كماليا أن يكون حارس أمني إلى جانبها لكي تنسـى كل ما تحرك هناك في الظلمة.

- أليـس عدد الجنود كبيرا على الشـاطئ السـياحي؟ باشـرت المحادثة.

- من أجل أمانكِ مام.

- لا بأس بالأمان، ولكن هذا العدد من الجنود... مخيف.

- قرار رئيسنا، يقلقه جدا أمن سوّاحنا. عندما يُمشّط الشاطئ ينسـحب جنودنـا ويتركونه للشـرطة الاعتيادية. درسـوا بشـكل أفضـل مـا يخص السـواح. كان الحارس يحـرّك يديه والخطوط المضاءة على أكمام الجاكت تتأرجح عاليا وأسفل.

- هل تعرضتِ إلى مشاكل؟ واصل معها.

- لا، إطلاقا، ولكن الجنود يزعجون باعة الفاكهة الصغار.

- لأنهم يزعجون السواح، إنهم يخرّبون شغلنا.

- إنهم لا يفعلون شـيئا. لم تسـتطع نانا أن تحجم عن الدفاع عن صديقتها الجديدة.

- السياح يشتكون مام، لا يريدون إزعاجا على الشاطئ.

- أليس مسموحا بيع الفاكهة والمكسرات على الشاطئ؟

- فقـط مـن هو مخـول ولديه ترخيـص. بدا الحـارس متعبا ومنزعجا.

- مـا الـذي يحصـل لهـم إن لم يكونـوا مخولين؟ سـألت نانا بحذر.

- سيسـلّمون إلـى الشـرطة ويوضعون في الحجـز، حتى تأتي عوائلهم وتدفع الغرامة.

- أليس في هذا مبالغة؟ اعترضت نانا.

- الأمر جاد، مخالف للقانون. أوضح لها مُداخلا.

- آمل أن تكون صغيرتي بخير.

- إن التزمـتْ بالقوانـين. أكّـد الحارس. لازمت نانا السـير من خلفـه بخط مائل، دليلها الخطوط المضـاءة على بدلته. زاد من سرعته. تساءلت نانا إن كان الحارس من أصحاب النظام والقانون الذين يكرهون اللانظام. أم هو مجرد الخوف من اهتمامها بطفلة عرضية على الشاطئ الذي بدا غير مناسب، فأظهر عدم تعاطفه مـع «غير المخولـين»؟ مرّوا بأحـد زملائه في الممشـى الضيق من البلاط. تبادلا سلسلة من التحايا الحارة.

- إنه أخي، قال الحارس باقتضاب وواصل جولته مع نانا التي كانت تتبعه. توقف فجأة كأن برقا أصابه وأشار إلى شجرة.

- هل ترين البومة هناك سيدتي؟ إنها ساحرة، روح شريرة، قال بصـوت مرتجف. لم تسـتطع نانا رؤية شـيء فـي الظلمة. تناول الحارس حجارة من على الممر وألقى بها بكل قوته على البومة.

- يجـب أن تُقتـل باللحظة، ولكن الحارس وللأسـف ممنوع من حمل السلاح. استدار وانطلق بنصف قوس حول الشجرة والبومة.

- هل تعتقد حقا أن البومة ساحرة؟ قالت نانا لاهثة.

- أنا لا أعتقد، إنها حقيقة. وزاد الحارس المرعوب من سرعته.

من دون أن تلحظ نانا كانا خارج منطقة الفندق. أدركت فجأة أنها انطلقت خلال الليل بثقة تامة أن الرجل الذي لا تعرفه سيرافقها بأمان عبر الظلمة. لعنت عدم انتباهها وخبلها. من أين استمدت أفكارها؟ هل كانت بكامل قواها العقلية؟ فكرت مع نفسها بينما كانا متوجهين صوب مشهد من جمال خرافي. حول نار برتقالية جلس أولاد وبنات بمختلف الأعمار كبارا وصغارا متلاصقين في حلقة، سيقانهم ممددة وكعوب أقدامهم تجاه النار. نساء يرقصن بحلي ثقيلة وزينة بتصميم جميل للرأس، تمايلن في سلسلة طويلة داخلات خارجات من الحشد المتجمع حول الأطفال. الأجواء كانت قاتمة تعتمل فيها عواطف محبوسة. لم يكن من مناظر لجذب السواح ما شهدت. شعرت نانا بعدم ارتياح للصدى الذي أفاقه إيقاع الطبول العميق. بحثت عن الحارس الأمني، أرادته أن يرافقها إلى الكوخ ولكنها لم تعثر عليه بسبب الدخان المنبعث من النار والزحمة المتحركة للقامات الراقصة التي توحدت مع العتمة لذا لم يكن مرئيا غير الحركة.

شعرت بيد على فخذها فاستدارت. من خلفها وقفت امرأة عجوز تطوى وجهها بتجاعيد ناعمة. كانت ترتدي كمّا من الأساور من صدف اللؤلؤ وحلقة عريضة مخدّدة من الذهب حول أحد زنديها. على رأسها كانت ربطة باللونين الأحمر والبرتقالي.

- أين أنا؟ سألت نانا ومسكت بيد المرأه.

- بأياد أمينة، أجابت العجوز باختصار بالإنجليزية. يبدو

أن الـكلام كان غيـر محبـذ خلال هذا الطقس. لـم يكن لدى نانا خيار آخر غير البقاء حيث هي. وقف الجميع يدا بيد في الحلقة الخارجية من الحشد والعتمة الراقصة.

برغـم الخطر الذي من الممكن أن تتعرض له كغريبة في حفل الليـل كانـت نانـا هادئة بشـكل غريـب. وجدت نفسـها في حدود ضبابيـة بين عالـم البشـر والأرواح، وفكرة الموت لـم تفزعها. كان لديهـا شـعور بأنهـا بلغـت نهاية الطريـق. الشـيء الوحيد الذي أحزنهـا هو أنهـا لن ترى ماريامـا ثانية وتريها نواياها الحسـنة. ناولت العجوز نانا عودا بلون قهوائي فاتح لكي تعلكه. كان عصيرا مُرّ المذاق.

لـم تجـرؤ أن تبلعه والعصير تجمع في فمها وانتهى بأن سـال مـن زوايـا فمها ومن ثم إلى حنكها. ناولتها العجوز قطعة قماش قطنيـة جففت بها فمها. بصقت العود على الأرض ورفضت أخذ المزيـد. هـزّت العجوز رأسـها متأثـرة حتى ترنحت أقـراط أذنيها الثقيلة بقوة رواحا ومجيئا.

شـرعت تدفـع نانـا إلى الأمـام صوب النـار حيث كانت سـيدة الطقـس برداء طويل تجبر الأطفال على تناول شـراب ما. تركت نفسـها تسـاق مثـل ثور وحيـد تائـه إلى طاولـة الذبـح والمصير المنتظر. آكلة لحوم البشر كما تظهرها الرسوم القديمة للطرائف حيـث الملوك الزنوج يأكلون المبشّـرين البيـض كانت مطبوعة في لاوعيهـا. هـذا التصور المعتـاد كان بمنزلـة صافرة إنـذار داخلية يمكن استدعاؤها في المواقف المهددة بالخطر. لم تفكر في مقاومة شيء أثناء ذلك أو الدفاع ولكن على العكس أن تخضع وتستسلم.

كانت بعيدة جدا عن نصف الكرة الأرضية حيث بلدها،إلى درجة أنها فقدت الإحساس بوجهتها.

كانت مع العجوز، دخلتا حلقة الأطفال. الحرارة المنبعثة من النار كانت لا تطاق. أدارت نانا ظهرها ووضعت يديها على وجهها. شعرت كأن جسدها يغطس في ماء مغلي. يبدو أن الأطفال المجتمعين لهم جلد سميك فلم تقرصهم حماوة النار. أمسكت العجوز جيدا بنانا. كانت تحت حمايتها. لم يلحظ أحد وجود نانا. كأنها كانت غير مرئية ولا وجود لها، كأن الطقوس كانت تجري في واقع ثان غير الذي وجدت فيه.

اندفعت حلقة الأطفال قريبا من النار ولحس لهيبها كعوبهم. صراخ قوي امتزج مع الإيقاع الحامي للطبول ووصل قمته. بعض الأطفال نهض من الحلقة، تلووا وداروا حول أنفسهم مثل مجانين بينما كانوا يتقافزون على أقدامهم الملسوعة. اخترقت تأوهاتهم وشكواهم الطبول المدمدمة. انحنت نانا وسألت العجوز عمّن يكونون.

سحرة. صوتها الرفيع غرق في الصخب. نهض كل الأطفال من الحلقة. ركضوا تجاهها بأيادٍ ممدودة يريدون جرّها إلى الجنون. أمسكتْ نانا رأسها بيديها وأغمضت عينيها. كان الصراخ العالي وصوت الأنين كأنهما أتيا من داخلها وتفجرا إلى الخارج عبر جمجمتها. في كل مرة تفتح عينيها كان الأطفال في كمٍّ من أصداف المحار البيض الصغيرة يطوفون بلا وزن بعضهم حول بعض كما في كابينة فضائية في طريقها إلى ظلمة الكون الوامضة.

استيقظت نانا متأخرة في الضحى بشعور كمن يتأرجح عاليا تحت السقف وينظر إلى نفسه مستلقيا بأكمله ممددا على السرير. لم يفارقها الإحساس باللاوزن. أخذت نفسا عميقا لتعيد اتصالها الأرضي وتبعد صداع رأسها النابض. ليس لديها من تشبيه للحالة غير أيام الدراسة والخمار الشديد. تمارين التنفس ساعدتها لتذكر اختتام الليلة الماضية حيث وجدت نفسها تقف وحدها عند جمر الحطب المشتعل على المرج الممتد، حيث سجادة العشب الكثّ المقصوص ذكرها بملعب غولف. هل تعرضت إلى خداع في الحواس حفزته المادة المخدّرة للعود البني الذي أعطته العجوز إياها؟ حارس الأمن تمشى صوبها.

- عليك للأسف المجيء في الصباح سيدتي، قال. أوضحت نانا أنها ليست لاعبة غولف. نظر إليها مُربَكا كأنه لم يقابل أوروبيا قط لم يلعب الغولف من قبل.

- ما الذي حصل؟ أكان صيد السحرة؟ سألت غير واثقة بما شاهدته.

- هل أنتِ مهتمة بالفولكلور؟ لدينا متاحف جيدة في بانيول، قال بحماسة. وصفت له نانا الطقوس كما عاشتها.

- خيالكِ قد ذهب بعيدا سيدتي، قال الحارس بغضب وبدا كأنه يغطي على شيء محرّم.

- لا، لا، رأيت ذلك بأمّ عيني، قالت نانا معارضة. كانت منفعلة، صور متداخلة من أفكارها تزدحم وتدور في رأسها. أمسك الحارس ذراعها بقوة وبقبضة محكمة قادها إلى المرج عبر أشجار الماغنوليا الملتوية إلى كوخها. وقد فقدت إحساسها بالوقت ولم تدر إن كان الصباح قد طلع أم مازال الليل لم ينته بعد.

نهضت نانا وارتدت ملابسها على عجل. أهم نقطة في برنامج اليوم هو الموعد مع مارياما. لا تحسب أنها ستحصل على كرسي استلقاء في وقت متأخر من النهار وسترضى بموقع في الخلف على الشاطئ. التفكير في مارياما جعل حادثة الليل تشحب. أعطتها أملا لم يكن لديها من قبل، لا تفهم كيف، ولا تعرف من أين أتى. كانت لديها رغبة في معايشة يوم مارياما، عائلتها، بلدها، وأن تضع الحياة الهشة الصغيرة داخل إطار من واقع أفريقي خام والذي يمكنها تعديله عبر وسائل اقتصادية صغيرة.

شدّها الشاطئ أكثر من المطعم وقررت أن تتجاوز وجبة الفطور. وضعت على عجل برتقالتين وكتابا في حقيبة الشاطئ. لم تكن تخطط لقراءة الكتاب (الذي لم تكن منتبهة حتى إلى عنوانه). كان درعا لها على الشاطئ، أو في المطعم، ليشير ليس فقط إلى اختيارها بنفسها لوحدتها بل إلى حاجة شخصية عميقة، إلى أنها كانت مرتاحة لرفقة نفسها، توليها الأهمية وتفضلها على تعرّف سطحي ما.

وضعت مكياجا كاملا وغادرت الغرفة كالعادة بالبيكيني وروب صباحي، مع قبعة من القش ونظارة سوداء وحذائها المطاطي الناعم الذي لا تستغني عنه.

في منتصف الطريق بين الكوخ والسلّم نزولا إلى الشاطئ قابلت الحارس الذي قادها إلى حادثة الليلة الإكزوتيكية. لم تشعر بانزعاج إزاء شكّه بتجربتها الليلية، مجرد استغراب بارد لكونه مازال في العمل.

- اضطررت إلى مواصلة العمل، مشكلة مع الموظفين، أوضح قبل أن تبادر نانا لتسأله عن السبب في عدم حدوث تغيير

بالحراسة بين الفريق الليلي والنهاري. بوعي لما يعنيه أمان السياح وبالتالي صناعة السياحة. واصل جولته الثابتة مع قوله بلطف: «يوما ممتعا».

أسرعت نانا متابعة في الاتجاه المعاكس صوب سلّم الشاطئ. كانت تتطلع بفرح مثل طفل للجلوس على الشاطئ لقضاء فترة الانتظار متخيلة ما سيبدّدان الوقت فيه هي ومارياما. أوشكت أن تنزلق على درجات السلّم التي كانت ضيقة قياسا بقدميها الأوروبيتين الكبيرتين، لذا تعين أن تنزل بقدمها بالعرض. فكرّت في موقف حدث في اجتماع للأزمة المالية عُقِدَ في هونج كونج.

- إنهم يطولون ويطولون، سمعت رجلا صينيا غاضبا يقول عن البعثة الأوروبية التي فاقت المشاركين في المؤتمر. عضو من البعثة البريطانية قال: «آسف سيدي، كثير من الفيتامينات» الأمر الذي نشر بعضا من المرح بين الواقفين قريبا. مشترك روسي صاح: «أوقفوا التموين، لا مزيد من الفيتامينات للأوروبيين».

ضرب وجه نانا ضباب البحر الحاد. كان عليها أن تتشبث بقبعتها التي اشترتها من المكسيك خلال رحلة عمل. اهتاج الشاطئ فجأة. انزاحت كراسي الاستلقاء التي انقلبت هنا وهناك. كان الهواء ثقيلا بحبات الرمل التي ضربت نظارتها الشمسية. تناولت ربطتها الحريرية ولفّتها حول أنفها وفمها. كان هناك زوج من الصيادين يجرّان قاربهما إلى الشاطئ. ذهبت نانا إليهما. كان هناك سمك مفضض رخو في قاع القارب الخشبي الطويل الضيق.

- هل تعرفون بنتا اسمها مارياما؟ بدأت بتلمّس الوضع.

- نعرف المئات، قالا مرة واحدة.

- هناك واحدة، تبيع الفاكهة والمكسرات هنا على الشاطئ. أصرّت نانا.

- هي على العموم لن تظهر اليوم، نظر الصيادان بوجه قاتم إلى البحر من حيث تهب الريح العاتية.

بعيدا بمحاذاة الشاطئ كان زوج من السياح يقاتل للتقدم بوجه الريح المضادة لهما.

- هل تستمتعين ببلدنا؟ قال أحد الصيادين.

- أجل، جدا، قالت نانا وهي تتفحص الطريق إلى الشاطئ المحلي، الذي خمّنت مجيء مارياما عبره.

- إذن أنتما لا تعرفان تلك البنت الصغيرة؟ مارياما؟ ألحت نانا بسؤالها. الرجلان كانا منشغلين بالشِباك المنشورة على الشاطئ.

- هي تشبه الأطفال المتسولين، بشرة رمادية، شعر رمادي، بدلة متسخة وأقدام وسخة.

- هذه يمكن أن تكون أي بنت من البنات على الشاطئ.

- لا، البنات الأخريات نظيفات ومرتبّات، صاحت ليعلو صوتها على الريح. نظر الرجلان إليها وهما يهزّان رأسيهما.

- المعذرة لهذه العاصفة، لا يجب أن يكون مثل هكذا جو الآن، هذا ليس طبيعيا في هذا الفصل من السنة، قال أحدهما بمنتهى الجدية. نظرت نانا فجأة إلى نفسها بعينيهما. لا بد أنها تبدو مضحكة بربطتها الحريرية الخضراء التي غطت وجهها بدءا من النظارة الشمسية وإلى أسفل، إرهابية بروب صباحي. لم تعرف كيف تواصل الحديث حقيقة وسألت إن كان زوج السمك الصغير

فـي قـاع القارب هو حصيلة صيد اليـوم. أدار الصيادان ظهريهما لها معترضين وبدأ نقاش داخلي صاخب.

أدركـت متأخرة أنها وبتعليقها العفوي حول صيدهما البائس قد جرحت كبرياءهما وكانت بنفسـها السـبب خلف الإهانة التي لم يمكن تلافيها بعد ذلك.

تابعت السـير مشيا على طول الشـاطئ بعد أن تُرِكَت وحيدة. علـى الرغم من الشـمس المشـرقة جعل العصف مـن المكان بقعة فارغـة مهجـورة. زحف السـياح متجمعين حول مسـبح الفندق. الصيـادون كانوا قـد ذهبوا إلى بيوتهم والنـاس المحليون حرصوا علـى الابتعـاد احترامـا للعاصفـة التـي كانـت فـي طريقها من المحيـط الأطلنطي. لم تفقد الأمل في أن مارياما سـتظهر على الرغم من أنهما لم يتفقا على مكان ووقت محددين.

جالت على الشاطئ نحو ساعة من الزمن. في السماء العملاقة من فوقها كانت الغيوم قد بدأت تتجمع فوق البحر سـودا منذرة، بينمـا كانت على اليابسـة لاتـزال بلون رمادي فـاتح. لن يتطلب الأمـر إلا بعضـا من الوقت حتى تزخَّ السـماء المطـر. خفّت حدّة العاصفة بعض الشـيء في نفس محبوس مشـؤوم. الشـاطئ كان خاليـا من النـاس تماما. حتى الجنود انسـحبوا. لـم يكن هناك من بشـر غيـر نانا بزيها الإرهابـي الغبي. قـررت أن تذهب لتغيّر ثيابها إلى لِباس أكثر ملاءمة. بنطلون سـميك من الجلد، جزمة مـن الجلد طويلة وذلك الجاكت الرياضي الخفيف المقاوم للريح والماء. قفزت درجات سـلّم الشـاطئ بقدر ما سمح لها ذلك الروب الصباحي غير المريح. تذكرت في منتصف الطريق إلى أعلى أنها

نسـيت وأبقت قاصة النقود والحلي مفتوحة حين اسـتلّت بعضا من أوراق الدالاسـي النقدية لاستخدامها عندما تلتقي مارياما. انطلقت راكضة على المرج إلى الكوخ.

وصلـت مقطوعة الأنفـاس. فتحت الباب ودخلـت إلى الغرفة المنظفة التي تعبق برائحة الكلور. كانت القاصة مبنية في الجدار بـين طاولة الكتابـة وخزانة المدخل. بابها كان شـبه مطبق. كانت متهيئة لتوقع الأسـوأ ولم تجرؤ على فحص المحتويات. كل شيء كان في محله، بطاقة الائتمان، الجواز، النقود والحلي. أي أمانة! يؤلمها تفكيرها السـلبي في الفقر الذي يعيشـونه. أطبقت الباب وأقفلتـه بالشـفرة. جرى العرق من جسـدها. اضطـرت إلى أخذ حمّام سريع لكنها لم تتمكن من أن ترتخي. كانت تخشى أن تكون ماريامـا تبحـث عنها على الشـاطئ. كانت تسـمع صوتها الناعم يناديهـا عبـر خيوط ماء الـدوش الناعمة. أسـرعت لتضع عليها قطـع الملابس التي ألقتها على السـرير. لفّـت الربطة الحريرية حول شـعرها. شـعرت بـأن الجزمة ضيقـة، فقد اعتـادت قدماها الحرية في حذائها المطاط الناعم.

حالما نزلت إلى الشاطئ انفتحت السماء وهطل المطر في حبال متينة. وقفت نانا تحت سقيفة وظهرها تجاه التلّة الترابية التي حجبت الفنادق عن الشاطئ الذي فقدت السيطرة عليه. وضعت حقيبتها على رأسـها لتحميها من المطر. كانت تبحث عن القامة الصغيرة على الرغم من أن عقلها يقول لها إنه من غير المحتمل أن تظهـر مارياما في جوٍ يمنعها من التعاطي مع السـياح. ظلت واقفة ولم يكن لها غير أن تترك المطر يهطل وينزل داخل تلافيف

عقلها الذي كما يقال نسخة مصغّرة من الكون. (*) «Il pleure dans mon coeur comme il pleut sur la ville» كانت صورة ملائمة للسوداوية التي شعرت بها بلا حد، حيث تقف مثل فأر غرقان وماء المطر يسوط الرمل.

أصاب التشنج رقبتها وظهرها بسبب الوقوف فمشت متابعة بمحاذاة التلة الترابية والحقيبة مازالت على رأسها ونظرتها مشخّصة صوب خط الأفق الواطيء الذي رسمته أسطح الصفيح خلف الشاطئ العام المحلي. مرّت شواطيء الفنادق الواحد تلو الآخر، بكراسيها المبتلة التي تم صفّها في صفوف ومراتب ووجهها صوب البحر والشمس المختفية. اقتربت نانا أخيرا من الشاطئ المحلي وأبطأت في مشيها. كان أمامها ما يشبه محلا للقمامة وليس شاطئا للسباحة.

قامةٌ محدودبة كانت قد عاندتْ المطر وراحت تنبش في الزبالة بدقة وانتظام، تقلّب وتدور كل قطعة قمامة قبل أن يتخذ القرار إن كان سيتم إرجاعها إلى الرمل أم إلى كيس البلاستك.

الحاجز الأمني صار أوطأ وأوطأ وانتهى من حيث ابتدأ الشاطئ العام. في الجزء الأخير المنخفض من الحاجز كانت قد حُفِرت جحور في الحاجز الترابي. بعضها بعمق بضعة أمتار فقط. وأخرى كانت عميقة جدا حتى ضاعت في الظلمة. سمعت نانا أحدا ينادي باسمها. نظرت في بعض الجحور ولكن لم يكن هناك من إشارة لحياة. نفضتْ عنها الصوت مثل وهم. لم تعرف ما الذي ستفعله. لم تكن لديها الجرأة لتواصل داخل الشاطئ

(*) يبكي في قلبي كما تمطر على المدينة.

المحلـي وهي تخوض في الزبالة إلى الحجل. المطر الشـديد هدأ، ثم تبعته ريح رطبة. علّقت نانا حقيبتها على كتفها وقررت العودة إلى منطقة الفندق والتفكير في كيفية قضاء الوقت بقية اليوم.

فـي طريـق عودتها مـرّت ثانيـة بالجحور الغامضة مـن دون أن تواصل التفكير فيها. وضعت خطة لتناول العشاء مع بِن وبياتريس في المساء، ولم تر كومة خِرق متقوقعة في فتحة أحد الجحور قبل أن تشعر بشدّ طرف بنطلونها وتسمع صوت مارياما المؤنّب.

- انتظرتك طيلة ما بعد الظهر.

ناولتهـا نانـا يدها لتسـاعدها في الوقوف علـى قدميها. لقد بـدت هيأتها أكثر رثاثـة من اليوم الذي قبلـه. كانت مبتلة تماما وقـد لصـق ثوبهـا علـى جسـدها الـذي كان مجرد جلـد وعظم. صينيتها قد انقذفت صوب الشـاطئ مثـل قطعة قمامة. تناثرت بضاعتها القليلة حول المكان في الرمل خارج فتحة الجحر.

- ما الذي حدث؟ سألت وهي توشك على لفّ يدها حول كتف مارياما لكنها سحبت جسدها. ألأنها لم تعتد الملاطفات أم لأنها تعرضت إلى تقرب الكثير منها؟

- لقد أمسكوا بي.

- مـن الـذي أمسـك بـكِ ماريامـا؟ سـألت نانـا بحـذر. هزّت مارياما رأسها. فكرت نانا أنهم ربما الجنود الذين عاقبوها بسبب إصرارهـا علـى اقتحام منطقـة الفنـدق أو الأولاد الكبـار الذين أطلقت عليهم أختها الصغيرة المزعجين.

- هل لديك ما يؤكل؟ كان وجه مارياما المدور شاحبا ومتقلصا. لم يكن لدى نانا غير البرتقالتين ووافر من الدالاسي. تناولت

برتقالة من الحقيبة وسألت ماريام إن كانت تود أن تقشرها لها.
هزّت ماريام رأسها موافقة وجلست منهكة على الرمل. قشرت نانا البرتقالة بسرعة وفاعلية بسكين الفاكهة التي جلبتها معها. أخذت ماريام، من دون قول كلمة، قطعة البرتقال ومدّت يدها بأوتوماتيكية للتي بعدها. قضت على البرتقالتين. وعندما انتهت بقيت في مكانها تبحلق بضياع أمامها.

- بيزنس، سيدتي، ضاع شغلي، قالت.

- سأشتريه كله... التقطت نانا من حقيبتها بضع مئات من الورق من عملة الدالاسي. نظرت ماريام بضعف إلى الورق المتسخ برائحته المنفرة.

- ... تعويضا لمبيعك، واصلت نانا بتواضع.

- وماذا عن صينيتي؟ عارضتها ماريام بحزن.

- سأعطيك كل ما يمكن شراؤه بالنقود. أكدت لها ماريام.

- ليس الصينية، إنها تعود إلى خالتي، عائلتي. ستغضب عليّ كثيرا وستضربني بقوة.

- أنت تعملين لدى خالتك إذن؟

- هي تذهب إلى السوق لتشتري الفاكهة والمكسرات التي أبيعها على الشاطئ، همست ماريام ونظرت برعب لما حولها.

- لم أفهم تماما، هلا توضحين لي؟ شجعتها نانا. كان لديها القليل من الشك بشأن ماريام التي تجعل من الموقف دراميا عن عمد من أجل أن تدفع لها المال.

في الوقت ذاته احتقرت نفسها لسوء ظنها الوضيع تجاه طفلة فقيرة تقاوم من أجل أن تعيش وربما تعيل أسرتها فوق هذا

عن طريق خدمتها للغزو السياحي من عبدة الشمس.

- أنا أستيقظ قبل شروق الشمس لكنس بيت خالتي وتنظيفه وعليّ إيقاظ الصغار وإطعامهم إن كان لهم طعام. بعدها أذهب إلى المدرسة. وأبيع الفاكهة والمكسرات بعد الظهر على الشاطئ. وعندما أعود إلى البيت من الشاطئ أعدّ الطعام وأعتني بالصغار. أعمل كثيرا، ليس لي وقت كثير لأعمل واجباتي المدرسية. خفضت ماريياما بصرها منكسرة.

- هل تذهبين حقا إلى المدرسة ماريياما؟ عمركِ خمسة عشر عاما وسيصير ستة عشر عن قريب أليس كذلك؟ سألت نانا تستنطقها.

- أنا أذهب إلى المدرسة، في الصف العاشر. نظرت إلى نانا نظرة ثابتة.

- من الذي يدفع تكاليف مدرستك؟

- أنتِ، سيدتي، أتمنى، صدرتْ سريعة من فم ماريياما.

- إن قررتُ مساعدتكِ، وأنا أؤكد على «إن»، عليكِ أن تساعديني في الاتصال بمدرستك.

- لا، عليك أن تدفعي إلى خالتي، هي تعمل في بنك. لديها حساب بنكي. صوتها كان بنبرة حادة وعدائية.

اقترحت نانا على ماريياما أن ترافقها إلى حيث السلم عودة إلى فندق جولدن باي. هزّت ماريياما رأسها استسلاما وشرعت تجرّ قدميها وهي تتبع نانا التي انزعجت من سير ماريياما من خلفها فتوقفت تنتظرها. بدت ماريياما في غاية التعب والتعاسة. قالت لها نانا إن بالإمكان أن يفترقا الآن إن لم تكن لديها طاقة على

مرافقتها طوال الطريق وعرضت عليها أن يتواعدا من جديد للقاء في الغد. تحول لقاؤهما إلى علاقة عمل حساسة طالما صارت نانا بمنزلة مستثمر الآن. أصرّت مارياما على مرافقتها إلى السلم. كان الشاطئ مازال فارغا و«خطرا».

- في العام الماضي تم طعن زوجين هولنديين، ذكّرتها الحارسة الصغيرة بذلك.

ولكن الجنود بدأوا بتطهير الشاطئ، أكدت لها ناسية أنها هي ذاتها تعدّ أيضا هدفا من قبلهم.

- أين والداك؟ فتحت نانا موضوعا جديدا.

- يعيش والداي مع إخوتي الصغار في قرية بعيدة جدا. فقراء جدا، كل شيء صعب.

- لمَ لا تكونين مع عائلتك؟

- أمي، هي الزوجة الثانية، مريضة. لا يمكنها أن تعتني بي. لهذا فأنا أعيش عند خالتي. هذا جيد بالنسبة إلى تربيتي وسأتعلم بشكل أفضل بما يخص شغل البيت. الوالدان يكونان ناعمين مع أولادهما. يحبانهم كثيرا ولا ينتبهان جيدا إلى تصرفاتهم السيئة.

- ولكن ألا عليك أن تهتمي بمدرستك بدلا من عملك على الشاطئ؟ سألت نانا ناسية أنها في أفريقيا.

- البيزنس ضروري لعائلتي. نحن فقراء كما ترين.

- تقصدين عائلة خالتك؟ مادلين ليست أختك ولكن ابنة خالتك؟

- إنها العائلة. ونحن أختان، أصرّت مارياما.

- من الذي يدفع لمدرستك؟ شعرت نانا بأنها المول القادم، لها كامل الحق لتطالب بمعرفة ميزانية مشروع المدرسة.

- خالي، الرجل الكبير، قالت مارياما بتلقائية.

- خالك؟ واصلت نانا تحقيقها. أومأت مارياما برأسها.

- هل تدفعين نقود المدرسة مما تحصلين عليه من عملك على الشاطئ بعد الظهر؟ طرحت ذلك كتوضيح محتمل لـ «بيزنس».

- الرجل الكبير لم يعد قادرا على دفع تكاليف مدرستي، قالت مختصرة.

- هل تذهبين إلى المدرسة فقط قبل الظهر؟

- أنا أذهب إلى المدرسة، أكدت مارياما. لم يكن هذا جوابا ولكن نانا لا تود أن تضغط عليها. لم تكن كذلك واثقة فيما لو كان ذلك مجرد مقولة جاهزة تُسلمها ماريامـا إلى السيّاح ذوي القلوب الطيبة، كتصنيف انتمت إليه نانا الآن. كان لديها خيار بين أن تقلل من شأن الحقيقة وتدفع لها مبلغ تمويل مناسبا تريح به ضميرها. أو أن تنسى مشروع المساعدة هذا وتترك مارياما للسياح الذين يأتون بعدها وتعود إلى بلادها من دون أن تفكر فيما خلفها. كانت لديها فرصة جديدة كل أسبوع لتقتنصها وتختطف واحدا أو أكثر من المتبرعين.

- ستتوقف خالتي قريبا عن العمل في البنك، قالت ومن جديد كانت قد تخلفت في المشي. تكاد لا تستطيع جرّ قدميها.

- لماذا؟

- هكذا، قالت بغضب وضربت الرمل بحذائها المطاط بحجمه الكبير جدا.

- عليـك أن تفهمـي أن علـيّ أن أعرف وضعـك الاقتصادي إن موّلت دراسـتك، قالت نانا بصبر تربوي. شـعرت بأنها تشارك في شـبكة من الحقائـق والأكاذيب الخفيـة. بقيت ماريامـا صامتة. ربما لم تفهم منطقها أو أنها حرصت على ألا تنفضح، فكرت نانا مع نفسها. من أين لها هذا الشك المزروع؟ هل هو في الجينات أم في تربيتها؟

افترقتـا عند سـلّم الفنـدق واتفقتا على اللقاء فـي الغد بعد الظهر. وكما حصل في اليوم الماضي لم تشأ أو لم تستطع مارياما أن تعطي وقتا محددا للقاء. في المقابل اقترحت أن تسلكا الطريق ذاته كما فعلتا ليلتقيا عند طرف الشـاطئ عند سـلّم فندق نانا. قالـت نانا إنها سـتكون على الشـاطئ بعد الثانية ظهـرا وذكّرتها بـأن سـفرتها لم يبق منها سـوى ثلاثة أيـام وتنتظر مـن ماريـاما أن تعـدّ لزيـارة مدرسـتها من أجـل عقد اتفاق حـول دفع تكاليف دراستها مباشرة إلى إدارة المدرسة. ذلك كان الأكثر عقلانية وأمانا، أوضحت نانا لها مع شعور بأن كلماتها سقطت على حجر.

دسّـت بالإضافة إلى ذلك بعض النقود الورقية في يد ماريـاما كمقابـل لحرص ماريـاما على وصولها «سـالمة» إلى فندق جولدن باي.

في اليوم التالي كان الطقس جميلا واقتضى أن تعاش الحياة تماما. نزلت نانا مبكرة إلى الشاطئ مع منشفتها كسلاح واحتلت كرسـيا في الصـف الأول مقابل البحر. لم تسـتغل ما احتلته إلا بعـد الغداء وبذلك قصّرت من فتـرة الانتظار حتى تطل ماريـاما فـي فتـرة ما بعد الظهر كمـا هو مؤمل بعـد أن تنتهي من عملها

مع خالتها. جلست في مكانها في الساعة الثانية كما وعدت ولم تتحرك من مكانها. كانت متوترة مخافة أن تخطئ إحداهما الأخرى. صارت مارياما جزءا من فهمها لنفسها. فكرة غريبة وافتها وهي جالسة على كرسي الاستلقاء بروبها الصباحي المسدود بينما كانت ترشف الماء من القنينة التي جلبتها معها وتتصفح رواية اشترتها من المطار من دون أن تقرأ. أجل، فكرة أنها وجدت روحها في مارياما. «الرابط المفقود» ليس بمفهوم دارويني ولكن المربع المفقود الذي بحثت عنه في تطورها الفردي نحو «إنسانة كاملة» والذي كان تعويذة مدّربها في الشركة التي تعمل بها. فجأة وافاها شعور صاف بأن مارياما كانت كل ما لم تكن هي عليه، نصفها العذري الذي انفصلت عنه منذ بدء الخليقة.

كانت نانا شاردة بعيدا في تأملات فلسفية عندما فاجأها بِن وبياتريس اللذان جاءا يتمشيان يدا بيد على الشاطئ ودارا يقصدانها حيث كانت. كان من الواضح أنهما تفرّغا لما بعد الظهر. نهضت نانا وحيّتهما. تعاملهما الطيب الباعث على الثقة كان ذاته عندما كانا في المطعم للعشاء. اقترحا أن يلتقيا لاحقا في الفندق وأخبراها في الوقت نفسه أنهما سيسافران في الغد. لقد أنهيا مهمتهما وبالإمكان الآن ترك المسؤولية لنظيرهما المحلي في وزارة الزراعة.

كانا يودّان رؤية نانا لتوديعها قبل أن يفترقوا. شكرتهما لدعوتهما. أكمل الزوجان المشي على الشاطئ بالاتجاه المعاكس لخطة نزهتها مع مارياما.

ظلت نانا جالسة وحدها. هي تكره الانتظار. الدقائق زحفت

مثل حلزون. قارب العصر على الانتهاء وأغلب نزلاء الفندق تركوا الشاطئ. مرّ بها بعض الفرسان يمتطون أحصنة قصيرة من دون سروج بإيقاع متمهل. كانوا يسيرون على حافة الشاطئ حيث الرمل أكثر ثباتا متوجهين صوب غابة القرود وغروب الشمس. يئست نانا من رؤية مارياما وأقرّت أن مغامرتها الأفريقية قد انتهت. حرصت دوما على توقع الأسوأ لئلا تنتكس خيبة من توقعاتها. شعرت في الوقت عينه باللمسة الأنعم تحطّ على كتفها ونفخة في رقبتها كأنها آتية من روح.

كانت مارياما ترتدي ذات التنورة المنقوشة البالية كبقية الأيام ولكنها أتت من دون صينية البيع على رأسها. لقد وقفت وانتظرت بفارغ الصبر لكنها لم تتمكن من الانطلاق بالسرعة المطلوبة من المكان. كانت تخشى أن يمسك الجنود بها ويضعوها في السجن، همست لنانا التي تجنبت الانفعال مع بوحها الدراماتيكي. جمعت بسرعة أشياءها وتركت لمارياما أن تحمل سلة النزهة التي حجزتها من المطعم كي لا يتكرر ما حدث قبلا.

سارتا معا يدا بيد تجاه الحرش بشجيراته المشوكة مقابل النتوءات الصخرية الواطئة. كانت الأمواج تضرب الشاطئ خفيفا وقد تبعهما صراخ طيور البحر مثل كواليس صوتية تزين المشهد وحدها. كلما ابتعدتا عن الفندق ازدادت مارياما ارتخاء.

- خالتي تدعوك إلى البيت غدا، قالت بحماسة.

- ولكن المدرسة مارياما، يجب أن أتحدث مع أحد من مدرستك قبل أن أسافر.

- ليس المدرسة، خالتي... كررت مارياما منزعجة.

- شكرا للطفها، عليك أن تسلّمي عليها وتشكريها عني.
- خالتي ستشرح لك عن المدرسة.
- ولكن متى أزور مدرستك إذن؟
- في اليوم التالي، قالت مراوغة.
- أكيد ماريياما؟
- أكيد، وعصرت يد نانا بشكل طبيعي.
- أريد أن تفهمي أني أود مساعدتكِ ولكن بشكل منظّم، تابعت نانا بوثوق.

لم تنم الليل كله وقد قررت أخيرا أن تدفع تكاليف دراسة ماريياما لمدة سنة إن توفقت بعقد اتفاق مع مدرستها. تمنت من كل قلبها أن تكون ماريياما قد صدقت بكلامها حول المدرسة. ألا تكون قد خدعتْها وجعلت منها سائحة غبية ساذجة.

- أنتِ راعيتي سيدتي؟ قالت بفرح غامر.
- نعم، أود أن أكون راعيتكِ، شرط أن تكوني في المدرسة.
- لا عليك إلا أن تسألي خالتي عن المدرسة. هي تهتم بما يتعلق بمسألة تكاليف المدرسة، أكدّت ماريياما. لم تفهم أو لا تريد أن تفهم شروط نانا للتكفّل بمصاريف دراستها. عليها أن تثق برغبة خالتها للتعاون معها.
- ما اسم خالتك؟
- روزي.
- اسم جميل، كم عمرها؟
- كبيرة.
- ولكن ما عمرها؟

- لا أدري... كبيرة، قالت متضايقة.

جلستا على منشفة نانا في طرف الشاطئ توليان ظهريهما للشجيرات المشوكة. فتحت مارياما سلة النزهة ووزعت الوجبة في صحنين وضعا على مفرش مربع من الخام. اثنان من ساندويتش خيار، واثنان من السالمون وآخران من الجبن، وكأس بعنق طويل ونصف قنينة نبيذ أبيض لنانا وكولا لمارياما. تركت كعكة الخوخ وكيس حلوى في السلة.

شربتا نخبا وشرعتا بأكل الغداء المتأخر. تلفتت مارياما حولها كأنها بانتظار أحد أو مخافة لمجيء أحد.

- هل تبحثين عن ابنة خالتك؟ سألت نانا وهي تقضم ساندويتش السالمون اللذيذ.

- نحن نلتقي بعد العمل هنا.

- لم تعيشين عند خالتك؟

- إنها بحاجة إلى المساعدة في البيت وبإمكاني الذهاب إلى المدرسة. في القرية هناك مدرسة ابتدائية فقط. بدت مارياما فجأة بالغة متزنة.

- ولديك الوقت لعمل الواجبات المدرسية؟

- بالتأكيد سيدتي، مبكرا جدا في الصباح.

- ألا تشتاقين إلى والديك؟ استفسرت نانا. قفزت مارياما ورمت بالساندويتش بحركة عنيفة بعيدا في الماء.

- لا أريد أن أجيب عن كل أسئلتك الغبية. وقفت أمام نانا ويداها إلى الجانبين وصاحت كأنها الغضب عينه.

- أنتم السياح تسألون كل الوقت عن كل شيء.

- آسفة مارياما اعذريني.

- ليس عندك شيء تقولينه غير الأسئلة، أسئلة، أسئلة، كرّرت وهي على حافة الهيستيريا.

- ولكن ما الذي تريدينه؟ قولي، قالت نانا مفزوعة.

- ليس لديك حق أن تعرفي أي شيء عني.

- تعالي واجلسي هنا مارياما. لا أريد غير أن أكون راعيتكِ، هذا كل ما في الأمر.

- أنا أجالسكِ وأنتِ تدفعين لي في المقابل، ولكن لن تحصلي على أي شيء عدا ذلك، صرخت فاقدة السيطرة على نفسها.

- لا مزيد من الأسئلة، ولا مزيد من الأجوبة. أنهت بقولها.

- اهدئي مارياما دعينا ننظر إلى الأمر بشكل عملي. كيف سأصل إلى خالتكِ في الغد؟ الوقت والمكان؟ سأستقل التاكسي من الفندق.

- أراكِ في محطة الباص عند سوق سيرا كوندا. هدأت مارياما.

- أين تسكن خالتكِ؟

- خالتي هي الزوجة الأولى، لديها بيتها الخاص. ستشعرين كما لو كنت في بيتك عندها. أوضحت مارياما.

- متى نلتقي؟

- حوالي الخامسة بعد الظهر. سنواصل بالتاكسي إلى خالتي، سأدلّ السائق على الطريق، تابعت.

- هلا أعطيتيني عنوان روزي؟ قالت نانا. نظرت إليها مارياما نظرة يائسة.

- دعينا نعد. أنا مشغولة، قالتها بنبرة عمل. جمعت الأغراض

بسرعة وفاعلية ووضعت الملاعق والشوكات والصحون في السلة.

- ولكن ألا ننتظر ابنة خالتك، قاطعتها نانا وظلت جالسة مكانها. لم تكن لديها رغبة في ترك الهدوء الرائع والمنظر اللانهائي للمحيط الأطلنطي.

- لن تأتي مادلين اليوم، قالت مارياما باختصار وحملت السلة.

- مادلين؟

- نعم، مادلين، اسم فرنسي. جدتنا مسيحية، أخبرتها بنفاد صبر وأسرعت بالانطلاق من دون أن تتمهل لتنتظر نانا. لم تكن هناك يد بيد هذه المرة. كأنها كبرت بضع سنوات وغادرت طفولتها خلال الساعة.

- مادلين هي ابنة خالتك، ابنة خالة روزي، صح؟ سألت نانا وشعرت كأنها أمية.

- أكيد. قالت مارياما بوسع صدر.

- مادلين لديها مشاكل. تابعت

- أية مشاكل.

- خالي. إنها بنت جميلة، هو يريدها أن تعمل لديه.

- أن تعمل بيزنس على الشاطئ؟

- العمل في المدينة، البنات الجميلات لديهن مشاكل أكثر بكثير من القبيحات. قالت بنضج وخبرة حياة.

- اضطررت إلى البحث عنها، إنها بحاجة إلى مساعدة، واصلت مارياما وزادت من سرعتها. بدأت نانا تشعر بالندم لأنها تركت لنفسها أن تنسحب إلى الأسفل بهذه السورة التي كانت

تدور أعمق وأعمق نازلة بها إلى ظلمة بلا قاع.

كان عليها أن تسرع في المشي لتلحق بماریاما التي قاربت على الطيران فوق الرمل الثابت لحافة الشاطئ.

- ما الذي حدث لمادلين؟ سألت نانا لاهثة.

- لا تسألي، أمرتها ماریاما بصوت حازم، سأعثر عليها.

- بإمكاني مساعدتكِ.

- لا مساعدة. خالي سيقتلكِ. صوت ماریاما حاد الجرس تجمع في نبرة حاسمة.

- ماذا عن خالتكِ؟

- لا يجب أن تذكري شيئا لها. أعطيها فقط نقود الستة أشهر القادمة للمدرسة، قالت ماریاما وانطلقت في الرمل بخطوات حاسمة.

افترقتا مسرعتين عند جيش كراسي الاستلقاء المتقدمة للفندق. أعطت نانا ضمة نقود أكثر وأكبر لماریاما من اليوم الماضي. تقبلت المبلغ بملامح محترف وطلبت من نانا الحضور عند محل توقف الباصات في الخامسة بعد الظهر وراحت تركض بأقصى سرعتها صوب الشاطئ المحلي.

جلست نانا في البار تنظر سارحة في لائحة المشروبات. كانت ترتدي زي حفل مبهرجا اشترته من محل راق لبيع الملابس المستعملة في لندن. تنورة من التافتا بلون أخضر مائي، فوقه تول أسود بالترتر مع كارديكان أسود ضيق بأكمام قصيرة. لم يدعها كل من بن وبياتريس أن تنتظر طويلا. حيّوا بعضهم البعض بحفاوة وانتقلوا إلى إحدى الطاولات المدورة وغطسوا في

الأرائك ذات اللون الأحمر الغامق.

كانـوا الضيـوف الوحيديـن. ترجى بِن النـادل أن يخفّض من صـوت الموسـيقى الآفـرو التي صمّـت الآذان ووضع كـرّاس يحمل لوغو بتصميم أرابيسك لحرفي الباء متعاكسين الواحد في ظهر الثاني.

- هذه شـركتنا الاستشـارية. نـاول بن الكراس لنانـا. ارتاحت لتعرّفهـا إليهمـا. كانـت لديها رغبة فـي التواصـل معهما وتأمل بتمتين صداقتهم.

- شـركة صغيرة بطمـوح كبير، تابع بِن. نظـرت بياتريس إليه بحب. كان كلاهما يرتدي زيا خاكيا. تصفحت نانا الكرّاس.

- نحـن بحاجـة إلـى استشـاري اقتصـادي، قالـت بياتريـس بحيادية.

- أليس ذلك في مجالكِ؟ رفع بِن كأسه.

- أنا لست مثالية. قالت نانا بصوت خفيض.

- سميها إذن هواية، قال بسرعة بديهية.

- نحن لسـنا مثاليين، نحن واقعيـون، ونود أن نواصل تعاوننا مع المنظمات الإنسانية الكبرى عبر المساعدات الخارجية للتنمية إن اسـتطعنا أن نثبـت لهـم أن مشـاريعنا معقولـة ومربحة على المدى البعيد.

- ولكن لِمَ أنا؟ سألت نانا.

- هناك شـيء ما يقول لي إنكِ المناسـبة لذلك، إننا من عائلة واحدة إن جاز القول، هل أنا محقة عزيزتي؟ تكاد نظرة بياتريس إلى نانا تكون أمومية. قدّرت نانا أن بياتريس تكبرها بعشر سنوات

كأقصى حد ولكن الأمومة أو أن تكون أمومية أمر لا يحدّده العمر، بإمكان الأطفال أن يكونوا أيضا أموميين.

- إنها مشاعر نادرة، حدّثت نانا نفسها.

- مثل نبتة حساسة يجب أن نعتني بها ونرعاها، أضافت بياتريس.

- جدية أنثوية أكثر من اللازم، همهم بِن.

- نحن لسنا متزوجين، نحن شركاء عمل. نظرت إليه بوله.

- إنه زواج أيضا بشكل ما، أكّد بن، حياتنا مرهونة بالعمل أولا وأخيرا.

- ما هو تصوركما للتفاعل بين شركتكما الاستشارية ومنظمات المساعدات خلال الخمس سنوات المقبلة؟ نانا المحترفة سرعان ما شرعت بالعمل.

- إذن أنت تفكرين في تقديم خدمة لنا كأصدقاء؟ أشرق وجه بِن.

- هل هناك من شيء عليّ الإلمام به عدا ذلك؟ قالت بفاعلية.

- تجدين كل الأوراق مع متعلقاتها جميعا في الكرّاس.

- نتطلع إلى زيارتك لنا في لندن. جففت بياتريس العرق على جبهتها. بدت شاحبة بشكل غير طبيعي. نظر بِن إليها نظرة جانبية بقلق.

- بياتريس ليست قوية البنية كما تبدو. قال.

- أعتقد أنكما ستستمتعان معا في الحديث من دوني. نهض بِن من مكانه.

- لا، ابقَ، لا أستطيع البقاء وحدي، قالت بياتريس. ما جعل نانا تجفل. هل تشعر بياتريس بالوحدة بصحبتها؟ هل هي

لا شـيء؟ أخذت نانا تتصفح الأوراق. شـعرت بأنها فارغة، ويدوار في رأسها.

- خـذي وقتـك الكافي قبل أن تقـرري، قال بِـنْ لنانا. نهضت بياتريـس ووقفت إلى جانبه. كم كانا ملائمين لبعضهما. كم كانا زوجـين جميلين، متزوجـان أم لا، فكرت نانا وقالت إنها سـتدرس الوثائق وستعلمهما عندما تحسم أمرها.

- إنك صديقة حقيقية، قالا معا.

- فـي العـام المقبل، لندن، قالت بياتريس برسـمية كأنها كلمة الدخول.

- العام المقبل، لندن، أتت نانا على تكرار ذلك بتلقائية.

تأثرت جدا عندما غادرا. خيبة تملكتها ولم تستطع السيطرة عليها. ظلت جالسـة وطلبت مشروبا مجددا لتصحو. لحظت أن كلا من بياتريس وبِن لم يمسّا كأسيهما على الطاولة.

كانـت نكسـة أخرى أكدت شـعورها بأن الله والنـاس قد تخلوا عنها.

لـم تكـن تـدرك أنها قـد علّقت الكثـير مـن الآمـال عليهـما. ما حقيقة تلك الآمال؟ هي لا تعرف. لم يعطها بِن وبياتريس أي وعد بما يخص الصداقة. لكنهما أظهرا لها الثقة بالعرض الذي يدعـو للإطراء في أن تكون الاستشـارية الاقتصادية لهما، المهمة التـي كانت من ضمن اختصاصها والتـي كانت تود التفكير بشـأن قبولها. العام المقبل، لندن، تمتمت في سـرّها وطلبت كأسا أخرى لتكنس اليوتوبيا الجديدة التي فكرت بها.

فـي الصبـاح التالـي علّقت لوحة «بـدون إزعـاج» على مقبض

الباب وبقيت في غرفتها حتى يحين موعد ذهابها بالتاكسي إلى سيرا كوندا. هي في حاجة إلى بعض من الهدوء والسلام لكي تتهيأ نفسيا للقاء مع روزي. روزي اسم جميل يعبق بالورد والشعر. زحف وقت ما قبل الظهر ببطء. استنفدت كل ما كان لديها من موالح وماء وطلبت بتجهيز جديد. استلقت على السرير تقلّب صفحات الرواية المملة التي جلبتها معها، المادة الوحيدة للقراءة عدا مجلة «الوول بيبر» و«فوك» واللتين علكتهما منذ مدة. تتمنى نانا أن تقرّبها الخالة من حقيقة الأمر بشأن مدرسة ماريانا. قضت ما بعد الظهر في اختيار الملابس المناسبة. هي لا تود أن تُظهر غِناها ولكن من الناحية الأخرى لا تريد أن تبدو متواضعة ما يضعف سلطتها.

تركت نانا غرفتها وذهبت تجاه الممر الذي يؤدي مباشرة إلى مدخل منطقة الفندق. كانت قد طلبت قدوم تاكسي في الساعة الرابعة. لم يكن الطريق بعيدا إلى سارا كوندا ولكن الوصول مبكرا أفضل من الوصول متأخرا. لقد دفعت مبلغا كبيرا للسائق لتتمكن من انتظار ظهور ماريانا ليتوجهوا بعد ذلك إلى الخالة روزي. انتظرها التاكسي تماما وفق الاتفاق خارجا عند المدخل.

جلست نانا في المقعد الخلفي وأخبرته عن وجهتها. قبل أن يشغّل السائق محرّك السيارة طلب منها بإنجليزية وقحة أن تفصح عن اسمها ليتأكد من كونها الشخص ذاته الذي طلب منه الفندق التوجه به إلى سارا كوندا.

- ماريانا جاكر، قالت بذات الصلافة. تحرّكت السيارة بدفعة قوية رمتها إلى الأمام. تفصّد العرق على صدغيها. كانت

أعصابها مشدودة لقيامها برحلة وحدها ومن دون شبكة أمن. الحالة أفرزت حالة ثرثرة لم تكن من طبعها. لم يكن يعجبها التحاور مع الخدميين. كانت تخشى أن تبدو متعالية وزائفة. ولذا تفضل أن تكافيء بالدفع نقدا لقاء الخدمة الجيدة.

جلست نانا متوترة على الطرف من المقعد خلف السائق. لم تستطع أن تسيطر على نفسها. تدفقت الأسئلة من فمها. هل هناك ديمقراطية في البلد أو نوع من ديكتاتور ديمقراطي؟ هل كان الإعلام حرا ومستقلا؟ وماذا عن الفساد؟

- رئيسنا يعمل بجهد كبير، قاطع السائق وأفهمها أن هذا ليس موضوعا للنقاش. انتقلت بسرعة إلى المنتجين المحليين للدجاج. ألم يكونوا مهددين من قبل تصدير الوحدة الأوروبية للدجاج المجمّد الرخيص؟ خطر كل من بِن وبياتريس بشوق ببالها. ومن دون أن تنتظر جوابا واصلت حديثها بشأن النظام المدرسي والذي صار بعد علاقتها مع ماريا ما أمرا شخصيا. هل هناك تعليم إجباري؟ هل هناك تعليم عال؟ هل للأولاد الأولوية؟ ما حجم الأمية في البلد؟ ظلت الأسئلة بلا جواب. كان السائق إما يهزّ رأسه وإما يغمغم بشيء ما يغرق في صخب خشخشة شريط الكاسيت. لاحظت نانا أنهما يعبران مواقع للبناء تلي بعضها بهياكل أسمنتية. ألا يمكن أن يوفر ذلك فرص عمل للشباب الذين يتدفقون إلى أوروبا؟ تساءلت نانا.

- عمال أجانب، قال السائق باختصار وركّز على سياقته.

كانت مواقع البناء من كلا الجانبين قد حلّت محلها مجرد أرض بلون بني أحمر امتلأت بشدّات جافة لأعشاب نامية وأشجار

عاريـة مشـرئبة تجـاه السـماء. كانت الحقـول أراضي بـور. يا له مـن تبذيـر وضياع، واصلت مـن دون انتباه ومـن دون أدنى معرفة بالمناخ ونوعية التربة. كانت قد توقفت عن سؤال السائق وواصلت بربرتها مع نفسها، تستنتج وحدها وتلعن هذه التعاسة التي من صنع الإنسان نفسه.

كانا يمرّان في الطريق بدوريات للتفتيش بين مسـافة وأخرى، بحراسـة واحد أو أكثر ممن يرتدون الزي العسكري. كانوا يقفون على حافة الطريق أو يجلسـون في أكواخ خشـبية مؤقتة يلوحون للتاكسـي أن يواصل السـير من دون اهتمام. ما أثار استغراب نانا هو تلك المنطقة السـياحية التي اسـتوجبت كل تلك التجهيزات الأمنيـة وسـألت السـائق إن كان قـد تم إيقافه يومـا. أغلق فمها بجوابه المعتاد، «نو برويليم، نو برويليم».

أفكارها وتيار حديثها ذابا معا إلى مصدّ واقٍ لها ضد اضطراب الهلع لديها الذي زحف كما يبدو تجاه السائق الصامت. تخيلته يسـتدير مـن دون حركـة متوقعـة ويسـير بها عبر طريـق جانبي ضيـق مملـوء بالحفر إلى كوخ مشـؤوم ويسـلّمها إلى مختطفين طالبوا بمبلغ ضخم من شـركتها «روار إنترناشيونال». وبعيدا في الأفق تبدى الخوف مما ينتظرها في محل توقف الباصات وعند الخالة روزي بالأخص والتي تنوي عقد اتفاقية معقولة معها.

اقتربـا من منطقة أكثر كثافة بالبنايات. بيوت مأهولة رمادية مسـيجة بألـواح مموجة من الصفيـح. أكوام مـن القمامة طوال الطريق. جامع أبيض، أبراج مربعة تنتهي بقبة خضراء بزخارف مذّهبـة. أماكن للبيع ببضاعة منتشـرة تحـت مظـلات باهـتة.

تم دفن أنصاف عجلات السيارات في الرمل على جانبي الطريق. أنقـاض عربـة مقطورة أكلها الصدأ شـبه كولاج شـاهدته مؤخرا فـي زيوريخ. أوجه أسـمنتية متقشـرة بإعلانات ذات ألوان مشـعة تم صبغهـا على الجدران الخام مباشـرة. أجهـزة تلفزيون قديمة متروكـة وكمبيوتـرات مصفوفـة بعضهـا فـوق بعض فـي مخازن طويلة ضيقة. جلس بعض الرجال يأكلون في ظل شاحنة. طفلة صغيرة لم تكن أطول من عتبة الشاحنة الرافعة للبضاعة، والتي راحـت تتنقل بـين الرجال لتجمـع أكياس البلاسـتك. امرأة تمر بخطوات هادئة متزنة حاملة طاسـة كبيرة من البلاسـتيك على رأسـها وطفل مشـدود إلى ظهرها. على الأقل أنها عاشـت أجواء ما، ذلك ما حاولت نانا أن تهدئ نفسـها به على الرغم من أنها لم تكن راغبة في مشـاهدة شـيء فـي هذه الرحلـة المقلقة والتي تمنت أن تنتهي بأسرع وقت منها.

المـرور توقـف مـن دون أن تشـعر وحشـد من الأطفـال حاصر التاكسـي. اقتحمـت أيـاد مدهنـة النافـذة الجانبيـة المفتوحـة وطالتهـا، «توبـاب، توبـاب» صـاح الأطفـال بصوت حـاد. لم يكد التاكسـي يتحـرك مـن جديد حتـى حطت العجلـة الأمامية في حفرة بحجم حفرة لغم. قفز السـائق وجاء بمن يسـاعده ليرفع السـيارة مـن الحفـرة. وفي لحظـة جهزت للانطلاق مـن جديد. صافح السائق من ساعده وربتوا هم في المقابل على كتفه. سألته نانـا إن كان معروفـا فـي المنطقة للسـهولة التي حصـل بها على مساعدة.

- عائلتـي تسـكن هنا، أهلا بك في بيتـي، قالها بفخر. رجعت

نانا إلى الخلف في المقعد واتكأت وهي تأخذ نفسا عميقا. خلافا لما توقعته فقد قابلت إنسانا طيبا. لقد قللت من شأنه بتقديرها ولكنها ولحسن الحظ يمكن أن تصلح ذلك بالبقشيش.

- هل مازال الطريق طويلا لنصل محطة الباصات؟ سألت بتوفيقية.

- لا أدري، حسب الظروف، قال وحكّ براحةِ صفحة ظهره العريض.

استدارا ببطء صوب ما يشبه مركز المدينة. مرّت كثير من السيارات. شاحنات أمريكية أوروبية قديمة محالة على التقاعد. صفوف من التاكسيات الصفراء. محلات للأقمشة، موبايلات، سكاكر، صابون، ماكينات خياطة، أدوات، بهارات إلى جانب بعضها البعض على جانبي الشوارع. باعة يحملون بضاعتهم في صرر على ظهورهم وقفوا في الغبار الأحمر الذي يعلو الطريق بين السيارت. كان عند مدخل السوق حيث بوابة الاستقبال الخضراء جمع من الناس مع أكشاكهم المتلاصقة تحميها المظلات الملونة. اقشعرت نانا لفكرة أن تتحرك وحدها وسط هذا الحشد من الناس، مأخوذة من قبل هذه المتاهة العظيمة من الأحياء.

أوقف السائق التاكسي واستدار نحوها.

- محطة الباصات، أخبرها. المنظر الذي استقبلها غلّفه البنزين وغازات العوادم التي سرعان ما تخللت التاكسي فلم تستطع أن تتنفس. كانت هناك صفوف من الباصات بكل الأحجام والماركات. مملوءة أو نصف مملوءة بالركاب الذين ربطوا أمتعتهم على سقفها. نساء ورجال وقفوا منتظرين محاطين بحقائب،

أكياس بلاستيك وصناديق من الكارتون تحت دخان العوادم خلف الباصات. القمامة والقناني الفارغة هنا وهناك في كل مكان. طلب السائق أجرته. أوضحت نانا أنهم سيكملون الطريق. هي بانتظار ضيف، بنت مراهقة ستوضح له أين سيذهبون. فكر قليلا قبل أن يطلب منها عربونا للمشوار من الفندق. نانا ناولته المبلغ وضاعفت البقشيش.

أشعل السائق سيجارة بهدوء وغيّر شريط الكاسيت. كان الجو حارا لا يحتمل الوقوف في الشمس، وفجأة أزعجتها ثرثرته عبر الموبايل. ولكنها لم تجرؤ أن تغادر التاكسي. كان الوضع على أية حال أكثر أمانا من الخارج. كانت تخشى أيضا ألا تعثر عليها مارياما في زحمة الباصات والتاكسيات. انشغلت تماما بمراقبة مارياما في هذه الفوضى الحارقة التي أحاطتهم إلى درجة أنها لم تلحظ أن السائق قد غادر السيارة قبل أن يسقط نظرها على مقعده الفارغ. اسودت الدنيا في عينيها. وفي اللحظة الثانية تملكها الغضب تماما. يا لها من وقاحة أن يتخلى عنها وسط هذه الجلبة والغوغاء. اتكأت وأغمضت عينيها. خرجت من العالم وامتنعت عن الوجود في هذا التاكسي في محطة الباصات في هذه القارة.

نقر حذر على المرآة الجانبية جعل نانا تستفيق وتنتبه دفعة واحدة بقشعريرة باردة برغم الحرارة الاستوائية الرطبة الثقيلة. كان وجه مارياما قد ظهر ضمن إطار النافذة. في هذه اللحظة شعرت نانا بأنهما ينتميان لبعضهما. فتحت الباب وأشارت لمارياما لتدخل في المقعد الخلفي إلى جانبها. أمسكت مارياما

بيدها وعصرتها كأنها لا تود إفلاتها أبدا ثانية.

- خالتي تنتظرنا، قالت.

- ولكن أين السائق؟ سألت نانا. رفعت مارياما كتفيها جهلا بالأمر.

- لا يمكن أن نترك خالتك تنتظر هكذا، قالت نانا مرعوبة.

- لا مشكلة، قالت مارياما بهدوء. انزرع هدوؤها في نانا وانتشر في كل أنحاء جسدها.

- كيف عثرت عليّ؟ سألت هي.

- أنت بيضاء.. توباب، وكبتت ضحكتها. فكرت نانا كيف بدت في تنورتها البليسية وقميصها السماوي البسيط من القطن المصري.

مارياما كانت ترتدي تنورة أجمل، لم تكن بالية وكانت نظيفة. لابد أنهما سيكونان في رفقة أناس راقين، فكرت نانا ناسية للحظة أنها تسكن عند الخالة روزي. كان شعر مارياما مضموما في خصلات في كل اتجاه. لم تكن تسريحة لبنت في عمر الخامسة عشرة. لابد أن تكون نوعية الشعر السيئة بلونه الرصاصي الشاحب تعود إلى فقر التغذية ونقص في الفيتامينات. عليها أن تتحدث مع روزي حول ذلك. بدت مارياما أكثر جرأة ووعيا عنها في الشاطئ.

- هل ذهبتِ إلى المدرسة اليوم؟ سألت نانا. هزّت مارياما رأسها بغموض.

- متأكدة؟ أصرّت.

- يعني ما مقدار اليقين الذي تريدينه؟ أجابت بغضب.

- آسفة، اعتذرت نانا إقرارا بموقفها. إن غادرت ماريام التاكسي واختفت بين الجمع سيكون في ذلك ضياعها.

- ما هو عمل خالتك في البنك؟ واصلت نانا.

- لِمَ تأتين بكل هذه الأسئلة؟ أنا لا أعرف من أنتِ. لا شيء عنكِ أبدا. انسحبت ماريام بعيدا وأخذت تنظر في النافذة.

- ربما كان لديك مسدس في حقيبتكِ، تمتمت، ربما تكونين إنسانة خطرة.

- ماريام، ما هذا الذي تقولينه؟ قاطعتها نانا. استدارت ماريام ونظرت مباشرة إليها.

- كيف يمكنني التأكد سيدتي؟ صوتها كان له ثانية هذه النبرة الناعمة الحادة التي أيقظت فيها الكثير من المشاعر في نانا. فتحت الحقيبة ودعت ماريام إلى النظر بداخلها.

- انظري بعينك ولكن لا تلمسي شيئا، أضافت بعصبية. ألقت ماريام نظرة سريعة وعادت لتستدير وتنظر عبر النافذة.

فتح السائق في اللحظة نفسها الباب وانزلق خلف المقود. تقدمت ماريام في مقعدها وأوضحت له طويلا وبالتفصيل الطريق حيث سيتوجهون. كان على نانا أن تسيطر على نفسها كي تحجم عن السؤال عن المسافة التي سيستغرقها الطريق إلى الخالة روزي وكم تبقى منها. لقد ألجم نقد ماريام فمها وأفقدها شهيتها للسؤال. تحدثت ماريام بحيوية مع السائق كأنه من المعارف السابقين. لم تفهم نانا لغتهما الأصلية، وشعرت باللاأمان فجأة حيال الموقف. هل هي لعبة متفق عليها؟ أين هم ذاهبون؟

- لا تقلقي، نحن على وشك الوصول، بيت خالتي يقع في طرف المدينة تقريبا، قالت مارياما بتفهم مؤثر للموقف الذي وُضعَتْ فيه وتابعت حديثها مع السائق. كانا كلاهما يتحدث بسرعة وبصوت عال حديثا مُبَهَّرا تتخلله الضحكات. ركّزت نانا على ما حولها خارج أمان التاكسي والفضاء المحمي.

خرجوا أخيرا من زحام المرور في المدينة. شعرت بأنهم يسيرون في ذات الطريق الذي جاءا منه، محاذاة المجمعات المحمية حيث قمم الأشجار بلونها الأخضر الشاحب قد برزت من فوق السياج الأسمنتي أو من الصفيح المموج. ولكنها لم تكن على يقين فالمنطقة السكنية يشبه بعضها البعض.

كانت الرحلة في التاكسي أطول مما تصورتها. سرعان ما نصل التي قالتها مارياما لم تكن دقيقة. تباعدت المسافات بين المباني. فجأة ضغط السائق على الفرامل بقوة وقفزت هي من مكانها على المقعد. لذعرها اكتشفت أن نقطة تفتيش قد أوقفتهم. دسّ رجل عسكري رأسه عبر النافذة الجانبية إلى الداخل وطلب أوراق السائق. أخذ السائق من الوقت الكثير ليجد الأوراق ويناولها عبر النافذة بيدين راجفتين. تفحص الرجل الشاب الأوراق ثم توجه إلى زميله في الكابينة. شعرت نانا بالذنب في الحال، وراجعت كل الجرائم التي يمكن أن تكون قد اقترفتها خلال إقامتها في البلد. الوقت داخل التاكسي كان متوقفا. زمت مارياما فمها ولم يسهل التواصل معها. تعرق السائق وجفف رقبته وأعلى جبهته بقطعة قماش ملونة. وبدا كأن الأمر لن ينتهي قبل أن يعود الرجل مع عسكري آخر أكبر سنا وقد جاءا بالأوراق. نظر إلى نانا نظرة

متفحصة. دمدم السائق بشيء ما، «سائحة»، «جولدن باي».

سمح لهم بالمرور. أكد السائق أنها المرة الأولى التي يتم إيقافه فيهـا. فضّلـت نانـا أن تنسـى الموقف غيـر المريح ولم تكـن لديها أسـئلة. عـادت ماريـاما لمواصلة حديثها الذي انقطع مع السـائق كأن شـيئا لـم يحـدث. وصلوا إلى منطقـة أدغال صفراء يابسـة بأشجار منخفضة وجد الماعز الهزيل تحتها ظلا له.

بـدت من بعيد بيـوت متفرقة بألوان ترابيـة وأكواخ فقيرة من الصفيح.

توقف التاكسـي أمام بيت واطيء يتكـون من أربعة جدران من الطين وسـقوف مسـتوية من الصفيح المموج. كانت نانا مرتخية بشـكل يثير الاسـتغراب كأنه لا شـيء يمكن أن يحدث بعد موقف نقطة السيطرة. ترجلوا جميعا ومشوا عبر ممر ضيق من الحصى إلـى الأرض التـي كانـت محاطـة بسـياج مضفـور. سـيدة البيت ظهـرت عند فتحة الباب. كانت بقامة ضخمة مرتدية تي شـيرت أبيض وتنورة لفّ مشـجّرة. نظرت إلى ماريـاما باسـتنكار كأنها لا تحب مجيء الضيوف. تصورت نانا أنها سـتزور مجمعا في سـيرا كونـدا وليـس كوخا من الطين بعيدا في الأدغال، ولكنها لم تشـأ أن تزعج ماريـاما بأسـئلتها الاسـتجوابية. بـدت ماريـاما متخوفة كأنها جمدت بحضور خالتها. قالت روزي شيئا ما للسائق وحيّت بعد ذلك نانا بانحناءة ملوكية كأنها رأتها للتو.

جلس السـائق على كرسـي من البلاستك عند المدخل. وتبعت كل مـن نانا وماريـاما روزي إلى الداخل ودخلوا مباشـرة في غرفة المعيشـة المطلية بلون أخضر. كانت هناك طاولة طعام وكرسـيان

ثقيلان وأريكة. عاليا تحت السقف كان هناك رف بتحفيات مختلفة وصور غير مؤطرة لأطفال كبار وصغار. فتحتان أخريان بستارة من القماش قادتا إلى غرفتين أخريين. إحداهما غرفة نوم روزي. والأخرى للأطفال. ملأ الفراش كل الغرفة تقريبا. ينام أطفال روزي جميعا على هذا الفراش، أوضحت ماريااما. أين تنام ماريااما، كان بود نانا أن تعرف. أشارت ماريااما إلى الفراغ الضيق المتروك بين الفراش والجدار وواصلت مسرعة تقود نانا إلى الفناء خلف البيت حيث حفرة في الأرض خلف حصيرة مضفورة من القش صنع منها تواليت ومكانا للنار مع قدر كبير مسخم، وكان بمنزلة مطبخ خارجي. تجنبت نانا التصوير. لم تكن عموما مهتمة بالكاميرا كما اعتادت عندما تسافر جنوبا.

ببساطة فقد فقدت الشهية لذلك. تجمع سرب من الأطفال حول نانا وحملقوا باستغراب منتظرين من حولها. لم يكن معها شيء لتعطيه إياهم فشعرت بالحرج. أبعدتهم ماريااما بإشارة من يدها. كان من الواضح أنهم يحترمونها.

أوضحت ماريااما بحماس أنهم انتقلوا من سيرا كوندا بسبب التلوث الذي كان على وشك أن يقضي على حياتهم. على الأخص الصغار، تنهدت وحملت بذراعها طفلة بأنف يسيل. لقد حصلت روزي مع بقية الساكنين على قطعة أرض من الرئيس، وكان عليهم أن يبنوها بأنفسهم مع مساعدة الأصدقاء. ولكن الكثير مازال ينقص البيت. أشارت ماريااما عاليا إلى سقف البيت من الصفيح الذي غطى جزءا من البيت فقط. لم يعن نانا أمر الانتقال إلا فيما يتعلق بمدرسة ماريااما. هناك باص، تاكسي،

أوضحت مارياما بصبر. هي تعود إلى البيت في السادسة مساء بعد الانتهاء من عملها على الشاطئ. متى يكون لديها الوقت إذن لواجباتها المدرسية؟ كانت نانا تود أن تعرف. مبكرا في الصباح قبل أن يستيقظ الأطفال، أجابت مارياما.

- أين مادلين؟ سألت نانا.

- في المدرسة، قالت مارياما مختصرة وبدت متضايقة. أثار ذلك شفقة نانا فتجنبت الضغط عليها أكثر.

- كم طفل لدى الخالة رزوي؟ سألت نانا في طريقهما إلى غرفة المعيشة. عدّت مارياما بأصابعها ولكنها لم تفلح. لم تستطع روزي إعالتهم جميعا. كان بعضهم في رعاية العائلة أو بعض الأصدقاء. كما كانت مارياما برعاية روزي، أخت الأم الكبرى.

- لدى الخالة روزي الكثير من الأطفال، لديّ العديد من الإخوان والأخوات.

- أبناء وبنات خال، صححت لها نانا، أين زوجها؟

- يعيش مع زوجته الثالثة. لم تتقبلها روزي أبدا، أكدت مارياما بفزع ممزوج باعتزاز.

لم تستطع نانا أن تفهم حقيقة العلاقة بينهم. لم تعرف غير ما قالته لها مارياما. أن روزي بحاجة إليها في شغل البيت وأنها ستتمكن في المقابل من الذهاب إلى المدرسة في سيرا كوندا.

جلست الخالة روزي على الأريكة وقد غيّرت ملابسها. وتزينت بحلي ثقيلة والموبايل في حضنها. كان ثوبها بلون أخضر لامعا خيط بقَصّة بسيطة ضيقة. على رأسها كانت ربطة ملفوفة بشكل

فنـي من ذات القماش. أطرَتْ نانا البيت الجديد وحيّتها برأسـها مؤكـدة ذلك. نبرة روزي إجمالا كانت من قبيل البيزنس. باشـرت بالدخول في الموضوع.

- أنـت تودين أن تكوني راعية لماريامـا صحيح؟ شـرعت بشـكل رسمي.

- أجـل، إن أكَّـدتِ لـي ذهابها إلى المدرسـة. أجابتهـا نانا بذات النبرة. نظرت روزي إليها رافعة حاجبها، ثم إلى ماريامـا.

- ما المشـكلة؟ سألت بنبـرة حادة. أخفت ماريامـا نفسها وهزّت رأسها نافية بشعور بالذنب كأنها لم تفعل ما يجب عليها فعله.

- لا مشكلة، لا مشكلة، تمتمت ونظرت إلى الأرض.

- ما هذا الـ «نو بروبليم»؟ المشـكلة مشـكلة. هل تسـمعين، هل تسمعينني؟ صرخت روزي بماريامـا.

- ليس خطئي، دافعت ماريامـا عن نفسها. استدارت روزي إلى نانا.

- لـمَ أتيـتِ إلى هنا، إن لم ترغبي في مسـاعدة صغيرتي؟ كان صـوت روزي قـد وصل أعلى حد. أخذت نانا نفسـا عميقا قبل أن تجيب. كانت روزي مفاوِضة صعبة المراس.

- أنـوي بصـدق دفـع تكاليف مدرسـة ماريامـا ولكـن يجب أن أتأكد أين سـتحطّ النقود. أقترح أن أدفع لإدارة المدرسـة مباشـرة. لم يزعج نانا أن تتفاوض مع روزي.

«هـراء» هو مـا بدا على محيـا روزي، بمنزلة تحـد فهمته نانا جيدا.

- أعـدي لنا الشـاي ماريامـا، أمرتها بغِلظـة فنهضت مطيعة.

كانت رقتها تؤثر في نانا.

كان السائق مازال جالسا خارج البيت ينفث دخان السيجارة بعد الأخرى. الشمس علقت منخفضة في الأفق وألقت بظلالها الطويلة ما بين البيوت الطينية الصغيرة التي بنيت حديثا. سرعان ما ستحل الظلمة وهي بعيدة جدا عن فندقها. طلبت روزي من نانا الجلوس عند الطاولة. صار الجو فجأة متوترا.

- إذن أنت لا تثقين بنا، قالت بنبرة ازدراء خفية، كيف تفكرين هكذا؟

- أنت تسيئين فهمي. إن المشكلة عملية مائة بالمائة. كيف سأقوم بتحويل المبلغ ولمن. أنا مستعدة للدفع لمدة سنة مقدما. وهاهي نانا تستسلم بشأن شكها في دوام ماريانا مسبقا. كانت راغبة في إرسال المبلغ لإدارة المدرسة تحت اسم ماريانا لتتخلص من اتهام روزي لها.

- لدي حساب بنكي، قالت بكل معنى الكلمة ونهضت من الأريكة لترى لم تأخرت ماريانا بجلب الشاي. لم يكن هناك من أبواب في البيت، فقط فتحات أبواب. زوج من دجاجات بيض مغبرات ظلّت بفضول في الغرفة.

- آسفة ولكني أفضل الدفع مباشرة إلى المدرسة. تناولت نانا قدحا ساخنا جدا من الشاي. جلست روزي بثقل على الكرسي عند الطاولة أمامها. صرّ الكرسي منذرا.

- بيتك مريح، حاولت نانا مجددا ملاطفتها.

- لقد عملت بجد من أجله، قالت روزي باعتراف.

- هل تعيش ماريانا عندك؟

- بالتأكيد، قالت بشعور بالمهانة، أنا بحاجة لها في شغل البيت.

- هذا ما قالته لي، لقد نسيت، قالت نانا معتذرة.

- وأنت التي تعتنين بها؟ واصلت.

- اعلمي أني الوحيدة في العائلة التي لديها حساب بنكي.

رمقت روزي نانا بنظرة متعبة يائسة.

- ومدرسة مارياما في سيرا كوندا؟

- أكيد. نظرت روزي لها بحزم.

- ما اسم المدرسة؟ اقتربت نانا من المنطقة الملغومة. لهثت روزي. كان صدرها العامر يتأرجح صاعدا نازلا. بحلقت في وجه نانا بوسع عينيها.

- أنتِ بالفعل لا تثقين بنا، قالت متوعدة، وواصلت نانا في حقل الألغام.

- أريد زيارة مدرسة مارياما قبل سفري. قد ملّت من الكوميديا هذه. كل ما كان يهمها هو أن تعطي مارياما دفعة إلى الأمام. كان الأسهل هو أن تأخذها معها إلى الدنمارك وتعتني بها بنفسها وتمول دراستها ولكن هذا الاحتمال لا مكان له في الواقع الفعلي.

نهضت روزي ووقفت وسط الغرفة ويداها إلى الجانبين. كانت نانا تخشى أن ينكسر كعب حذائها العالي. أو أن تنقلب بكل وزنها وتستقر على الأرضية المنبعجة التي صبّت من الطين. ولكن لم يكن هناك من إشارة إلى ضعف ما.

- أطلب منك مغادرة بيتي من فضلكِ، لقد أسأتِ استخدام ضيافتي لك. أشارت روزي برأسها صوب فتحة الباب المنخفضة

حيث قطعة الأرض الصغيرة الجافة أمام البيت. لحظت نانا أن الشمس بدت منذرة بالمغيب على حافة الأفق. ليس إلا لحظات وتعم الظلمة. في اللحظة نفسها دخلت ماريااما ومعها المصباح ونظرت إليهما. نهضت نانا عن الطاولة ووقفت وحقيبتها على كتفها مستعدة للمغادرة. كأن رأسها على مسافة بضعة سنتيمترات من السقف. وذلك كان أيضا مثيرا للإحراج. كان بإمكانها شراء الكوخ بأكمله عدة مرات بسعر طقم الإيف سان لوران الذي كلّفها.

- لا تذهبي سيدتي، ماذا عن مدرستي؟ اندفعت ماريااما صارخة بالقول وكادت تسقط المصباح من يدها. جلست نانا كأنها قد تلقت أوامر بذلك.

كان للطفلة سيطرة غامضة عليها على الرغم من احتمال التواطؤ مع الخالة روزي بكل سهولة لأجل تفريغها من نقودها. لم يكسر الظلمة المعتمة في الخارج سوى بصيص ضوء يرفرف من البيوت القريبة. تناولت روزي المصباح وعلقته في الخطّاف في سلسلة متدلية من السقف.

- هل أنتِ حقا بلا قلب؟ هل أنتِ فعلا غير معنية بالناس الآخرين؟ هل تدرين أن الطفلة هنا ليس لديها خيار غير أن تذهب إلى المدرسة أو تتزوج من أحد الشيوخ المسنين لتصير زوجته الثالثة؟ وكل ما تفكرين فيه هو أين سترسلين نقودك و«هل بإمكاني زيارة المدرسة» وكذا كذا كذا. لا تصدقين أن لدينا مدارس هنا في البلد. ولكني فخورة ببلدي. رئيسنا يعمل بجهد كبير من أجل شعبه. تحدثت روزي بغلو وبمستوى بلاغي مثل

مغنية أوبرا وسط ديكور عظيم. شعرت نانا بأنها مثار ضحك، وبأنها في المكان الخطأ، بالغباء وبملابسها غير اللائقة مع قامتها بطول ١٧٩سم.

- مَن تظنين نفسك؟ تأتين هنا في جولة سياحية مريحة في الأدغال، قالت روزي بسخرية، تشربين شايي وتختفين من جديد في حياتك المرفهة. لم لا تلتقطين صورا؟ ألا توجد مادة هنا؟ أليس في بيتي ما يكفيكِ من الجمال؟ أليس في بيتي ما يكفي من التعاسة؟ شبكت روزي ذراعيها. كان مظهرها يقتضي الاعتراف. ولكن لم يكن لدى نانا ما تقوله للدفاع. مقدرة روزي في الكلام وروح القتال جعلتها خرساء إعجابا بها. كانت تود أن تدفع لتحتفظ بمارياما. السؤال هو ما المبلغ الذي يجب أن تدفعه؟

- كم؟ قولي فقط كم تريدين، قالت نانا وهي تلعب لعبة خطرة. كانت مقامرة، شعرت بأنها على أرض ملعبها في الظلمة باردة الأعصاب للكازينو التي هي ذاتها في كل أنحاء العالم، يتردد عليها الشخوص الأشباح أنفسهم ببدلاتهم الأرماني وساعات الرولكس المقلدة اللماعة.

- لا سيدتي، لا تسير الأمور هكذا هنا، نحن أناس صادقون، ولنا كرامتنا. هزت روزي رأسها وبدت حزينة. جلست مارياما ساكنة في مكانها على الأريكة مثل فأر.

- أنت لا تثقين بنا لكني أثق بكِ. سأعطيك رقم حسابي البنكي، اسم البنك وكل ما تحتاجينه. أخرجت ورقة متغضنة من بين ثنيات ثوبها وناولتها لنانا. كان مكتوبا بالفعل رقم حساب

واسم بنك.

- مـا المبلغ الذي يغطي تكاليف سـنة دراسـية كاملة؟ تمتمت نانا في محاصرة لروزي.

- ما يناسـبكِ سـيدتي، لدينا أكثر من ممول، لسـت الوحيدة. بـدت روزي متعبة وغير مقتنعة. فكـرت نانا بأنها لم تجلب معها هدية لروزي. لِم لم تفكر حقا في هذا؟ لم تكن تنسـى في بلدها أن تجلب معها هدية للمضيف يوما.

بحثت نانا في حقيبتها فوجدت علبة للحبوب مع حبتي ماس صغيرتـين رصعّت غطـاء العلبة. أفرغت الحبوب في قاع الحقيبة وناولت العلبة لمارياما التي دستها بسرعة في حاشية البلوزة.

- شكرا للشاي، قالت نانا متوجهة إلى روزي.

- لِمَ أعطيتِ مارياما هذه العلبة؟ سـألت روزي بحدة ورفضت أن تصافح يد نانا الممدودة.

- مجرد هدية صغيرة لتتذكرني.

- لِم عليها أن تتذكركِ؟ قالت روزي باحتدام.

- سميه عقد صداقة بيننا. شعرت نانا بانهيار يقترب.

- إذن أنتما صديقتان، صحيح؟ صاحت روزي بمارياما.

- أجيبيني ماريـاما.

- دعكِ من لومها طوال الوقت، قالت نانا ونظرت إلى ماريـاما التي جلست جامدة بشكل غريب.

- يجـب أن تخجلـي مـن نفسـكِ. وقفت روزي إلـى جانب نانا لتشعر بحرارة جسدها. فقدت نانا السيطرة على نفسها.

- لا تقولي لي إن عليّ أن أخجل من نفسي فأنا لم أفعل شيئا

خاطئا. لم تستطع أن تمسك بدموعها. الزيارة الفاشلة والنقص الذي هي عليه قد أطاحا بها. شعرت بيد حذرة على ذراعها.

- لا بأس سيدتي. بدا صوت مارياما مثل موسيقى من عالم أعلى.

- سآتي معك في التاكسي.

- ولكن الوقت متأخر. أشارت نانا إلى الظلمة في الخارج.

- سأذهب إلى خالي في سيرا كوندا. هو يسكن قرب المدرسة وسيكون طريقي قصيرا غدا مبكرا، أصرّت مارياما. نظرت نانا إلى روزي لتفهم ردها غير المتوقع ولكن وجهها لم يفصح عما يجري خلف القناع. لم تتخيل نانا أن مارياما سترافقها إلى سيرا كوندا ضد رغبة روزي ولم تأت بمزيد من الاعتراضات. لقد عاشت ما يكفي خلال الساعات القليلة التي كانت فيها خارج نظام وهدوء الفندق وهي بحاجة إلى أن تستريح تحت التبريد داخل إطار ما هو معروف ومتوقع بالنسبة إليها.

كانت روزي توبخ مارياما بهمس عند التاكسي خارج البيت. تقبلت مارياما ذلك برأس مطأطيء وخضوع مهين ما قطع نياط قلب نانا. استدارت روزي من دون أن تتنازل وتوليها نظرة. أخيرا تمكنتا من الجلوس معا على المقعد الخلفي. كان التاكسي يسير عبر الظلمة ولا شيء غير ضوء المصابيح الأمامية. كانت زيارة نانا كما بدا قد تلخصت في الحصول على رقم حساب روزي. زيارة مدرسة مارياما والتحقق من كونها طالبة لم يكن قابلا للنقاش. هل كان هذا العالم الغريب الذي وجدت فيه نانا حقا بسيطا؟ وضعت مارياما علبة الحبوب في يدها بخفية.

- فقط نقود، لا شيء آخر أرجوكِ، قالت بخوف، أنا لست لصة.
- آسفة، قالت نانا، لا أريد أن أزيد من مشاكلكِ.
- أنت إنسانة طيبة، همست مارياما. كانت كأنها قد حصلت على وسام استحقاق. اعتدلت نانا في جلستها وقالت أنا سعيدة بلقائها وتأمل في أن يبقيا على تواصل في المستقبل.
- ربما أزوركِ في بلدك كما زرتِ أنت بلدي؟ نظرت بأمل إلى نانا.
- هناك قانون لدينا يجعل استقبال أحد من أفريقيا مستحيلا تقريبا.
- مؤسف حقا، الضيوف هم ملح يومنا، مسكينة، قالت مارياما. لم تملك نانا إلا أن تعجب بقدرتها على قلب الأشياء تماما.
- ربما يمكنني أن أعمل مساعِدة للعائلة في بلدكِ؟ اقترحت.
- هل تودين حقا الذهاب إلى أوروبا؟
- كثيرا. لقد أتقنت على يد الخالة روزي أعمال المنزل، وأنا جيدة في الاعتناء بالأطفال، ولكنها لا تعطيني نقودا لغداء المدرسة لذا فأنا جائعة دوما.
- ولكن عليكِ في كل الأحوال أن تنهي مدرستَكِ قبل ذهابك إلى أوروبا، ألن تكملي دراستكِ؟ قالت نانا وتجنبت سماع تعليقها الأخير.
- نسيت، قالت مارياما مفزوعة. فتحت نانا الورقة التي استلمتها من روزي برقم حسابها في البنك ونظرت إليها.
- هل تعتقدين أن بإمكاني استخدام هذه؟ هل ينفع ذلك؟
- «نو بروبليم».

- ما عدد الذين حصلوا على رقم الحساب هذا؟

- العديد، العديد، لكننا لا نسمع منهم أبدا بعد أن يغادروا.

قالت ببراءة ساذجة.

- من الذي يدفع تكاليف المدرسة إذن؟

- أنت، أنت تدفعين، قالت بحماسة.

- ماريياما كفي عن ذلك. لن نتحدث عن مدرستك. لا أعتقد أنك تذهبين إلى المدرسة. فتحت ماريياما فمها لتعترض. ولكن نانا أوقفتها بحركة يدها المحتجة.

- لو تخبرينني ما عمرك لأتمكن من الحصول لك على عمل au pair(*) في مكان ما في أوروبا.

- خمس عشرة، تقريبا ست عشرة، أكدت لها.

- أعطني عنوانك وسأعطيك بطاقتي التعريفية. التقطت نانا بطاقة من مغلف فضي وناولتها إياها. قلبت ماريياما البطاقة وأدارتها وتفحصتها جيدا.

- لديّ عنوان صندوق بريد ولكني أفضل أن يكون لدي موبايل، قالت بسيطرة كأنها قد حققت للتو نصرا. بحثت نانا في حقيبتها ووجدت منديل تقديم متغضن. كتبت ماريياما بسرعة ومن دون وضوح. كان على نانا أن تصحح لها الحروف لتتمكن من قراءة خربشتها.

- عندما تتمين السابعة عشرة يمكنك أن تعملي مساعدة عائلة في الدنمارك.

(*) مساعدة عائلة عموما تكون بنتا شابة، تسكن عند عائلة في بلد أجنبي لكي تتعرف على ثقافة البلد وتتعلم اللغة، وفي المقابل تعين العائلة في يومها، وتعتبر كأحد أفرادها ولا تعامل كخادمة.

- ولكني لم أكمل السابعة عشرة، أصرّت مارياما. سالت دموعها على خدها.

- لا، لا تبكي، أرجوكِ. خشيت نانا فجأة من تورطها.

- لأني حزينة لسفرك قريبا، قالت مارياما بصدق. خطر بذهن نانا التفكير مجددا فيما لو كانت متخلّفة. أم أن البساطة كانت جزءا من اللعبة.

اقتربوا من سيرا كوندا. وأخيرا كان هناك شيء من تحضّر ما. سألت نانا مارياما عن المكان الذي ستوصلها إليه. هزت رأسها

- حيث يعجبكِ.

- ماذا تقصدين؟

- ذلك يعتمد على المكان الذي سأكون فيه.

- ومن سيقرر ذلك؟

- خالي، الرجل الكبير، همست. نظرت نانا إلى بدلتها الباهتة اللون التي جعلتها تبدو كبيرة السن وخشيت أن يحدث لها الأسوأ.

- وما العنوان الذي كتبته لي إذن؟ قالت نانا محتارة وهي تلوح بالورقة.

- هذا صندوق بريد خالي. ألا ترين C/O لويس سار، هذا يعني «care of»، قالت منزعجة. تنبهت نانا إلى الحول الذي كان في عينها اليمنى التي نظرت خارجا عبر نافذة السيارة، بينما اليسرى نظرت مباشرة إليها. شبكت نانا ذراعها حول كتفيها.

- هل أوصلكِ إلى المجمع حيث خالكِ؟ اقترحت وعصرت كتفيها بيديها. شعرت بجسم مارياما نحيلا جدا وهشّا.

- لا، عليّ أن أنجز أمورا مختلفة قبل الذهاب إلى خالي.

- ولكن الدنيا مظلمة وخطرة خارجا.

- بالنسبة إليك، ربما ليس لي. أنا أعيش هنا كما تعرفين. قالت ماريا ما.

تجاوزوا محطة الباصات حيث توقفت بعض الباصات ليلا. سأل السائق إن كانتا تنويان النزول هنا أم تعودان إلى الفندق.

- لن أعود إلى الفندق. تحررت ماريا ما من نانا.

- اطمئني فأنا لا أستطيع أخذك معي إلى الفندق نهائيا. ترجّت نانا السائق أن يتوقف.

- سأسافر بعد الغد. هل نلتقي على الشاطئ ثانية؟

- بطاقتك تعطيني أملا. أمسكت ماريا ما ببطاقة نانا أمام وجهها. وجدت نانا لفة نقود في حقيبتها فناولتها لماريا ما.

- أفتقدك، قالت بصوت سريع غير شخصي.

- عديني أن تذهبي مباشرة إلى بيت خالك.

- كما قلت لك لدي بيزنس.

- ولكن يمكنك أن تعملي لديّ. الـ «بيزنس» الذي ستنجزه في هذا الوقت قد أفزع نانا.

- عندي التزامات، قالت كشخص ناضج ولديه خبرة.

- التزامات حيال من؟ سحبتها نانا بقوة إلى داخل السيارة.

- دعيني، قالت بغضب وتملصت منها.

- ليس لديك الحق في... هذا. ترجلت ماريا ما وصفقت الباب بقوة. رأتها نانا تركض بين الباصات المتوقفة.

استدار السائق نحو نانا.

- فندق جولدن باي؟ قال. هزت نانا رأسها إيجابا وشعرت بنفسها مثل خرقة تنظيف معصورة.

قضت اليوم جالسة على كرسي الاستلقاء على الشاطئ العاصف شاخصة ببصرها بحثا عن مارياما. لم تدخل لتناول الغداء. كل ضيف مر بها على الشاطئ كان هزيمة بالنسبة إليها. كل بائع عصير أو هدايا تذكار كان خيبة لها. كان هناك صخبُ حياة حتى حلّ الظلام، ودعت طبول أوركسترا الفندق إلى حفل عند المسبح، ولكن لم يكن هناك من ظل لمارياما. على الرغم من تحفظها كانت نانا تتوقع أن تظهر مارياما، إن لم يكن لسبب فلأنها تعرف أن نانا ستدسّ مبلغا كبيرا من النقود في جيبها. ألم تكن نقودها كافية؟ فكرت بحزن وشعرت بأنها لم تعد مرحّبا بها. هي تدعس الآن على ذات المشاعر التي حركتها مارياما فيها. لم تكن تتصور أن يرافق غضب عنيف شعورها القوي الذي تحسه تجاه الطفلة. لقد حصرتها مارياما في زاوية، وأن تغادر البلد من دون توديع. بمعنى الكلمة. إحداهما للأخرى كان أمرا لا يحتمل.

عند المساء جلست نانا عند طاولة لشخصين في أقصى زاوية في المطعم تتناول وجبة بثلاثة صحون ولكن من دون شهية تذكر. افتقدت رفقة بِن وبياتريس وامتلأت باشتياق سوداوي تجاه كل الناس الذين اختفوا من حياتها بحضور مارياما. البعض منهم قد مات والآخر قد سافر، علاقات وصداقات قد تسربت في الرمل. زملاء مقربون انتقلوا واستقروا في فروع أخرى للشركة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. سرعان ما أفرغت نانا قنينة شراب. الموبايل الذي يجب إخفاؤه في صندوق الأمانات

في الغرفة وفق أوامر مدرّبها في الشـركة كان أمامها على المفرش الأبيـض. شـعرت بالندم لأنها لم تطلب مـن ماريـاما رقم موبايل روزي ولكن هذا قد وفّر عليها سوء فهم جديدا قد تتعرض له.

اكتفت بأن ترسل رسالة قصيرة تحية إلى بِن وبياتريس كتأكيد على الصداقة التي أثرت فيها عميقا جدا.

بعد الفطور في اليوم التالي طلبت نانا تاكسي في الاستقبال. لقـد قـررت أن تعثر على ماريـاما في يومها الأخير. لن تسـتطيع السـفر مـن دون أن تعلـم ما الـذي حلّ بهـا بعـد افتراقهما عند محطة الباصات. الاحتمال الوحيد الذي كان لديها هو أن تسأل عـن الخال فـي مكتب البريـد في سـيرا كوندا عن طريـق عنوان صندوق البريد الذي يحوّل إلى ماريـاما.

للمفاجأة فقد كان ذات السائق الذي أوصلها إلى الخالة روزي. لابد أن يكون أخا، ابن عم، أو من أقرباء عامل الاسـتقبال الذكي، فكرت في ذلك وسألته عن اسمه مادام صار من المعارف القدماء.

- مـودو، أوضح السـائق ودعاها للتفضل فـي المقعد الأمامي. شـكرته نانـا لعرضه واعتـذرت لحبها للمقعد الخلفـي، ذلك من دون أن تذكر بالطبع خشيتها القرب من الناس الغرباء وروائحهم. توجها صوب سيرا كوندا. قد أمنت الآن للطريق، مطاعم الكباب، المحـلات، والصيدليـة ببضاعتهـا المتنوعـة التي تقع عنـد نهاية الطريـق الرئيسـي، ذلـك أمدّهـا بإحسـاس بالأمان. نقـدت نانا السـائق مقدما لتأجير التاكسـي طوال اليوم. سيبحثان معا عن ماريـامـا، البنـت المراهقـة من البارحـة، أوضحت له. كان السـائق حياديـا في تعامله مـع برنامج اليوم وانطلق بهـا من دون تعليق

إلى مكتب البريد. ترجته نانا ليرافقها إلى الداخل ويترجم لها إن لم يستطع أحد فهم إنجليزيتها.

كان الجو خانقا داخل المبنى الكولونيالي الضخم الذي كان يشبه قلعة أكثر من كونه مكتبا للبريد. كانت هناك ثلاث مراوح في السقف حلّت بديلا لجهاز تبريد. كان الطابور طويلا عند قمارة تسليم واستلام الرسائل. وقفت نانا في الخلف مع مودو.

كانت نانا تتوقع أن تكون خطتها المتسرعة هي ضياع لوقتها الثمين. لم تكن تملك الحق في التعرف على هوية الشخص المختفي خلف عنوان صندوق بريد لويس سار. لم يتحرك الطابور عموما. ظلت نانا واقفة في مكانها فلم تعرف ما الذي يمكن فعله عدا ذلك. بدأت في التفكير فيما لو كان من الأفضل أن تعود إلى الفندق مثل الأيام الماضية وتنتظر على الشاطئ وتأمل ظهور مارياما بصينية الفاكهة على رأسها. لم تكن تحتمل نانا أمر السفر من دون رؤيتها. حالما ستعود إلى بيتها وتدخل سباق الحياة المحموم هناك ستتبخر مارياما من عجلته. لم تكن تتصور أن عنوان صندوق بريد لدولة أفريقية كان شيئا ذا قيمة وهي لم تملك أعصابا للانتظار لأسابيع لوصول رسائل مرسلة والمزيد من الانتظار للرسائل التي تحمل جوابا لتعود، هذا إن وصلت أصلا.

- لا فائدة. استدارت نانا تجاه مودو.

- الطابور يتحرك، قال السائق رافعا كتفيه. بدا متعبا كأنه قد كان يحتفل الليل كله.

- لم يبد أن خالتها أحبتني. قالت نانا وهي شاردة بعيدا مع أفكارها.

- ولم لا تحبك؟ كان مودو في عمل ولم يكن مهتما. ومع ذلك فقد ترك تعليقه انطباعا لديها.

- ربما لديك حق، قالت متفكرة. انفتحت قمارة أخرى وتحرك الطابور سريعا.

كان هنــاك رجل طويل محترم بقفطان أبيض وطاقية مطرّزة يقــف مــع حقيبة ســوداء بحزام علــى الكتف. انحنــى إلى الأمام صوب القمارة.

- لويس سار، صندوق ٩٩٩، قال. نهضــت المرأه في القمارة. لم تصدق نانا حظها. هل يمكن حقا أن يكون هو الذي أمامها؟ لمست ذراعه فاستدار نحوها متفاجئا.

- عفوا، لويس سار؟ أمسكت أنفاسها.

- ما الذي تريدينه؟ قال بتحفظ.

- أبحث عن مارياما. لم تستطع نانا أن تسيطر على انفعالها.

- مارياما! تبحثين عن مارياما؟

- لقــد أعطتنــي هــذا العنــوان «C/O(*)» لويــس ســار. أرته نانا الورقة المتغضنة مع خطها القاصر.

- نحن نتشارك في الصندوق ليس إلا.

- إذن هــو أنــت لويس ســار، ســعيدة بلقائــك. مــدّت نانا يدها لمصافحته.

- أود وداع مارياما. سأسافر في الغد، أكملت بتلكؤ وقد شعرت بالعرق يتصبب أسفل ظهرها تحت قميصها الخفيف من الكتان. عقــد الرجــل حاجبيــه ونظر بعيدا. شــعرت نانا بالنــدم لقيامها

(*) Care of: بواسطة.

بتلك الرحلة الغبية وإقحامها لنفسها في مكان لم تكن لها علاقة به.

- هل هي في المدرسة الآن؟ تابعت بعد سكوت محرج. تغيّرت ملامح الرجل فجأة كأنه قد فهم شيئا. وبدلا من الإجابة اقترح عليها أن يزوروا المجمع. نظرت نانا بارتباك صوب مودو الذي قدّم نفسه ومدّ يده ليصافحه. تبادلا نقاشا طويلا. شعرت نانا بأنها قد أُهملت وبدأ صبرها ينفد. صار الهدف من رحلة اليوم بدلا من العثور على مارياما هو الدخول في متاهة الثرثرة حول كيفية الوصول إلى المجمع.

بعد رحلة طويلة طوال طرق وعرة بشكل أو بآخر عبر مناطق سكنية متشابهة امتدت على مدى البصر توقف التاكسي أمام مدخل المجمع خلف جدار أسمنتي عال. ترجل لويس سار وفتح الباب لنانا بأدب وأناقة. بدا أصغر سنا من انطباعها الأول عنه. كان مفهوما بالنسبة إلى مودو أن يبقى في السيارة وينتظر. تبعت نانا لويس سار في دخوله الفناء المظلل. كان هناك أطفال صغار يركضون بصخب عراة تقريبا. في الزاوية كانت هناك طاولات مضعضعة وكراسي وكومة ملابس كأن أحدا سينتقل إلى أو من المكان.

كان هناك رجل مسن يجلس على طاولة ويعدّ الشاي. صبّ الشاي في شعاع طويل في كأس مذهبة الفم من إبريق نحاسي مصبه كان بشكل منقار.

- أين مارياما؟ في المدرسة؟ لم تعد نانا تحتمل السكوت.

- كيف عثرت على بطاقتك التعريفية؟ سأل لويس سار

بسيطرة تامة وتوجه مباشرة إلى الرجل المسنّ.

- لقد التقينا على الشاطئ، أود مساعدتها.

- في ماذا؟

- في إتمامها لدراستها.

- إنها امرأة شابة الآن، قاطعها بنفاد صبر.

- ولكـن هذه هي أمنيتها الكبرى. لم أكن أرغب في التدخل لو لم تسألني.

- ليس هي من يقرر ذلك.

- الخالة روزي متفقة بشأن ذلك، عارضته نانا.

- أنا لا أناقش شأنا عائليا مع غريب.

- ولكن الدراسة ضرورية، همهمت نانا.

- ماريامـا تعمـل بجـد وتتلقى تعليمـا جيدا في إدارة شـؤون البيـت. سـتكون زوجـة رائعة. ابتسـم وهو غارق فـي التفكير. بدأ قلب نانا بالخفقان. هل لويس سـار هو الرجل الذي اختار ثالثة لـه، ماريامـا كزوجة ثالثة؟ أو لم يكن تهديد الخالة روزي بالزواج كمـا قدرته عاما وتجريديا، بـل كان محددا جدا وفعليا. تمنت لو تعتذر لها عن أول الأمس، وخشـيت أن يكون مشـروع المدرسـة قد ألغي بسبب تصرفها الغبي. أخذت نفسا عميقا وقالت:

- هـل تسـدي إليّ خدمـة أيها العم لويس؟ أريد زيارة مدرسـة مارياما.

- هل تسـألينني عن ذلك؟ أطلق لويس سـار ضحكة عالية ما جعل نانا تضحك على نفسها.

- لا أعرف شيئا عن مدرسة مارياما، قالها بفظاظة.

- إذن هي لا تذهب إلى المدرسة إطلاقا؟ قالت نانا بخيبة.
- لا علاقة لي بهذا. حرّك لويس يديه.
- ولكنكَ تدفع نفقات المدرسة؟
- لا، لا أفعل.
- أخبرتني أن خالها يدفع تكاليف المدرسة.
- الشباب لديهم أكثر من خال.
- ألا تخبرني أين أجد هذا الخال؟
- يبدو أنك لستِ ممن يستسلمون بسهولة. نظر لويس إلى أعلى قمة الشجرة الضخمة فوقهم وطلب منها الجلوس على كرسي بجانب العجوز الذي ناولها كأسا من الشاي بملامح جدية. الشاي القوي الدافيء قد أيقظها.
- أود ان أعرف إن كانت مارياما مازالت في المدرسة أم لا، تابعت بعناد.
- إنها تذهب إلى المدرسة ولكن ليس حاليا، أجاب لويس اضطرارا.
- أنا أنوي بجد أن أدفع تكاليف دراستها وكل ما يتعلق بذلك فوق هذا، طعام المدرسة، الزي الرسمي، الكتب. تمسّكت نانا بشكل كبير بقوتها الاقتصادية.
- لا تتدخلي في عائلتي.
- أنا قلقة بشأن مارياما، أصرّت نانا.
- مارياما تعود إلى العائلة...
- هل لي أن أسألك سؤالا؟ قاطعته نانا.
- أكيد، «نو بروبليم»، قال لويس وهو يتفحصها محاولا سبر غورها.

- هل تنوي الزواج من مارياما؟

- أنا؟ انفجر لويس في الضحك ثانية.

- أنا لن أتزوج مارياما، سأتزوجكِ، قالها وفي لحظة صار جديا تماما.

- تعجبينني. أنتِ لا تخافينني، واصَل.

- أنا أخاف من كل شيء، قالت نانا مرتعدة.

- أنتِ لا تخافين الموت ولكن الحياة، واصل القول بتنبؤ وهو يتفحصها بدقة. كان العجوز مركّزا على مسبحته وبدا بعيدا جدا عن العالم من حوله. أفرغت نانا كأس الشاي وشكرته. عليها أن تغادر والسؤال إلى أين. تقرّب الأطفال بحذر منها.

- توباب (*)، حلوى، حلوى، همسوا وهم ينظرون بخوف إلى لويس سار الذي أمرهم بالابتعاد. اختفوا في اللحظة وبحذر تماما كما جاءوا.

نظرت نانا إليهم وساءها أنها لم تملك ما تعطيه لهم. في النهاية القصية من الفناء جلست امرأة على درجة السلم ترضع طفلا. الملابس كانت منشورة على حبل غسيل مشدود بين عمودين خشبيين مضعضعين. عند البئر كانت هناك دلاء صفر من البلاستك بحبل مشدود بالمقبض. فجأة مرّت بنانا صورة رؤية سابقة عاشتها كأنها كانت في هذه البقعة بالضبط. لحسن الحظ أنها لم تؤمن بـ «ما قبل» و«ما بعد».

- هل أنت بخير؟ سأل لويس سار باهتمام.

- أريد أن أزور مدرسة مارياما وأعقد اتفاقا بشأن تكاليف

(*) تطلق عموما على الأوروبي الأبيض الميسور الحال.

مدرستها، قالت بذهول. وضع لويس سار يده بحذر على كتف العجوز. انتفض جسده كأنه قد استيقظ من حلم.

- أيها الرجل الكبير، دعاه لويس سار ونظر بخشوع إلى القامة الضئيلة المتيبسة.

الرجل الكبير، عصف في رأس نانا، كان هو تحديدا من رغبت في مقابلته. علمت أن زوج روزي يسكن مع زوجته الشابة في القرية بعيدا بمحاذاة النهر. لا بد أن يكون الرجل الكبير خالا آخر. يئست من إيجاد توضيح لهذه العلاقات العائلية المعقدة.

- إذن هو أنتَ من يعتني بمارياما؟ انحنت نانا نحو الرجل الكبير. جلس لويس سار مقرفصا إلى جانبه.

- هي تأتيني عندما تكون لديها مصاعب. أمنحها مكانا تبيت فيه. قال متضايقا.

- أية مصاعب؟ قالت نانا برعب.

- لتختفي هروبا من الشرطة.

- لماذا؟ سألت نانا منهكة لفكرة أن هناك المزيد من المعوقات التي تحول دون رؤيتها لمارياما.

- اللصوص على الشاطئ. السياح لا ينتبهون لأشيائهم ويتهمون الأطفال بسرقتها.

- آمل حقيقة ألا يكون قد حدث شيء لمارياما. فقدت نانا ثانية إحساسها بالواقع. لم تعد تشعر إن كانت هي أم أخرى غيرها التي تجلس تحت شجرة الكاشيو مع الخالَيْن، متعمقة في حديث بلغة غير مفهومة. نهض الرجل الكبير ووقف غير ثابت في مكانه. لم تكن البدلة الرجالية ذات اللون الرمادي الفاتح

تناسب جسم المسن الضئيل.

- اعذرينا، وقت الصلاة. ساعد لويس الرجل الكبير للوصول عبر الفناء إلى أحد غرف المجمع حيث فتحا سجادة الصلاة.

بقيت نانا جالسة في مكانها وقد حوّطها الأطفال في الحال. لامسوا بضحكات قصيرة مكبوتة الخصلات الشقر لشعرها القصير بينما كانت تحاورهم بالإنجليزية محاولة أن تبعدهم. ليس هي من يمكنها التعامل مع الأطفال لكنها لم تعد تشعر بأنها على ما يرام كذلك. أرادت أن تخرج لترى مودو الذي ينتظرهم في التاكسي. تخلصت من الأطفال وهي تشعر بأنها ولجت داخل قصة لا تنتهي ولن توصلها إلى مارياما إطلاقا.

استلقى مودو ونام في المقعد الخلفي للتاكسي. فتحت نانا الباب وأيقظته. اعتدل في جلسته وتثاءب. وعلى الرغم من إيقافه للسيارة بعيدا في الشارع تحت ظل الأشجار كان الحر داخل السيارة خانقا.

- أين تريدين الذهاب؟ قال نعسانا وجلس في المقعد الأمامي.

- ننتظر الرجلين هناك، قالت نانا وأشارت إلى لويس سار والرجل الكبير اللذين كانا في طريقهما خارجين من المجمع وسط عراك بصوت عال. بدا من على مبعدة كأنهما أب وابن. جلس الرجل الكبير على المقعد الأمامي إلى جانب مودو ولويس سار في المقعد الخلفي بجانب نانا. لقد وُضعَتْ على المحك مع خوفها من تقرّب بشر منها أو ملامستها وانسحبت تلقائيا إلى أقصى مكان قرب النافذة. كانت أشبه أن يضع لويس سار حقيبته البيضاء الكبيرة من القماش بينهما على المقعد. أعطى الرجل

الكبير الأمر إلى السائق بأن ينطلق.

- أين سنذهب؟ سألت نانا ومالت إلى الأمام نحو مودو الذي شعرت به الأكثر فهما لها.

- ألا تودين زيارة مدرسة مارياما؟ أجاب الرجل الكبير محله. لم يكن لدى نانا اعتراض ضد استلامه القيادة لو حرص على إيصالها إلى مارياما قبل انتهاء آخر يوم من سفرتها.

وقف التاكسي أمام عمارتين أسمنتيتين كل منها بثلاثة طوابق مع فتحة مدخل إلى فناء مدرسة كبير. كان هناك زحام طلاب حي في مجيء وذهاب. كان وقت تبديل الدوام الصباحي مع العصري.

- مدرسة، قال لويس سار وفتح الباب جهة نانا. كانت قد يئست من إمكانية تحقق أمنيتها في زيارة مدرسة مارياما ولذا لم تكن متهيئة بالمرة. نزلت إحساسا منها بالمسؤولية من التاكسي ومشت إلى الفناء. وقفت تحت ظل لنصف سقف وتطلعت من حولها. كان المكان مكتظا بأطفال المدرسة بزيهم النيلي والأبيض، البنات بقمصان بيضاء وتنورات نيلية وشعر مضفور بإحكام، الأولاد في قمصان بيضاء كذلك وبنطلونات نيلية. كان هناك خلاط أسمنت وسط الفناء. أكوام حصى ومواد بناء انتشرت هنا وهناك. اختارت نانا المدخل الذي صادفها حيث الباب مفتوح على مكتب واسع. في طرف طاولة طويلة في الغرفة كانت هناك امرأة في منتصف العمر بهندام جميل جالسة تعمل. على الأرض من خلفها جلس رجلان كل منهما على سجادة صلاة.

لا يبدو أن صلاتهما قد أثرت في المرأه التي كانت منهمكة في

ضرب الأرقام على حاسبة. أشارت إلى نانا أن تقترب ونظرت عاليا إليها عبر نظارتها.

- تفضلي سيدتي؟

كان عليها أن تتماسك وتتذكر كيف وجدت في هذا المكتب أمام هذه السيدة. تحركت بتردد نحو طاولة الكتابة.

- هل يمكنك أن تخبريني إن كانت فتاة اسمها مارياما مسجّلة هنا في المدرسة؟ شرعت بالحديث.

- اسم العائلة من فضلكِ؟ قالت المرأه بفاعلية. انتبهت نانا إلى أمر جهلها اسم الأب لمارياما. عضت شفتها حيث اعتراها شعور بأنها لم تكن بمستوى الموقف الذي قد أطاح بها. شعرت بنوبة دوار وأوشكت أن تسقط فاستندت إلى حافة الطاولة. تصفحت الإدارية المشغولة أوراق السجل بينما ينزلق إصبعها على أعمدة الأسماء.

- مارياما فال، قالت، إنها حاليا ليست في المدرسة. لستِ متأكدة من اسم الأب؟ مارياما أخرى انتقلت من المدرسة بعد الصف السابع. مارياما ثالثة تركت الدراسة تماما بسبب مشاكل عائلية.

- هل من الممكن أن تكون مازالت في المدرسة وهي في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة؟ كانت نانا تتصرف على سجيتها ولم تدر تماما ما أتت على قوله.

- لِمَ لا؟ إن كان هناك من يدفع فكل شيء ممكن، قالت المرأه بنفاد صبر.

لم تتقدم نانا خطوة في سعيها. وجدت نفسها في المكان ذاته

تماماً الذي انطلقت منه. بقيت واقفة من دون أن تعرف ماذا تنتظر. حرّكت المرأه من دون صبر إحدى قدميها وبدت متسائلة.

- إن شئتِ فبإمكانكِ أن تتبرعي لمدرستنا. نرحب بأي مبلغ كان، قالت بتعب ودفعت بصندوق معدني عبر الطاولة. وضعت نانا عشر ورقات من فئة المائة دالاسي في الصندوق الفارغ.

- هل تعلمين سبب عدم وجود مارياما في المدرسة؟ سألت نانا مترددة.

- لم يتم دفع قسط المدرسة ولكنها على قائمة الانتظار. نحن نعتني بطلابنا ونراقبهم. نظرت إلى أوراقها وأعطت إشارة إلى أن المقابلة انتهت.

- شكراً لكِ، غادرت نانا مكتب الإدارة وترنحت بحذائها الفليني العالي متوجهة إلى التاكسي.

ألقت بنفسها على المقعد الخلفي، منهكة بسبب هذه الكوميديا التي لم تؤدِ إلى نتيجة.

- قل لي أين مارياما؟ قالت نانا. استدار الرجل الكبير صوب لويس سار وهزّ رأسه.

- إنها في العمل، قال.

- ماذا تعني بـ «في العمل»؟

- في مستودع عند النهر.

- لا أريد أن أسمع. وجدت نانا نفسها بتمرد داخلي.

- لا تريدين أن تسمعي، لا تريدين أن تري، ما الذي تفعلينه هنا إذن؟

- لِمَ تكذبون عليّ طوال الوقت؟ كانت نانا على وشك نوبة

هستيرية لاحتمالية تصادمها من جديد مع عجزها.

- تسمينني... أننا كذابون؟ أريد الزواج بكِ، تذكري. بدا صوت لويس سار حادا.

- آسفة لم يكن قصدي إهانتك.

- ماذا كان القصد إذن؟ قال لويس سار ببرود. أصاب نانا يأس. لم تشأ أن تكمل. قد حان الوقت لتعلن استسلامها.

- أرجوك مودو أن توصلني إلى الفندق.

- أنتِ تريدين رؤية ماريياما قبل سفرك وسترينها. إصرار لويس سار أخافها.

- لا، أوصلني إلى الفندق. كانت نانا على حافة البكاء.

- أنتَ تعرف إلى أين نحن ذاهبون؟ قال الرجل الكبير بكياسة لمودو الذي استدار وبدا مستفسرا من زبونته منذ الصباح الباكر.

لم تكن نانا قادرة على إعطاء إشارة واضحة. ضرب مودو بيديه محتارا على المقود وهز رأسه متفهما الرجل الكبير.

بدت المنطقة بأكملها غريبة، مهجورة ومن دون لون. الشوارع فيها خالية من البشر، عدا قامة امرأة وحيدة بحمل ثقيل على رأسها. لم تستطع نانا أن تستدير. بل إنها لم تستطع أن تطلب النزول. لن تستطيع أن تدل الطريق وتبتعد عن هذا العالم المقفل حيث لم يكن هناك لا أسماء شوارع ولا أرقام بيوت وحيث الوقت والمكان قد أُلغيا، وقد هيمن هدوء بحركة بطيئة كأنها كانت في قاع البحر. هذه الصور الرمادية بالسكون والكآبة أرعبت هوية نانا البحتة كسائحة. كان عليها أن تفكر فيما لو كانت ترفض التعرف في الحلم على غير ماريياما التلميذة الطموحة في زيها

المدرسي المكوي وضفائرها السود وفرصة مستقبلية لمقعد دراسي في جامعة للمتفوقين. أم تقبل النسخة غير المنقحة من حياتها فوق ذلك.

اقتربوا من النهر عبر طرق طينية مملوءة بالحفر وأدغال لأشجار منخفضة وعالية، أعشاب يابسة على الجانبين. اهتزت أحشاء نانا الداخلية حتى صعدت معدتها إلى بلعومها. كانت رائحة نتنة تنبعث من ماء آسن ومحاريات عفنة. غيوم من الحشرات تحوم أمام زجاج السيارة الأمامي. وهج الشمس اخترق سقف السيارة. وضع لويس ذراعه حول الحقيبة من الكتّان البيضاء والطبل وبدا شاردا بعيدا.

تبادل كل من مودو والرجل الكبير بضعة تعليقات لم تفقه منها شيئا. تُركت لحالها وهي تقرّ بواقع أنها لا تملك إلا أن تترك بقية برنامج اليوم بين يدي الرجل الكبير.

انفتح طريق الحصى وانتهى عند فسحة رملية تحت تجمع أشجار رفيعة ألقت ظلا بنقشات وامضة. كانت هناك جبال من أكوام شبيهة بالقمامة منتشرة في كل مكان، ولكن تبين أنها صدف محار. جلس أولاد صغار وكبار وأزواج من بنات يافعات متقرفصين عند أكوام الصدف مع دلاء من البلاستك بين سيقانهم، وقد راحوا يقشرون ويطرقون دواخل الصدف. أوقف مودو التاكسي عند شجرة «بوباب» حيث زُيّن جذعها بالإعلانات، أسماء وعناوين، أرقام هواتف ورسائل حب منحوتة في اللحاء. استدار إلى نانا ليحصل على ضوء أخضر من زبونته التي ستنقده أجره من أجل أن يتوقف عند وجهة لم تطلبها هي. هزّت رأسها موافقة وكانت

تعبة، ترجلت من السيارة بطمأنينتها المحدودة لتلتحق بلويس سار والرجل الكبير الذي كانت صحبته برغم كل شيء ضمانا لأمانها. الرائحة النتنة والهواء الرطب جعلاها تتلقف الهواء.

توجه الرجلان قاصدين جسرا خشبيا ضيقا يربط بين ضفة النهر وبيوت خشبية عفنة بسقوف من القش مبنية على أعمدة في النهر. كانا يتحدثان بتركيز وصوت خفيض. أخذ لويس حقيبته معه وحملها على كتفه. لم تعرف نانا أين هي الآن، لا شيء غير أنها سترى مارياما وتلتقي بالواقع كما هو في هذه الأطراف. كانت تهديء من روعها بحقيقة أنها بهذا الذي تراه لم تعد هناك من مشاهد رعب في العالم لا تعرفها، إضافة إلى ما عرفته مسبقا عن طريق سلاسل الصور الديجيتال على شاشات التلفزيون المسطحة والكتب المصورة الباذخة من المناطق المنكوبة على الكرة الأرضية ومراكز النزاع والحروب القلقة.

وقعت عيناها من على الجسر الخشبي المتأرجح على بضع نساء عند ضفة النهر حيث تدلت أشجار المانجروف على الماء العكر. كن يقفن والماء إلى خصورهن يحملن أكياسا من البلاستك على ظهورهن. كان عليها أن تستنشق أنفاسا عميقة كي لا يسوء وضعها بسبب الحر والجو الرطب. أسرعت لتلحق بالدليلين. استدارا بعيدا عن النهر وولجا ممرا ترابيا سالكا، كانت أشعة الشمس فيه منعكسة في صفيح العلب المطروق كنوع من علامات طوال الممر. اختفى الرجلان في مبنى من دون شبابيك تغطيه النباتات.

تبعتهما نانا في العتمة. كان المكان كبيرا وواسعا وبحركة مستمرة بمحاذاة الجدران بشكل غير متوقع. دخلت نانا حذرة متعثرة وبالكاد شخَصت الرجلين أمامها ولكنها تبعت صوت خطواتهما على الأرضية الترابية الوعرة. وأخيرا وصلت الجانب الآخر حيث كان هناك مخرج ضيق. تبين أن البناية كانت مجرد قشرة فارغة، بقايا مستودع محترق. تلفتت نانا ورأت تحت الضوء الحاد بضعة أطفال متجمعين في زاوية مسخمة من البناية التي تشبه مخبأ طائرات ضخما.

تراجعت خطوات لتلقي نظرة إلى حشد الأطفال متأملة أن يقع بصرها على مارياما. كان البعض يلتف ببطانية، والآخر يجلس في كيس من البلاستك، وآخرون على الأرض مباشرة. وقف البعض متجمعين يتلهون بسجائر باللون الوردي والأخضر الفاتح تلوّث الهواء برائحة حلوى شعر البنات. كانت أجسادهم بالكاد تغطيها قطع من القماش كيفما اتفق، إما مقاسات كبار كبيرة جدا أو لصغار صغيرة جدا. توجهت إلى اثنتين من البنات الصغيرات وقفتا أقصى المجموعة وسألتهما عن مارياما. انسحبتا بعيدا كرد فعل لهما وأدارتا ظهريهما لها.

وجدت نانا الرجل الكبير ولويس سار خارجا جالسين على مصطبة صدئة في محل للقمامة أصغر من السابق بخرداوات إلكترونية. وأجهزة تلفزيون قديمة، وأجهزة فيديو مكدسة في تلال عالية، وجبال من كمبيوترات وأجهزة مراقبة قديمة. انشغل بضعة أولاد كبار بإشعال نار بطريقة بدائية. سرعان ما غطى المكان دخان أسود كثيف أفرز رائحة منفرة قوية لاحتراق مطاط

وبلاستيك. عندما استقر الدخان نبش الأولاد في الجمر بأعواد من الخشب وأخذوا يجمعون قطع المعدن وموصلات ويضعونها بعناية في وعاء معدني كبير صدئ. ألقموا النار مجددا بوجبة وقود من الأجهزة الإلكترونية.

سدّت نانا أنفها وفمها بالإيشارب وجلست إلى جانب مرافقيها. لم يبدُ أنهما كانا متأثرين بأبخرة المعادن الثقيلة ولا إزاء الأطفال جامعي الخرداوات الذين كانوا يعملون داخل هذا الدخان السام.

- من الذي يعتني بهؤلاء الأطفال؟ حاولت من دون أن تتوقع جوابا. جاء طفل صغير من موقع النار راكضا إلى الرجل الكبير وشدّه من أحد ساقي بنطلونه. نهض الرجل الكبير وسار معه إلى كومة أجهزة تلفزيون تكدست كأنها تصور بحزن شهادة لانهيار العالم القديم. استغلت نانا الفرصة لتسأل لويس سار.

- أين مارياما؟ كانت تتمنى أن تنتهي رحلة اليوم هذه لتعود بأسرع وقت ممكن إلى الفندق كي تحزّم حقيبتها وتعود إلى بلدها، إلى خاصتها، بيئتها المعتادة، قبل أن تختفي تماما من وعيها.

- ليست هنا. حرّك لويس سار يده.

- أين هي؟

- هذا ما يحاول الرجل الكبير فعله. بدا لويس سار متوترا.

- ما الذي يفعله الأطفال هنا؟

- يجمعون النحاس والنيكل من خرداوات الأجهزة الإلكترونية. عمل جيد. الرجل الكبير يدفع لهم أجرا جيدا، أكّد لها.

- وماذا عن الدخان؟

- الدخان ليس مشكلة.

- إنه سام، أصرّت نانا.

- الأطفـال الفقـراء مرغمون على العمل، قال لها لويس سـار غاضبا.

- وماذا عن النسـاء والأطفال هناك؟ أشـارت نانا برأسها تجاه النهر.

- يقوم النسـاء بتخليص المحـار من جذور «المانجروف» بقصّها بالسـواطير. وبعدهـا يتم تدخينـه وبيعه إلى المطاعـم. الأطفال يسـحقون الصـدف إلـى مسـحوق يتـم اسـتخدامه فـي الأصباغ والأسـمنت، أوضـح لها ببطء ودقة بينما هو يخـرج بالدقة عينها طَبْلَهُ من الحقيبة.

- الأولاد الذيـن يعملـون فـي بيزنس الإلكترونيـات يتقاضون أجـورا أفضـل بكثيـر، واصـل وهـو يختبـر جلـد الطبـل بأطراف أصابعه.

جاء الرجل الكبير صوبهم، منصرفا كليا إلى الحديث بانفعال في الموبايل. كان الولد الصغير من خلفه قد شرع في عمله اليومي بإيقاد النار بالمواد السامة.

- من أين يأتي كل هؤلاء الأطفال؟ شـعرت نانا بالتعاسـة لهذا المشهد السريالي.

- هاريـون، هربـوا... مـن أماكـن مختلفة. وقف الرجـل الكبير أمامها تماما.

- مارياما؟

- هي التي تعتني بالصغار هنا لي.

- ماذا عن مدرستها؟ كررت نانا تعويذتها.

- لقد حجزوها وسلموها إلى الشرطة. تدلى موبايل الرجل الكبير المعلق بخيط حول رقبته.

- نحن مضطرون إلى الذهاب إلى مركز الشرطة في الحال، قال. نهضت نانا كمن تلقى أوامر بركبتين ترتجفان.

- ستأتين معي. كان الرجل الكبير مجهدا ومنزعجا. ظلت نانا واقفة في مكانها تنتظر لويس سار الذي جلس مع الطبل بين ركبتيه وقد ضرب عليه ببضعة إيقاعات إيحائية عميقة.

- لديّ عزف في المساء.. هناك عرض للسياح على النهر. أشار إلى البيوت الخشبية العائمة التي ظهرت لهم أعاليها.

- زوجتي، ستعودين إليّ. أنا في انتظارك، واصل بصوته الواثق الهادىء. أجابته بضحكة عصبية قصيرة وهي تمسك برقبتها.

انطلق الرجل الكبير من دون أن ينتظر نانا صوب التاكسي. كانت تلهث من خلفه مثل مراسلة تلفزيون مرفوضة محاولة اللحاق به.

- أريد توضيحا منك، صاحت. زاد الرجل الكبير من سرعته. كانت بدلته الرجالية تخفق على جسمه النحيل.

- ما الذي حصل؟ وصلت نانا إلى جانبه.

- كانت على الشاطئ تعمل بيزنس. وجاء ذاك الشرطي وأخذها معه، ولكن لا لصوص في عائلتي. جلس الرجل الكبير إلى جانب مودو. ظلت نانا واقفة ونظرت من ثم إلى الخلف. كان العمّال الأطفال مازالوا جالسين القرفصاء كما كانوا من دون أن يتحركوا بين الأوعية البلاستيك وصفوف من الأكياس بمسحوق صدف المحار. ألقى الهواء حجابا لماعا قبل الغروب، حيث الشمس

لاتـزال حاكمة بكامل قوتها قبل أن، ومن دون إنذار من لحظة إلى التي تليها، تغرق في النهر.

ظهر كما لو كان رؤيا في حلم رجل ممتلىء قصير بقبعة محيكة على رأسه من خلف شجرة البوباب حيث توقف التاكسي. تناول دفترا مجلّدا من جوف الجذع الملون وجاء إلى نانا وقدّم نفسه كدليل مزرعة المحار ولفتَ انتباهَها إلى أن الزوار عادة ما يتبرعون بالنقود للمدرسة القريبة التي أسسها أصحاب الشركة. تصفحت نانا السجل الذي يحتوي أسماء الزوار الأجانب، والبلدان التي أتوا منها، والمبالغ التي تبرعوا بها. كتبت نانا اسمها وضاعفت أعلى مبلغ مكتوب. رفضت عرضا بجولة مقابل ذلك وشكرته للزيارة. عدّ الرجل النقود وأعاد برضا الدفتر إلى الجوف في جذع الشجرة.

كان مركز الشرطة يقع في الشارع المشجر الأكثر زحاما والمؤدي إلى منطقة السياح. كان يحوي مباني واطئة متواضعة محاطة بأشجار المانجو. ترجل الرجل الكبير من التاكسي وصفع الباب بقوة. تبعته نانا من دون أية فكرة لما سيحتاجها فيه. دخلا عبر باب مفتوح في بناية جانبية. وحالما وطئت أقدامهما داخل البناية واجهتهما حجرة ضيقة مغلقة بقضبان بطوال الجدار الأخضر العفن. كان هناك خمسة عشر إلى عشرين معتقلا من الشباب المحشورين مثل السردين في علبة مضغوطين خلف القضبان التي امتدت من السقف إلى الأرض. بعضهم دسّ معصمه المجروح من بين القضبان.

الآخرون أشاروا إلى كدمات زرقاء وحمراء على أذرعهم

وسـيقانهم. ورفع واحد بحركة سريعة التيشيرت إلى أعلى وأراهم خيوطا من الدم على ظهره. كل شـيء تم في صمت اسـتعراضي. قامـة نحيلة صغيرة لطفـل كبير تقريبا حيّا بثقـة الرجل الكبير الذي دسّ بخفية ورقة نقود بيده.

لـم يبـد الحارس البديـن عند النضـد في نهايـة القفص آبها للرائحة الكريهة والشـكاوى الخرساء من المحجوزين. كان جالسا لامباليـا مـع كومـة أوراق مغبرة أمامـه ينظّف أسـنانه بعود. من خلفـه كانت صـورة ملونة للرئيس وزوجته، امرأة في غاية الجمال من الشـرق الأوسـط. في نهاية النضد كانت هناك طاولة بمقعد مضفور. لم يكن هناك غيرها في الغرفة الضيقة وسقفها العالي غير خزانة للسجلات التي تُركت مفتوحة الأبواب المثبّتة باعوجاج بمفصلاتها.

تصافـح الرجـلان بحـرارة طويـلا. ترجـى الشـرطي مـن نانا الجلـوس على الطاولة. جلسـت علـى الطرف كـي لا يلوث المقعد المدهّـن بنطلونهـا الأبيـض مـن الكتـان. تحـدث الرجـلان الذي افترضت أنهما معارف بصوت خفيض يكاد لا يسمع. كأن للجدران آذانا. المروحة النعسـة في السـقف حرّكت الحرارة الثقيلة الرطبة في الغرفة المخنوقة.

- ... جيـدة مثـل الذهـب، قال الرجـل الكبير. تمتم الشـرطي بشيء ما. فقهت نانا بعض الكلمات المنفصلة وتصورت أن تفاوضا يجري حول المبلغ الذي سيتم إثره إطلاق سراح مارياما من الحجز الذي لا أساس له. كانت على وشك القول إنها على استعداد لدفع مـا يطلب ولكنهـا أحجمت. كانـت قدرتها المادية تحديدا السـبب

فـي جـرّ الرجـل الكبير لهـا معه. كان السـؤال هو مـا المبلـغ الذي سينتزعونه منها.

توجه الشـرطي فجأة بنظره إلى نانا والرجل الكبير يقول إنها التي تتكفل بمصاريف مدرسة مارياما.

نظـر الشـرطي طويلا إليها. لم تسـتطع الحسم هـل كان في نظرته ازدراء أم تعاون.

- إذن أنـتِ.. راعيـة.. أطفالنا؟ بصق الكلمات من بين شـفتيه. بأكمـام قميصه القصيرة وعلبة السـجائر في جيب القميص كان لا يختلف كثيرا عن موظف متعرق ما في دائرة حكومية ما.

- جيـد، جيـد، قـال مجامـلا. هـل كان ذلك إشـارة إلـى قبوله عرض الرجل الكبير وهو مسـتعد لتسـلم مبلـغ الرشوة؟ أدنت نانا حقيبتها لصق جسدها لتتهيأ نفسيا لدفع مبلغ كبير.

تصافـح الرجـلان للاتفـاق الذي تم. هـزَّ الرجل الكبير رأسـه برضـا وتمتـم أن بإمكانهما الانصـراف. نهضت نانـا وكانت تنوي توديع الشرطي لكنه بدا بعيدا بأفكاره في أمكنة أخرى ولم يلحظ ذهابهـا. كان الرجـل الكبير قد سـبقها خارجا. أسـرعت نانا مارة بالقضبان والأيادي التي امتدت إليها. وبحركة أشبه بالسحر وزعت فـي طريقها نقودا وركضـت عبر الباب تتبعها نداءات خفيضة من الرجال المحتجزين الذين لم يكن يقدم الطعام والشراب إليهم إن لم يدفعوا بأنفسهم مقابل ذلك أو أن تأتي العائلة بالطعام لهم.

وقفـت في المكان بالخارج سـيارة للشـرطة محمّلـة بوجبة جديدة من الشـباب الذين قبض عليهم في منطقة السـياح. رأت نانا ما فيه الكفاية وأكثر وهربت إلى التاكسي الذي كان في انتظارها. أخرجت

منديـلا مرطبا من حقيبتها وجففت صدغيها ومسـحت الوسـخ والبكتيريـا مـن على يديها. أوضـح الرجل الكبير خطـة الإنقاذ. إن سـلّمته المبلغ الذي اتفق مع مفتش الشـرطة بشـأنه سـيتولى الرجل الكبير بعدها شخصيا تسليم المبلغ في المكان الصحيح. إن وافقت ستنجو ماريّاما من التهمة.

نظر الرجل الكبير متفكرا عبر النافذة إلى جدار مركز الشرطة المتقشر.

طلبـت نانـا من السـائق أن يوصلها إلـى أقرب ماكينة سـحب أوتوماتيكيـة، لتتمكـن من سـحب المبلغ المذكور فـي الحال. اتصل الرجل الكبير بدوره بصديقه داخل المركز.

توقفـوا قريبـا مـن بنك خاص عـادي. سـحبت نانا مـا يكفي مـن عملـة الدالاسـي وأعطت للرجـل الكبيـر ما أمر بـه من دون أن تعتـرض على حجـم المبلغ. إن كان المبلـغ الصحيح هو تعريفة رشـوة عاديـة أم سـرقة ذكية، لم يكـن باسـتطاعتها أن تحكم. رأت فـي تحويل النقـود نتيجة منطقيـة للمغامرة التـي خاضتها في عطلتها ولم يكن بإمكانها فعل شيء غير الوثوق بأن الرشوة كانت لمساعدة ماريّاما.

توجـه مـودو بالسـيارة مـن دون أن يسـأل إلـى فنـدق جولدن بـاي. لم يتبادلوا كلمة واحـدة قبل أن يتوقف عند مدخل منطقة الفنـدق. دفعت له المبلغ وفق التعريفة ليوم كامل مع البقشـيش. وشكرته لصبره وقيادته الأمينة.

- أين ماريّاما؟ سألت الرجل الكبير في محاولة أخيرة لتحصل على يقين في كون ماريّاما حقا في وضع جيد.

- عند خالتها.

- هل كانت محجوزة مع الرجال الشبان؟

- الرجال والنساء كل على حدة. قال الرجل الكبير مع اشمئزاز كأن نانا قد كفرت.

- كنت أتمنى أن أراها قبل سفري، قالت نانا من دون أي أمل بتحقق أمنيتها. كانت تتصبب عرقا بسبب التعب واشتاقت إلى حمام طويل وإحدى مقطوعات بيتهوفن لرباعي وتري في «الآي بود».

شرعت في الوداع بإعطاء الرجل الكبير بطاقتها التعريفية وطلبت منه في المقابل رقم موبايله لكي يتسنى لها الاتصال به. لديها خطط للمستقبل، قالت له، خطط عليه مساعدتها في تنفيذها.

بالطبع ليس من دون دفع. لا سبب يدفعه إلى تقديم خدمات مجانية. لديه تجارته. كان رجلا مشغولا بأكثر من مشروع في آن واحد. يمكن أن يعتبرها شريكة له في مشروع. كان لديها مقترح تود عرضه عليه بما يخص ماریاما. استعدل الرجل الكبير في جلسته واستدار أخيرا نحوها.

- ماریاما.. ليست للبيع، قال لها.

- يبدو أنك قلق حقا بشأن ابنة أختك. تجاهلت نانا رفضه الذي أبداه وحاولت أن تقنعه بفرصة ماریاما للمجيء إلى أوروبا والعمل كمساعدة عائلة. في الوقت ذاته ومع عملها يمكنها الحصول على كورس في اللغة ليكون لها مدخلا لدراسة جامعية. دراسة من شأنها، وعلى المدى البعيد، أن تساعد عائلتها وإخوتها الكثيرين.

- ليس لديك الحق. ارتج صوته غضبا. هل يمكن أن يكون هو وليس لويس سار الذي اختار مارياما زوجة ثالثة له؟ أدركت نانا فجأة.

- قلقي عليها تماما بمقدار قلقك عليها، قالت مشتعلة بجمرها الداخلي. ترجل الرجل الكبير وفتح باب السيارة من جانبها. لم يكن لها خيار غير أن تغادر التاكسي. دفعة مباغتة جعلته يتراجع. نبشت في حقيبتها بطريقة محمومة وتناولت الموبايل ثم أخرجت منه الشريحة.

- أرجوك، أعط موبايلي لمارياما، هذا هدية الوداع لها. ناولته نانا الموبايل ولفة نقود كافية لتشتري لها شريحة جديدة وبطاقة مسبقة الدفع للتحدث. تناول الرجل الكبير النقود على مضض ولم يبد مقتنعا إطلاقا. ومن دون أن يودع نانا جلس في المقعد الأمامي إلى جانب مودو. وقفت بشعور أنها خسرت المعركة وخشيت أن يُضرِمَ هذا الاضطراب العاطفي الذي عاشته النار في كآبتها في أية لحظة نتيجة إجهادها.

- مساء الخير سيدتي، سمعت صوت حارس الفندق من خلفها. ومن دون أن ترد التحية عليه انطلقت مارة به وعبر بوتيك الهدايا والمتنزه نحو الكوخ إلى غرفتها. كانت تنوي تغيير ملابسها والنزول إلى كازينو جولدن باي قبل المساء لتلعب الروليت حتى آخر دالاسي لديها. كالعادة فقد حولت مبلغا كبيرا إلى عملة الدالاسي ونسيت أنها لن تستطيع تحويله ثانية إلى عملة أخرى متداولة.

٢

تبعات مارياما

أول مـا قامـت به نانـا بعد أن خطت بقدمها داخل الشـقة في المدخـل، وقـد تخفّفـت مـن حمـل ثقيل فرحـة بوصولهـا أخيرا لبيتها، وقبل أن تضع حقيبة السـفر جانبا وتنضو عنها معطفها وترميه اتصلت بمدرّبها.

- هل وصلتِ سالمة؟ قال ثايس متأملا نتيجة إيجابية لدوائه، عطلة للوقاية من الإجهاد النفسي والعصبي.

- لقد كنت بعيدة جدا. شعرت نانا بأنها لم تحطّ بعد.

- وهـو المطلـوب. المسـافات هـي الزيـت للمحـرّك للأعـراض النفسية الجسدية. باغتتها قسوة ثايس المرحة.

- كنـت بعيـدة فقـط، كـررت مدافعة وقـد أدركت تسـرعها في الاتصال به، لكنها كانت في حاجة للتحدث مع أحد.

- الأمر يحتاج إلى أكثر من أسـبوع لعطلة تحت الشـمس من دون موبايل وبريد، قال بحسم.

- لا أسـتطيع الابتعـاد عن العمـل أكثر من هذا. سـمعت نانا صوتها بعيدا كأنه لغيرها.

- المهـم هـو أن تعـملي بشكـل ممتاز ثـانيـة، قـال ثايس.

كان ما قصده لطيفا لكنه بدا مثل تهديد في أذن نانا. اختارت أن تتجاهله وتعد نفسها بأن تعود بسرعة إلى ما كانت عليه.

- لم أحطّ بعد. صوتها كأنه صوت لعبة أراجوز.

- ولا يجب علينا أن نتعجل في شيء.

- هناك أكوام من الملفات في انتظاري، مفكرتي ملأى بالمواعيد، قاطعته.

- لنتحدث طويلا في الغد ونخطط، قال ثايس، بحنان تقريبا.

- أمهلني بضعة أيام لأستقر، ترجته بالصوت الغريب ثانية.

أصبح ثايس شخصا على درجة من الأهمية في حياتها مع «روار» بدرجة أكثر مما كانت تطيق. يفزعها ضعف البشر، سواء ضعفها هي أو ضعف الآخرين. الضعف يخلق الفوضى، والفوضى هي الجحيم. على الرغم من أنها كانت ملحدة ومادية كان مصطلحا «الروح» و«الجحيم» مستخدمَيْن في تفكيرها. كانت في الأساس ترغب في دراسة الفلسفة بتخصص في ديكارت، ونظريته «أنا أفكر إذن أنا موجود» كانت تعويذتها التي علّقت عليها هويتها. كانت مدمنة فكر. منذ كانت طفلة وعندما يعترضها شيء كانت تشفي جروحها وتعادل آلامها عن طريق تأملها، وفلسفتها تنظر إلى سوء الحظ عبر مركب تفكير معقد. لم تندم لإسقاطها دراسة الفلسفة لمصلحة الأساس المضمون في دراسة الماستر في العلوم الاقتصادية، ولكن بقيت الفلسفة هواها تطفو في المواقف الصعبة مثل شذرات وشظايا من تلك الفترة قبل أن تكون لها هذه الحصيلة من العمل والخبرة، وقبل أن تكون

هي والحصيلة وحدة واحدة لا ينفصل بعضها عن بعض.

بعد بضعة أيام من العمل المضغوط الذي اقتضى اهتمام نانا الكامل بدت مغامرة السفرة فترة فوضى حصرا، اضطرابا غامضا، وهي في خضم إلقائه خلف ظهرها. كانت قد عادت إلى عالم الواقع من الحلم المنذر والمعتم. كان هناك سبب لكل شيء ولكن لا معنى، كما طمأنت نفسها. مازالت تشعر باللحظة المبهجة إياها حين قبّلت العجلات الصغيرة للطائرة بمهبط المطار في كاستروب بنفس عميق. راحة لا توصف انتشرت في كل أنحاء جسدها الذي كان في حالة إنذار عالٍ طيلة إقامتها أيام السفرة.

كانت خلفية سفرها في عطلة خارج فترة العطل الاعتيادية للشركة هو التقييم الخاص بها للأشهر الأخيرة من قبل فريق الإدارة. كانوا يقيّمون أنفسهم وبعضهم البعض باستمرار وفق استمارة تقييم (القدرة، التواصل، الفعالية، جهد العمل، المسؤولية) وفق مقياس سلّمي من ١-٧. وقد كانت أكثر من مرة في أدنى السلّم. انعدام الثقة من قبل الزملاء صار عامل ضغط أدى إلى ارتفاع خطر في مستوى الأدرينالين لها. لقد خُصِّصت لها خمس جلسات عند ثايس وهو أحد مدرّبي «روار» من موظفي الشركة الذين كانت مكاتبهم تشغل الطابق الأعلى لبناية الشركة في شارع أمار. اعتبرت نانا جلسات معالجة الإجهاد النفسي والعصبي المتأتية من ضغط العمل إثباتا على أن «روار» تعدّها موظفة قيّمة يستحق الاستثمار فيها والتطوير.

عن نفسها فهي لم تلحظ مشكلة أو خلافا، ولم تفهم التقييم

المتدني الذي جاء من قبل المجموعة. شعرت بالغبن وتملكها غضب حيال زملائها الذين لم يتمكنوا من تقدير استحقاق جهدها في عملها. كانت تعمل لست عشرة ساعة في اليوم وعندما كانت في حالات نادرة تعود من عملها في السادسة مساء كانت تمزح بقولها إنها تأخذ إجازة لنصف يوم. ولكن كما يبدو كانت هناك هوة بين ما تراه في جهدها وحكم زملائها.

عادت نانا من عملها بشعور بالضيق. هرعت في طريقها لأقرب محل بيتزاريا. ألقت بنفسها على الأريكة مع قطعتي بيتزا وكأس من الشراب. كانت لديها ممانعة غريبة في داخلها طوال اليوم ضد قراءة تقارير المشروع وملخصات اللقاءات التي قفزت إلى صندوق تسلم الرسائل. كانت تعمل بآلية وبفعل الدواء المخفف للخوف. شعورها الأول بالراحة بعودتها إلى البيت ثانية بعد السفر والانغماس تماما قد بَهَتَ. أفزعها بأن العمل لم يعد يثيرها، لم تعد تشعر بالنشوة بسبب المعارك التي تخوضها مع فريق خدمة العملاء ومجموعة فريق الإدارة. اختفت تلك الاستثارة التي تعود بها إلى البيت بعد عقدها لصفقة استثمار كبيرة.

لم يكن هناك سوى التعب الذي يشبه الموت وسوداوية الرجل الآلي التي لا حدود لها. لو علم زملاؤها بما حصل لها لكانوا قد حكموا عليها بالفصل، بعد أن كانت العطلة المفروضة عليها على العكس من الهدف حيث سحقت البطاريات ودفعت بها إلى الحافة بمسافة أبعد بكثير. لأنه لم يكن هناك من حقائق أخرى غير الحياة هذه تعيشها هي وهم في البنايات المستقبلية ذات

الوجاهة من الزجاج والستيل ل «روار» العالمية ومساكنهم الخاصة الراقية المجهزة بالأطفال والفتيات مساعدات العوائل. كانت نانا تعرّف نفسها مائة بالمائة بتلك العوائل السعيدة/غير السعيدة لأن المجتمع يعود إليهم.

بدلا من الانكباب على ملفات العمل التي عادت بها إلى البيت لكي تستعد للغد منحت نفسها ساعتين في مركز اللياقة الذي يقع على الجهة الثانية من القناة في مول فيسكة تورف. شعرت فجأة بحاجة لتمرين الروح خارج الجسد ناسية تماما أن روحها قد بقيت هناك في الحرارة الاستوائية حيث لا تتمنى العودة. كان يمكنها النظر إلى «فيسكة تورف» من شرفتها في الطابق الثامن في صومعة الحبوب «كيا الصويا»، في «جيميني ريزيدانس» وحقيبة اللياقة كانت تقف دوما على استعداد عند مدخل الشقة في حالة التحرك السريع. كان إحماؤها بالركض عبر الممر الضيق وجسر الدراجات الذي ارتفع كأنه رسمة غرافيكية بين «بروكان» و«كالفة بوذانه». شعرت بأنها تتهرب من العمل وتريد للوقت المسروق أن يمرّ بسرعة. عندما لا تكون مدفونة تماما في عملها يتملكها شعور بالذنب مشتت وغير مريح.

دخلت نانا بعد تمريرها الكارت مركز اللياقة متوجهة مباشرة إلى المنزع. وخلال لحظات وجدت نفسها على حزام الركض. تفصّد العرق من مسامات جسدها وكل معمل أفكارها قد تقلص إلى صور مضببة على شبكية العين التي تحولت بعد ٣٠ دقيقة وبسرعة قصوى إلى فراغ من دون ألوان ملأته مختارات موسيقية على الآي بود.

كانت قد ألفت جدا المكائن إلى درجة أن بإمكانها أن تتم برنامج تمرينها وهي نائمة. ذابت سوية مع البنى الملتوية للأجهزة الحديدية التي انتصبت كمحض خيال من حرب النجوم وصعب عليها الانفصال عنها. بقيت جالسة محنية جذعها إلى الأمام على السرج ورأسها بين يديها مثل مفكر «رودن» وقد شعرت بأن جسدها قد انحلّ إلى كتلة عضلات من دون شكل.

عادت ثانية واستعادت تحت الدوش شكل جسدها متماسكا من جديد. كانت رشيقة وطويلة القامة مشرئبة بقامتها التي برز شكل عضلاتها بوضوح من تحت الجلد. كانت وحدها في حمام الساونا وقد بدأت أفكارها تأخذ شكلا وهي تستغرب كيف نشأ هذا الضعف الداخلي لديها، وكيف تحاربه. هل الضعف مبني في داخل كل إنسان لأن النجاح لا يدوم؟ هل حالفها الحظ كثيرا وقد حصلت على أكثر مما يجب وآن أوان عقاب القدر؟ ولكن لم يمنحها أحد شيئا. كل ما كسبته ماديا ووصلت إليه في السلم الوظيفي كانت قد حاربت من أجله ودفعت ثمنه دما وعرقا ودموعا. لقد حصلت على ما طمحت إليه ووصلت إلى ما كانت تريد أن تصل إليه. من منطلق فلسفة تقول إن أمنيات الإنسان الداخلية اللاواعية تتحكم في عملية تحققه. بوجودها في «روار» تشعر بأنها في بيتها. هنا تضع كل طاقاتها العقلانية والإبداعية. هناك رابط قوي يشدّها بالشركة. لقد طورت قدراتها المهنية، صارت محترفة وأودعت كل وجودها لدى «روار» التي كانت عائلتها الصغيرة والكبيرة في الوقت نفسه متفرعة في كل أنحاء العالم.

قامت في بيتها في «جيميني ريزيدانس» بخطوة كبيرة أخرى هاربة من العمل بالدخول إلى «Donor Sibling Registry» (*)، حيث كانت زائرة دائمة. كانت هناك حاجة كبيرة تدفعها إلى مشاركتها أنصاف البشر من أمثالها بخبرتها وتجاربها، على الرغم من أن قانون الدنمارك الذي يحمي مجهولية المتبرعين يحول دون بحثها عن إخوة نصف أشقاء لها من المحتمل العثور عليهم. كان الموقع بيتها الثاني. كانت قيم «دي أس آر» الجوهرية هي الأمانة والصدق توائم تلك القناعة حول أن كل إنسان له الحق الأساسي في الحصول على معلومات حول أصله البيولوجي وهويته. «هناك إرثان دائمان نأمل أن نمنحهما لأطفالنا، الأول هو الجذور والثاني الأجنحة».

فكرت نانا في طفولتها والتحول الذي حدث لها بعد حفل التخرج من الثانوية عندما علمت بالمصادفة أن والدها كان عقيما ولم يكن الأب البيولوجي لها ولكن مجرد «بديل» لمتبرع مجهول. بضربة واحدة اختزل والداها إلى بويضة وحيمن مجهولين امتزجا معا وانقسما إلى خلايا جديدة شكلتها. شعرت كأن على جبهتها علامة يراها الكل تقول إنها نتاج اصطناعي. كانت حساسة جدا في تلك الفترة من الدراسة، غير واثقة من هويتها بسبب الكلمة المشهورة «طفلة بالتبرع» التي حولتها إلى شخص آخر غير الذي كانت عليه.

لم يكن القصد هو معرفتها للحقيقة بشأن ولادتها على الرغم من أن العائلة ودائرة الأصدقاء والمعارف كانوا يعرفون.

(*) مختصرها هو الحروف الأولى الثلاثة «دي أس آر» وهو موقع على الإنترنت بمنزلة سجل لتأكيد صلة القرابة بين أطفال ولدوا من مختلف الأرحام من حيوانات منوية تبرع بها شخص واحد.

ولكـن أحـد الضيـوف وهـو صديق قـديم للعائلـة، العـم فرانك وبتأثيـر السـكر لـفّ ذراعه حول كتفهـا بحبٍّ وناداهـا بـ «طفلتي بالتبـرع». في اللحظة شـكّت في المرسـل الذي يديـر عيادة أنيقة خاصـة للإخصاب، ولكن ذلك وصلها مثل خيال حر وكل ما فعله فرانك هو مدّهم بمساعدة متخصص بشأن ولادتها.

كانـت شـقة الوالديـن الفارهة جـدا تضـجّ بالزوار السـعداء. دخلت رائحة الليلك والعشب المقصوص للتو عبر النوافذ المشرعة وزاويـة التزويد بالشـراب في الشـرفة مكتظـة. منتصف كل هذه الحركة شـعرت نانا بالخيانة وبأنها قد تركت وحيدة تحت سـماء فارغة. حب الوالدين قد اسـتراح على كذبة، والحب والكذب وفق مصطلحاتهـا الأخلاقية لا يمكن أن يجتمعا. بتطرفها الشـبابي تخلّـت عـن والديها، على الأخص أمها التي لم تسـتطع أن تغفر لهـا وأنكـرت رؤيتهـا بعـد ذلـك. فضـح هويتهـا البيولوجية كان علـى درجة مـن العنف اضطرها إلى تلقـي العلاج من أجل جمع شـظاياها. «الأطفال الذين يخلقون نتيجة تبرع بالحيمن إما أن يعلمـوا بالحقيقـة في وقت مبكر جـدا وإلا لا يصح إخبارهم. إن كانوا في سن المراهقة أو النضج فستكون الصدمة والغضب حيال صمـت الوالدين كبيرين جـدا». ونتيجة لمـرارة تجربتها الخاصة كان هذا هو ما اتفقت عليه تماما مع زملاء لها يشـاركونها القدر ذاته في غرفة «المحادثة» على موقع «دي أس آر».

شـعرت نانا بالخجل من ولادتها في مختبر جعل منها سـلعة مـن نتـاج التلقيـح الاصطناعـي أو بإنجليزيـة أكثـر لطفـا فـي التعبيـر ما يقـال «الإنجـاب بالمسـاعـدة». لـم تخلق مـن الحـب،

ولا العاطفة ولا العنف بل من إنجاز علمي في محيط كلينيكي بارد. لم تستطع الكف عن التفكير في كلفتها، فيما لو كان والداها قد حصلا عليها بسعر مخفّض من الصديق!

كانت قبل أن تعرف السبب تلوم والديها لحبهما لها غير الكافي لأن يعطياها إخوة. غالبا ما سألتهما إن كانت طفلة متبناة مادام أنها كانت شقراء ولم تشبه أيا منهما. كم كانت غبية وجاهلة. عندما كانت تفكر في نفسها قبل انفضاح السر كان يتملكها عطف على البنت الصغيرة التي ركنوها في عتمة مجهولة كضحية لخداع الوالدين. غضبها الجامح وحاجتها إلى الانتقام كانا من ضمن الأضرار التي تمت معالجتها مع الطبيب النفساني. لقد صارت سيدة الساكتين الكابتين، ولو كان الكبت جزءا من نظام الكراتيه لكانت قد حصلت على الحزام الأسود.

أغلقت نانا الموقع ودارت حول نفسها على كرسيها من دون استقرار.

أصابت نظرتها الشاشة المسطحة التي نسيت أن تطفئها عندما توجهت إلى العمل في الصباح. انزلقت الكاميرا داخلا بين الأشجار خارجا في غابة متحجرة. لمعت الجذوع الرمادية المفضضة المتينة تحت الشمس. جلست على تختة القدمين للكرسي الكبير وانتظرت حتى تجد الكاميرا شيئا ما مثيرا بين الجذوع، نوع حيوان غير معروف، نبات نادر، متحجرات من زمن ما قبل التاريخ، حجر بركاني من نيزك. كان برنامج المجلة العلمية الأسبوعي هو الوحيد الذي يكسر رتابة الأخبار والبرامج الترفيهية. المجلة كانت تذكرها ببرامج الأطفال في طفولتها

وذلـك الأمـان وتلك الحرارة التـي كانت تبعثها فـي صالة اللعب الواسعة حين كانت تعتقد أنها مازالت من نتاج حب والديها.

في فترة ما قبل الظهر لليوم الثاني أحست نانا بجهاز الموبايل يهتـز في جيب سـترتها. تناولته من دون رغبة ورأت على شاشـته رقما من غامبيا. شـعرت بضيق شـديد كأن تجربـة مريرة تصعد إليهـا مـن اللاوعـي. من هـذا الذي يقبـل على الاتصـال بها من هناك؟ صحيح أنها نشرت بطاقتها يمينا ويسارا ولكن أن يستخد م أحدهـم البطاقة هـذا ما لم يخطر ببالها. نهضت وخرجت من غرفة الاجتماعات. سـرى صوت مارياما مثل صدمة كهربائية في جسدها. لقد نسيت أنها منحتها أحد أجهزة الموبايل التي لديها عندما سافرت.

- أوه، حبي، هل هي أنت حقا؟ أية مفاجأة. خفق قلبها بشدة، يحفـزه انفجـار مشـاعرها التلقائي الذي فاجأهـا. على الطرف الثانـي كان ذلـك النفـس الملح المحبـوس الذي تعرفـه جيدا من الشاطئ السياحي.

- مـا الذي حصل؟ لم لا تسـتطيعين الحديث الآن؟ ماريـاما؟

نظـرت نانـا بأسـف إلـى شاشـة الموبايل. لقـد انقطـع الاتصال. اتصلت في الحال ثانية ولكن لم يكن هناك جواب.

وكأنهـا قد سـقطت أرضـا خوفا مما يمكـن أن يكون قد حصل لطفلتهـا الصغيـرة (للمـرة الثانية تفاجـيء نفسـها باختيارها العاطفـي للكلمـات) منـذ أن غـادرت التاكسـي ذلك المسـاء عند محطة الباص في سيرا كوندا.

عـادت نانا مُكرهة إلى غرفـة الاجتماعات وأخذت مكانها عند

الطاولة المستديرة برأس ملؤه مارياما التي عادت إليها بمعجزة. مثل رؤيا تبدت قامة مارياما الهزيلة في زجاج النافذة وانحشرت بينها وبين المجتمعين.

- ما قولك نانا؟ سمع صوت عال وواضح.

- رأيي كالسابق. تلعثمت نانا وتنحنحت.

- هذه هي المشكلة تماما، لقد عبرنا إلى نقطة أخرى، قال كاما. أربع عيون بحلقت بلا تعبير في وجهها. احمرّ عنق نانا وخفضت بصرها. عدم التركيز لا وجود له في اجتماعات فريق العمل الذي كان بصدد عمل دراسة للفصل الذي مرّ على الفرق الخمسة لخدمة العملاء في القسم ووضع استراتيجية للفصل القادم.

- وصلنا النقطة رقم أربعة، همس هانس لها.

- ألا يمكنكما التحدث على انفراد لاحقا، بدا صوت كاما منزعجا.

- دعونا نكمل، قاطع جيرت مدير الاجتماع بصوته. هزّ مديرو الفريق رؤوسهم وامتثلوا. كانت نانا ممتنة لتساهل زملائها ظاهريا على أية حال. ما فكروا فيه في دواخلهم لم يكن ليعنيها.

لاحقا صادفت هانس خارجا عند ماكينة القهوة. كانت بعيدة مع أفكارها التي تجمعت حول مارياما منذ تلك المكالمة المقطوعة. وضعت القدح الورقي في حامله وأسرعت خلفه واعتذرت لعدم تركيزها حيث لم ترد على تحيته. قال لها: لا بأس. هو الآخر كان يتعارك مع حسابات تكلفة لم تتطابق مع توقعات عميل لديه.

هزت نانا رأسها متفهمة وشعرت بنوع من الخيبة وهو

مـا أدهشـها أن تتم إزاحتهـا بمعلومة محايدة مـن زميل. يمكننا تناول القهوة السـاعة الثالثة في الكانتين، اقترح وواصل مسـرعا لانشغاله. رحبت بالعرض على الرغم من وقتها الضيق.

ذهبـت إلـى الكانتين وفق الاتفـاق. كان فارغا منتصف ما بعد الظهـر. لقد جلسـت في غرفة الاجتماعات منـذ افترقا ولم تكن قد تقدمت كثيرا بمراجعتها لصفوف الأوراق، البريد الإلكتروني ورسائل الموبايل القصيرة التي كانت تقفز خلال الاجتماعات. دفع هانس الكرسـي بأناقة تحتها وجلب كوبـي قهوة بالحليب. جلس قبالتها وقد بدا كأنه ينتظرها. كان بالفعل مهتما بسلامتها.

- عـذرا، أنـا لم أحـطّ بعد. جففتْ نانا بضـع قطرات من فوق شفتها.

- لقد فقدتِ توازنكِ.

- عليّ أن أعيد ترتيب ما مررتُ به هناك.

- هل لديك بعض صور من هناك؟ سأل باهتمام.

- أنا مصورة بائسـة، ولكـن ربما بعـض الصـور من الشـاطئ. لم تشأ نانا أن تريه صور مارياما التي كانت معها على اللاب توب.

- لا تنحـرجـي منـي. أنـا هـاوٍ. كانـت يـد هانـس علـى بضعة سـنتميترات من يدهـا. كان طبيعيا جدا ودافئا ممـا أربكهـا لأنه لم يكن كما يبدو ظاهريا. لم تجرؤ أن تنظر إليه.

- هل قلتُ شيئا خطأ؟ كان بؤبؤا عينيه صغيرين جدا، كأنهما ثقبا إبرة سـوداوان. فكرت أنه لا بد أن يتعاطى الكوكايين ولكنها نفضت الفكرة عنها.

- لا، لا، لـديّ الكثيـر من عقود العمـلاء معلّقة حاليا هذا هو

كل ما في الأمر.. بالإضافة إلى كما تعلم.. حياتي الخاصة. كانت نانا تفكر في ماريانا. لم تكن لديها حياة خاصة.

- نحن نكون في أحسن أحوالنا عندما نركّز على عملنا، قال هانس يساررها. أحبّت نانا قوله «نحن».

- لم أجلب معي هدايا بالمرة، قالت بارتباك لم ينسجم تماما مع الحقيقة.

- وماذا نفعل بكل هذه الخرداوات. اقتربت يد هانس منذرة. ربما كان وهما أنها شعرت بحرارة الجلد.

- لن أسافر إلى هناك ثانية، أكملت نانا وسحبت يدها بعيدا. لقد جلسا حقيقة براحة في طرف الغرفة الواسعة المفتوحة حيث يمكنهما أن يريا من خلالها كل الطوابق العليا. فكرت نانا مع نفسها في أن تلك الطاولة الرمادية والأكواب الخزفية بدت شيئا بيتوتيا. رن موبايلها. توقف هانس منتصف جملة وأخذ يحدق فيها منتظرا.

- دعه يرن، قالت. كانت تخشى أن تكون ماريانا ثانية. تكاد تشعر بها تقريبا من خلال اهتزاز الموبايل الحاد.

- هيا ردي، أصرّ هانس.

- أرجوكِ اتصلي بي، جاء صوت ماريانا. أسرعت بالاتصال.

- متى تأتين إلى غامبيا ثانية؟

- ليس الآن طبعا.. ليس قريبا على العموم، شعرت نانا بالضيق.

- الوقت يمر.

- كيف حالك عزيزتي؟ قاطعتها نانا وبدت كأنها «مدرب

الحياة» المسؤول عنها.

- أنـا جائعـة، دائما جائعـة. أحلم كل ليلة بالخبـز، جبال من الخبز، أرجوكِ نانا لا تنسيني.

- ثقـي بـي ماريـاما، عليـك أن تعتمدي عليّ، جـاءت نانا على قـول ذلـك مـن دون أن تعرف ما قصدته بـ «ثقـي بي» التي طلعت من فمها من تلقاء نفسها.

- لا تنسـيني... صوت ماريـاما غرق فـي قرقرة نصف مخنوقة كأن أحدا قد وضع يده على فمها. جلست نانا بتأنيب ضمير بعد المكالمة.

وبشعور بالانزعاج من وعدها لماريـاما بشيء ليس في مقدروها أن تفـي بـه وأنهـا قـد تخلت عنهـا بمجـرد مواصلـة حياتها كأن شـيئا لـم يحدث. كانت مربكـة تماما وعادت لتتصـل ثانية لكنها لـم تحصل على خط. ضربت الأرقام ثانية وأخذت تتصل بشـكل محموم، لكنها لم تحصل إلا على صوت زمجرة مزعج كل مرة.

- هل من خطب؟ قال هانس متعاطفا.

- لا ليس تماما.. مجرد مشاكل صغيرة. كان عليها أن تسيطر على نفسها لئلا تنهار.

- آسف لسماع ذلك.

- لا أدري ما الذي يحدث معي.

- يبـدو الأمـر جديا. هانس كان قلقا حقا. أقلقتها تلك الرقة في صوته. ما الذي يريده منها؟

- لا عليـكَ، أنـا أدبّـر أمري دوما مـن دون.. لم تقـل نانا كلمة «مسـاعدة»، لـم تشـأ أن تظهـر ضعفهـا. يكفيها أنهـا بتزكية من

المجموعة قد حصلت على مدرّب حياة يساعدها على التخلص من إجهادها. على الرغم من أن التدريب هذا كان من ضمن ما هو طبيعي أكثر من كونه استثناء في طاقم «روار» للموظفين لكنه كان دوما للآخرين الذين كانت لديهم مشاكل وليس نانا. نانا لا تبكي أبدا، هذا ما اعتادت زميلاتها في المدرسة أن يمازحنها به. صورة المحيط عنها كبنت بجلد سميك غير قابلة للجرح لم تكن تتناسب مع صورتها هي عن نفسها لحيوان لين، لكنها استطاعت أن تتطابق مع حكم الصديقات لا إراديا.

بعد افتضاح أمر أصلها البيولوجي قال لها ذاك الرجل الذي كانت تناديه حتى تلك اللحظة بأبيها، متمتما بإذنها: «أنا في النهاية لست إنسانا أعلى» كنوع من اعتذار لعقمه ولنقص الشجاعة لديه ليخبرها بالحقيقة.

تبنّت منذ ذلك الحين هذا التعبير الغريب قليلا بشكله الإيجابي وكررته عدة مرات داخلها: «أنا إنسانة عليا»، حتى آمنت هي به. ما أكد ذلك هو تطورها الوظيفي ونجاحها السريع جدا. والأب الذي كانت مرتبطة به جدا احتقرته لاقتباس نيتشة العكسي. أرادت ألا تشبهه أبدا وكان عليها أن تذكّر نفسها مرارا وتكرارا بأنه لا خطر لكونه لم يكن أباها الحقيقي. بمكان ما والذي لم يكن لديها سيطرة عليه فقد أحبته لأنه كان كل ما لم تكن هي عليه.

- شكرا لمؤازرتك لي في الاجتماع، ما فكرت نانا بقوله أخيرا.

- العفو، قال هانس متلكئا. استغربت نانا طلبه اللقاء في الكافتيريا بدلا من الوقوف عند ماكينة القهوة وتبادل بضع

كلمات كما اعتادا عندما يلتقيان مصادفة. لم تكن هادئة بداخلها كما لم يكن هناك من شيء تقوله له. كان تركيزها ينصب في العمل الذي ينتظرها.

- شكرا للقهوة. قالت ونهضت.

- أنا الذي أشكركِ لاهتمامك، قال هانس برسمية ونهض. رأت نانا فجأة أنهما متشابهان، نصف بشر لهما أحد الوالدين فقط أما الثاني فقد ظل مجهول الهوية. هل يرى فيها الشيء ذاته؟ لم تجرؤ نانا على سؤاله مباشرة. لم تشأ أن تكشف عن نفسها كطفلة بالتبرع إن كان شعورها بتقاسمهما القدر هو مجرد تكهن. ولكنها لم تستطع العثور على أسباب أخرى لاهتمامه ولطفه معها. لم تكن تشجع على المغازلة أبدا في العمل ولا تتحدث إلا نادرا عن نفسها أو عما كانت تفعله خارج «المعرض الزجاجي» كما يطلق على مبنى «روار».

عادت نانا إلى مكتبها من دون قدرة على التركيز. كانت ماريّاما تدور طوال الوقت في فكرها. حالما انتهت وهي جالسة من تقدير استثمارات للمباني والنفط الخام حتى لوّنت صورتها شاشتها الداخلية بحركة يد، ابتسامة، لمسة عابرة.

تسمع بين وقت وآخر صوتها الناعم المهتز كما كان على الشاطئ في جملة ما ظلت عالقة في آذانها: «أنتِ متعهد مدرستي» «هل لديك شيء للأكل سيدتي؟». ظنت نانا أنها ستخلي رأسها من مارياما بمرور الوقت حين تصير ذكريات العطلة على مسافة ولكن مارياما وعلى العكس من حساباتها ظلت عالقة في فكرها.

لم تأخذ نانا عطلة منذ سنوات. سافرت كثيرا عبر عملها، جزء

في زيارة للعملاء، وجزء في اجتماعات في فرع «روار» لندن وفروع أخـرى في أوروبا وخارجها إلى حد أنهـا لم تقو على حزم حقيبة سفر. إن صادف استثناء أن سافرتْ في عطلة كان العمل دائما في حقيبتهـا. ربما لم تكن تحتمل السـفر فـي عطلة من دون اتصال بالبريد والموبايل مع «روار». ربما هو انعدام الوزن غير المعتاد الذي جعلها على الأخص سريعة التأثر بانطباعات جديدة وساهم في أنها سمحت بحدوث هذا التأثير عليها.

ألفـت نانا نفسـها في حالة من الشـلل. لم تسـتطع الاتصال بماريامـا فقـد كان موبايلهـا كمـا يبـدو ميتـا. حاولـت أكثر من مـرة تحويـل مبلغ من المال إلى حسـاب الخالـة روزي معنون إلى «ماريامـا»، ولكن الحساب لم يعد له وجود والمبلغ قد تم رفضه. هذا القلق السـلبي قد اختزل وقتها إلـى وقت انتظار. كانت منزعجة من نفسـها والضعف الذي تسـلل إليها مع مارياما وهذا الخوف العاطفـي والتوجس الـذي رافقها. لم تكن قد واجهت ثايس بعد بتبعـات ماريامـا. أوشـكت أكثر من مرة أن تفصـح عن اختناقاتها ولكنهـا أحجمت. كان من شـديد الإحراج أن تكون إنسـانة غريبة جـدا، تعيسـة علـى الشـاطئ قد أثّـرت فيهـا وحرّكت مشـاعرها بشـدة. كان العمل الخيري ولا شـك تقليعة حلّت موضتها وعمل منظمات المسـاعدات قد هيمن على التلفزيون لكنها لم تسـتطع إنقاذ ماريامـا.

هنا كانت المسـافة بينهما كبيرة، ليس جغرافيا فقط بل ذهنيا أيضا وثقافيا. منطلقاتهما كانت مختلفة، كما فكّرت بداخلها.

كانت آخر جلسـة لنانا مع ثايس بشـأن الوقايـة من الإجهاد.

هـي بصـدد تقييم الفتـرة وأخذ قـرار فيما إذا كانـت بحاجة إلى الاسـتمرار. بـدأ ثايـس متفائلا بالقول إن نانا قـد تقدمت كثيرا وقد عادت تعمل بطبيعية. يمكنها الطيران وحدها الآن ولا تحتاج إلا إلى متابعة بسـيطة. كانا موجودين في صف تدريس لشخص واحـد تقريبا مع سـبورة تسـتند إلى دعامتين. نظـر ثايس إليها بهـدوء منتظرا. ثم تناول القلم واسـتدار إلى السـبورة البيضاء. بطنـه الكبيـر كان محبوسـا داخل القميص المشـدود والمسـافات المفتوحة بين الأزرار.

- دعينـا نلخص... موضوعـك قبل العطلة كان...؟ قال ثايس يساعدها لتشرع في الحديث.

- أن أنظّم عمل يومي بشكل أفضل.

- كيف؟

- أن أقسّم الوقت إلى حقول محددة مع تركيز تام على الحقل الواحد لكل مرة.

- وما أهمية ذلك بالنسبة إليكِ؟

- لأنـي أريـد ان أقـدم أقصى ما لـديّ. أن أعطـي «روار» كل ما عندي.

- هل هناك من شـيء أهم في حياتكِ من «روار»؟ وضع ثايس بطاقة لاصقة على السبورة مكتوبا عليها: «روار».

- لا. فكـرت نانـا طويـلا. انتظـر ثايـس بصبر على السـبورة البيضاء.

- أليس كذلك؟ وسـأكرر لك القول إنك لسـت الوحيدة، قالها ليشجعها.

- بلى.. ربما.

- ربما؟ كان لدى ثايس كما يبدو الوقت كله لها. أحجمت نانا. كان الخوف رابضا يلمع في الظلمة عميقا بداخلها.

- ضوء غريب، قالت وعصرت عينيها. نظر إليها ثايس باستغراب.

- هذا ليس موقف علاج، قال محذرا. كان حرفيا وبأدواته يكسر الأساسات الحديدية التعبة ويصب أساسات جديدة أكثر منها مناسبة.

- أعرف تماما، قالت نانا بانزعاج من تلقينها.

- هل لديك مواضيع أخرى أو؟ تابع بفاعلية.

- دعني أفكر.

- فكري بصوت عال.

- لا، لنترك الأمر. لا تعتقد نانا أن مارياما تعود إلى العيادة هذه حيث تُعاد الحيوانات العاملة المحترقة بسبب العمل إلى حظائرها.

- ما الذي تسقطينه؟ أصرّ ثايس.

- لا، لا أستطيع. ودت نانا بشدة لو نهضت من المقعد الجلدي وهربت من الصفّ، ومن حياتها.

- لا أحد يجبرك على شيء أنت لا ترغبين فيه. جلس ثايس على المقعد المائل إلى اليسار مقابلا لها. كانت تنبعث منه رائحة عرق خفيفة.

- أعرف جيدا. كانت نانا مترددة ومتعثرة.

- ولكن يمكننا أن نحرّك بعض البيادق من أمكنتها ضمن

مـدى وقـت مقدور عليـه، قال ثايس الـذي يتعين عليـه أن يقدم نتيجة لـ «روار».

- وأنا متهيئة لذلك، قالت نانا ولكنها كانت تعلم أن من شـأن أي جواب حذر لها عن أسـئلة ثايس البسـيطة أن تكون له تبعات غير محسوبة يمكن أن تقلب حياتها رأسا على عقب.

- لست بقصد مطاردتك، قال ثايس بتربوية.

- أنا مضطربة، اعترفت نانا.

- إنهـا البداية. وضع ثايس سـاقا على سـاق توازنا مع نفسـه كما يبدو.

- ليس لأنني لا أريد.. المواصلة. قالت نانا بتردد.

بقي ثايس منتظرا.

- لا يمكـن التوفيق بينهما، هناك مسـافة كبيـرة جدا، أكملت نانا.

- ما الذي لا يمكن التوفيق فيه ولماذا؟ قاطع ثايس.

- لم يكن سفر عطلة عادية.

- لا، كان للوقايـة من الإجهاد النفسـي، ما المشـكلة تحديدا؟ واصل ثايس مرتبكا.

- العمل يأخذ كل شيء.

- لا مجال لشـيء آخر؟ اقترح وقد شعر بتورط عاطفي خلف إشاراتها الملتبسة.

- أو على العكس أيضا... ربما. نانا لم تستطع أن تبلور فكرتها.

- ما هو الأهم؟ سأل ثايس، ونانا مطالبة بالإجابة عن سؤاله.

- بطريقة أخرى ما الذي يعني لك أكثر؟

- لا فرق.

- عليك أن تتولي القيادة بنفسك. ما الذي تريدينه؟ نهض ثايس وتوجه إلى السبورة وثبّت بطاقة ثالثة عليها. شلّها سؤاله.

- لديكِ احتمالان: أن تختاري أحدهما، حيث لا يمكن التوفيق بينهما، أو أن تحاولي تجاوزهما كليهما.

- لا أستطيع.

- ما الذي لا تستطيعينه؟

- تجاوزهما كليهما.

- إذن عليك أن تختاري.

- لا أستطيع. ألمّ بنانا شعور بالاختناق.

- حاولي، إن كنت تستطيعين تحديد المشكلة، قالها بروتينية.

- أريد الاثنين معا ولكن هذا مستحيل.

- لماذا مستحيل؟

- لا مكان له هنا. أشارت نانا إلى صدغها.

- هل هناك ما تريدين تغييره في حياتك العملية لتحصلي على مكان ووقت لتعملي شيئا خارج «روار».

- أما أو.. فقدت نانا صوتها.

- أي نتيجة انتهيت إليها؟

- لا يمكنني الاستغناء عن «روار».

- حسنا، هذا هو منطلقنا. وضع ثايس بطاقة أخرى على السبورة. لقد نال أولا ما تريده «روار» ويريده هو.

- منطلق؟ حدقت نانا في وجهه.

- أنتِ اخترتِ «روار»، أوضح لها.

- أنا لم أقل ذلك، قالت. استدار ثايس ورمقها بنظرة.

- أنتِ اخترتِ «روار»، ظل يقول ولصق بطاقة أخرى على السبورة.

- تجري الأمور أسرع من تمكني من اللحاق بها. همّت نانا بالنهوض من مقعدها.

- دعينا نبدأ من جديد. كيف يمكنكِ وصف علاقتكِ بـ «روار»؟ قال ثايس بصبر محترف.

- «روار» هي عائلتي التي أستمدّ الحب والدفء منها.

- وما الذي تحصل عليه «روار» في المقابل؟

- روحي.

- هذا كثير. بدا ثايس غير مقتنع بجوابها.

- هل لكِ أن تقرّبيه أكثر؟

- محللو الأعمال يزعمون أن علية القوم في شركة ما هم العبيد العصريون. طرحت نانا أول ما خطر ببالها، مقتطفات من مقال قرأته في الطيارة أثناء عودتها من اجتماع في لندن.

- استعباد. تكسر صوت نانا. أدار ثايس لها عصير البيلسان. وضعت القدح في حامله على ذراع الكرسي من دون أن تشرب وانخرطت في البكاء.

لم تكن هي المرة الأولى التي تنثال فيها دموعها في الصف المدرسي. حتى الموظفون مدبوغو الجلد، الذين لهم خبرة معتقة وقيم قديمة لا يتزحزحون عنها، يمكن أن يصيبهم ضعف. لذا جرت دموع نانا. ناولها ثايس علبة المناديل الورقية وتركها حتى هدأت نوبة بكائها.

حرّك أمكنة البطاقات على السبورة وانتظر حتى تستعد ثانية وجلس على حافة طاولة من خشب البندق.

- هل يمكنك توضيح ما حصل؟ نظر ثايس بخفية إلى ساعته.

- كانت الكلمة unternehmenskneche[*] التي أصابتني.

كان وجه نانا متورما بسبب البكاء.

- اطمئني، سيأتيك الحل.

- لا أجد مخرجا، تنهنهت.

- من أين وإلى أين؟ نظر إليها ثايس يحفزها على الإجابة.

- آسفة، ماذا قلتُ؟ لم تتذكر ما قالته قبل قليل. لم تكن على اتصال بالجسد الجالس على المقعد الجلدي الأسود.

- سمعتكِ تقولين إنك لا تجدين مخرجا. أين تضعين إذن «روار» في الصورة؟

- هنا لا يمكن وضع شيء بجانب أو فوق «روار».

- عدنا إذن إلى البداية. هل يمكنك أن تنظمي وقت عملك بشكل أفضل، أكثر نفعا من شأنه أن يمكنك من الفوز بالوقت لشيء آخر يكون مهما في حياتكِ؟ قال لها بتأكيد خاص على «الآخر».

- لقد صرت تلك الصغيرة، قالت. نظر لها ثايس وهو يركّز بنظره عليها.

- ما تقولينه هذا مهم. وضع ثايس بطاقة أخرى على السبورة.

- لم أكن قادرة على فصل «روار» عني. ذبنا معا، قالت بهدوء.

- تتحدثين فجأة في الماضي، أين تتوجهين؟ قاطعها ثايس.

(*) استعباد.

- أرى كل شيء أكثر من فوق، أكدت.

- ما الذي حصل لك؟ قال ثايس بإعجاب.

- لا أدري. خفّ الضباب، قالت.

- هكذا إذن. جلس ثايس ثانية على حافة الطاولة.

- حان وقت سيجارة الآن كما كنا نفعل سابقا. شعرت نانا على غير العادة بأنها خفيفة.

لم يعد ثايس من الخصوم بل من رفاق الاتحاد.

- شكرا للدعوة، قال واصطنع حركة يعبّ فيها سيجارة.

- كان تركيزي خاطئا.

- هل يمكنك وصفه بشكل أدق؟ قال لها.

- كنت أحدّق بعمى مثل ضرير، كمن ينظر إلى الشمس ويفقد بصره.

- مَن أو ماذا تمثّل الشمس؟ سألها.

- واضحة...

- عليك قولها.

- حسنا، «روار»، لا أظن أني أفهم شيئا، وتنهدت.

- ومَن منا يمكنه ذلك عندما يدور الأمر حول معرفة أنفسنا، قال ثايس.

- لقد قيدت نفسي بالعمل. كانت مصدومة بسبب تصورها أنها شخص لا يمكن الاستغناء عنه والذي أغواها إلى هذه الدرجة (خالدة).

- لعل زملائي يرونني في قمة الغباء، واصلت.

- ولم يعنيكِ ما يفكرون فيه؟

- إنهم مقياسي.

- وفق أية وحدة؟

- أن تكون دائما في القمة، لديك دائما ٣٦٠ درجة من أفق دائري ولا تغفل للحظة.

- دعينا نلتق بعد أسبوعين لجلسة متابعة في الوقت نفسه والمكان. دوّن ثايس ذلك في مفكرته الإلكترونية. نهضت نانا من مكانها.

قبل ظهر اليوم التالي اتصلت الخالة روزي أثناء اجتماع مع شركاء من فرع زيوريخ لـ «روار». تحدثت الخالة روزي بصوت عال وتيار جارف.

- اتصلي بي، الأمر مستعجل، كان أول ما سمعته نانا بوضوح تبعها انقطاع مفاجيء.

وضعت كل الاعتبارات جانبا وهبت خارجة إلى الممر لتتصل.

- سيئ جدا، سيئ جدا، سمعت صوت روزي.

- ما هو السيئ، خالة روزي؟

- كل شيء.

- كيف حال ماريباما؟

- إنها بخير.

- هل تسكن عندك؟

- بالطبع.

- هل بإمكاني التحدث معها؟

- سيئ جدا جدا، كررت روزي.

- ما المشكلة روزي؟

- نحن بحاجة إلى عشرة آلاف دالاسي.

- كيف؟

- لشهادة تخرج ماریاما.

- هل هي بخير؟

- شهادة تخرجها تكلّف عشرة آلاف دالاسي، من غيرها لا يمكن أن تحصل على عمل. مست روزي نقطة ساخنة.

- ولكن هي حقا... هل أنهت دراستها؟

- اسمعي، لقد فقدت شغلي في البنك. لديّ عائلة كبيرة أعيلها وفوقها مدرسة ماریاما. بإمكانك إرسال النقود عبر الـ «ويسترن يونيان»، لدينا «ويسترن يونيان» في غامبيا.

- كم يقابل ذلك باليورو؟

- يمكن لـ «ويسترن يونيان» إبلاغكِ عن قيمة العملة. هذه آخر مكالمة. حياة أو موت.

- ماذا تقصدين؟

- اتصلي بي عندما تنتهين من «ويسترن يونيان» لتعطيني رقم الحوالة، لتتمكن ماریاما من تسلم المبلغ. شحَبَ صوت الخالة روزي.

ارتياح نانا لحصولها على اتصال من طرف ماریاما ظلله إنذار روزي «حياة أو موت». شعرت بأنها تقف خلف ستار وكان عليها أن تحدس.

كانت تخشى أن تستخدم العشرة آلاف دالاسي لشيء آخر أكثر خطورة بكثير من شهادة امتحان (التي مازالت غير مصدقة قصتها). فجأة شعرت نانا بالامتنان لحقيقة أن المال لم يكن

مشكلة بالنسبة إليها، أنها تسمح لنفسها بمشاركتهم إياه. لم تكن تنظـر إلى وضعها المادي بهذا المنظور من قبل إطلاقا. لقد دفعت مرة بمبلغ أكبر إلى منظمة مكافحة السـرطان. ليس لأنها تريد أن تكون خيرة ولا لأنها كانت تخشـى أن يصيبها السـرطان ولكن لكي تتخلص من المكالمات الملحة على الموبايل. بالطريقة نفسـها أوقفـت عاصفـة التليفونـات الشرسـة لنقابـة حمايـة الطبيعة. أسـرعت بالعودة إلى غرفة الاجتماعات واعتذرت لاضطرارها إلى ترك الاجتماع.

عثـرت علـى «ويسـتيرن يونيان» على النت واسـتقلت تاكسـي إلـى منطقـة النورابرو. كانت هناك لوحـة مهلهلة على الرصيف تحوي أسعار العملات لليوم. على باب المدخل ألصق إعلان رسمي «الشـرطة تقوم بحراسـة شـديدة لهذا المكتب». لم يكن هناك من زبائن غيرها. ظلت واقفة وقد شـعرت بأنها مرئية بشكل أكثر من اللازم في هذا المحل المستهلك.

– هل من خدمة؟ انطلق صوت مكسر من النضد حيث يجلس رجـلان خلـف الزجاج كلٌ فـي قمارته. تقدمت نانا إلى الشـخص الذي وجه لها السؤال.

– هل بإمكاني إرسال نقود إلى غامبيا؟

– نحـن نقـوم بتحويـل النقود إلـى جميع أنحـاء العالم ومن دون رسوم لكل العملات. يمكن تسلم المبلغ بعد دقيقتين من أحد فروعنا في البلد المعني.

– كيف؟ قاطعته مرتبكة. لم تعتد أن تكون الطرف المستضعف. ناولها الشاب اللطيف استمارة.

- تذكرين اسم المستلم. إن لم يكن لدى الشخص هوية إثبات شخصية، اكتبي في المربع هنا سؤالا يمكن للمعني الإجابة عنه ليحصل على المبلغ.

- سؤال ما؟ سألت مستوضحة.

- ما تقررينه. عاد الشاب إلى الحديث مع الرجل إلى جانبه، رجل متقدم في السن بقبة رأس صلعاء وبدلة رجالية لمعت لبلوها.

كانت نانا متحمسة لإرسال النقود بأسرع وقت. روزي والـ «حياة أم موت» دارت في رأسها مثل حلقة. لم يكن من السهل عليها أن تركّز في بيئة لم تعتدها حيث ما حولها هزيل شعرت به مثل اتهام ضدها. أخيرا كتبت السؤال: كم عمري؟ الجواب ٤٣. دفعت ٣٠٠ يورو وحصلت على وصل استلام. لم تكن مقتنعة بسؤالها. كان ذلك ساذجا ولكنها لم تجد أفضل منه.

جلست في مقهى قريب لتتصل بروزي وتعطيها الجواب لماريام لتتمكن من تسلم المبلغ. فكرت نانا أن عيد ميلادها قد اقترب وعليها أن تدعو زملاءها المقربين وجيرانها لحفل كوكتيل. المجموعة المصغرة الضيقة ذاتها. في المناسبات الخاصة لم تكن تستطيع أن توجد مع الكثير من الناس من حولها مرة واحدة. لا يزعجها من ناحية العمل أن تحضر مؤتمرات مع المئات.

اتصلت بروزي. تكاد لا تستطيع التكلم. كانت متوترة، تخشى أن تسيء روزي فهمها فتتعثر الأمور ولا تستطيع ماريام في هذه الحالة تسلم النقود. أكدت جوابها بشدة لروزي.

- الجواب الصحيح هو ٤٣، فهمتِ... فورتي- ثري، كررت.

- نعـم، فورتــي - ثــري، أنت تتكلمــين مثل طفـل، قالت روزي بتعالٍ.

- أريد التحدث مع ماريـاما، أصرت نانا بقولها.

- إنها على الشاطئ. اتصلي بي بعد بضع ساعات.

- قولي لها إنها ليســت بحاجة إلى إثباتات شـخصية مادامت تعرف الجواب.

- نعم، نعم أعرف، قالت روزي بنفاد صبر.

- سأعود لأتصل. استسلمت نانا.

- شكرا جزيلا. وأقفلت روزي السماعة.

احتاجت نانا إلى الحركة بعد المكالمة المثيرة للأعصاب. قطعت الطريق مشـيا عبر سـاحة البلدية، عبر جسر اللانك برو وطوال منطقة بروكن إلى «جيميني ريزيدانس». انزلقت بطاقة الدخول على عمود الباب لينفتح إلى مدخل المصعد. كانت تشعر بالأمان في سكنها في صومعة الحبوب المراقبة بالكاميرات. دخلت شقتها يخامرها شعور طيب. أدارت لها الشراب مضاعفا وخرجت به إلى الشـرفة. لم يمر على انتقالها للسكن هنا أكثر من ثمانية شهور. كان الأمر الحاسـم في اختيارها لسـكن خـاص جديد هو رغبتها في الإقامة قريبا من محل عملها.

لا يأخـذ الطريـق مـن الصومعة إلـى العمل أكثـر من خمس دقائق على الدراجة أو ربع سـاعة مشـيا على الأقدام. كانت ترتاح لترك «البورش» في موقف القبو للمشـاوير القصيرة من أجل أن تكون بصحة ولياقة تامة وبضمير مرتاح بالنظر إلى البيئة. الميزة الإضافيـة فيما يخص شـقتها الجديدة لم يكـن قربها فقط من

محل عملها بل كذلك من كازينو كوبنهاجن، حيث تزجي الليالي التي يضايقها فيها الأرق. التوتر الذي يخلقه الروليت كان من شأنه أن يقمع كل المشاكل المتعلقة بالعمل التي تعلق برأسها.

اقتنص نظرها فجأة مكان جمع المخلفات بثلاثة جبال مدورة من القمامة والذي وقع منتصف المنظر مثل نداء صامت. استغربت أمر عدم انتباهها إلى ذلك من قبل. هل كانت المباني الجديدة التي تطل على القناة قد امتدت إلى مكان جمع المخلفات عندما كانت غائبة؟ أم أنها أخذت ترى النفايات في كل مكان. تقبلت الحال كون المخلفات كانت مصففة بشكل جيد ومصنفة وفق نظام مدروس، وأن المكان كان على مسافة لا تصل لها بذلك إزعاجات روائحها. مواقع البناء من حولها والرافعات التي تشبه ليلا الديناصورات الصغيرة كانت بمنزلة رهن عقاري للنمو والتطور.

كل ما حولها كان يشير إلى نظام لا يتواءم مع الاضطراب في داخلها.

أدارت لها كأسا إضافية. لم تعلم بالضبط إن كانت شهادة تخرج ماريامـا (التي لم تزل غير مصدقة بها)، موقفا طارئا عاجلا، تسديد دين، أم أمرا ثالثا قد شاركت فيه، ولكن عليها أن تتقبل الأمر. لقد صارت أخيرا فردا من أفراد العائلة (في دوره المتواضع مثل ذاك العم الغني من أمريكا)، وعليها أن تتبع قوانين اللعبة. لم تستطع أن تحسم بداخلها إن كانت ماريامـا بركة أم لعنة. ربما لم يكن الفرق كبيرا.

رن الموبايل عاليا. ركضت من حولها في الشقة، فلم تكن لديها

فكـرة عـن المكان الـذي وضعتـه فيه. تبعهـا صمت يصـم الآذان. واصلـت بحثهـا وقد صـارت أكثر يقينا فـي أن ماريامـا هي التي اتصلـت. عثـرت على الموبايـل أخيرا تحت الطاولـة الصغيرة. لم يكن هناك رقم على الشاشـة. اتصلت بروزي وسـألت عن مارياما ولكنهـا لم تكن قـد عادت بعد من الشـاطئ. اسـتنتجت مرتاحة أن ماريامـا لـم تكن المتصلة وأنهت بعجلـة الحديث مع روزي. رنّ الموبايل ثانية. أخذته من دون أن تنظر على شاشته.

- أين صرتِ؟ صوت هانس المعروف بدا متضايقا.

- أنا... لم يكن لديها ما تقوله.

- تم الاسـتدعاء إلـى اجتمـاع جديـد ولـم يكن فـي مقدورنا اتخاذ قرار من دونكِ.

- عذرا لأني ضيعت وقتكم، قالت وهي مستغربة لامبالاتها.

- قولي لي، هل أنتِ سكرانة؟

- ليـس مـن السـهل خداعكَ، لاطفتـه وهي تفـرغ الكأس في جوفها.

- نانا هذه ليست أنتِ. هل أستطيع مساعدتكِ؟

- أفضل أن أكون وحيدة مع ...

- مع ماذا؟

- ...حالتي الروحية.

- هناك استدعاء جديد لعقد اجتماع. هل لديك وقت يوم ١٤ الساعة الواحدة والنصف؟

- أنا آسفة..

- حقا؟

- كان الأمر مهما.

- أكثر أهمية من موعد اجتماع قد تم تحديده قبل شهور مسبقا مع عملائنا السويسريين؟

- الموت وحده هو السبب المقبول. ألم يكن ذلك ما اعتدنا قوله؟ كانت نانا قد تداعت.

- يجب أن تحصلي على مساعدة اختصاصي، قال لها هانس بحذر.

- هذه ليست قضية تخصص، ردّته رافضة.

- نلتقي على العموم غدا؟ قال برسمية.

- هل هناك من شيء خاص غدا؟

- عليك أن تري بنفسك. قاطعها هانس.

كانت نانا قلقة مخافة أن تكون ماريانا قد اتصلت بينما كانت هي تتحدث مع هانس فأسرعت للاتصال. لم تكن متأكدة إن كان رقم ماريانا أم روزي الذي طلبته.

- «شكرا، شكرا لك كثيرا»... ولكني مستاءة منك، صرخت ماريانا في الهاتف.

- مستاءة؟

- لم ترسلي عشرة آلاف دالاسي، لقد أرسلت ثمانية آلاف وخمسمائة دالاسي.

- عفوا، لا بد أنه سعر الصرف.

- أنا جد مستاءة، تنهدت ماريانا.

- ليس لديّ وقت لفعل شيء لا الغد ولا بعده. عليك أن تفهمي أن لديّ عملا مهما يأخذ كل وقتي.

- «ويسترين يونيان» يعمل ٢٤ ساعة، أدلت مارياما.
- آسفة جدا، سأرسل لك المتبقي من المبلغ بأسرع ما يمكنني.
- سيكون ذلك متأخرا.
- ما الغرض، بالتحديد، الذي ستستخدمين النقود لأجله؟
- لقد أخبرتك عدة مرات.
- لا عليكِ إلا أن تخبري إدارة المدرسة بأنهم سيحصلون على بقية المبلغ لشهادة التخرج. لقد اشتركت نانا في مسرحية ادعت فيها جهلها أنهم حين يتحدثون عن تكاليف المدرسة إنما يتحدثون عن شيء آخر، كأن مارياما لم تعرف أنها تعرف تماما. لِمَ كانت ضعيفة جدا أمامها؟ لِمَ كانت غير قادرة على الإدلاء برأيها لتطالب بحق المتعهد في معرفة أين تذهب النقود التي تدفعها؟
- أنا لا أستطيع إخبار المدرسة عن النقود.
- يمكنكِ إذن أن تخبريني عن الحقيقة بدلا من ذلك.
- لا أعرف شيئا عن الحقيقة، اشتكت مارياما. انقطع الاتصال. اتصلت نانا مرة ثانية فأجابها ذلك الطنين المثير للأعصاب تبعه صوت رسمي «الرقم المطلوب الذي تتصل به إما مغلق أو خارج منطقة التغطية».

يقظة نانا المباغتة الحادة أشرت إلى أن تأثير الحبوب المنومة قد بطل. انتصبت الشمس عاليا في السماء. كان اليوم هو السبت. لقد قررت أن تتوجه إلى «روار» من أجل أن تعمل بهدوء وسلام لتقلّص حجم العمل المتراكم من مخلفات العطلة التي كانت حقيقة بمنزلة كورس في تمرين الصراع على البقاء. في طريقها

في الخروج تذكرت أنها لم تفرغ صندوق بريدها وعندما فتحته انهارت عليها الإعلانات والجرائد المحلية ومظروف بريدي جوي مبطن بالخط العاجز والمميز حطّ على الأرضية الأسمنتية عند مدخل المصعد قرب قدميها تماما. تحركت التوجسات داخل نانا. فضت المظروف. كانت الرسالة مكتوبة على ورقة انتزعت من دفتر مسطّر.

بداخلها كان سوار من البلاستيك بألوان صارخة وقلادة سوداء من اللؤلؤ مع حرز، صدفة بيضاء ملصقة على قطعة جلد. بدا كل ما في الظرف مصنوعا من قبل أطفال روضة ما.

قرأت نانا الرسالة المختصرة. «ماي نانا» أفتقدكِ، أنتِ أملي. البيزنس كالمعتاد. مارياما. اتخذت نانا من هذه الالتفاتة المؤثرة إثباتا لولاء مارياما لها. كم كلّفها من جهد في سبيل العثور على طابع ومظروف من أجل أن ترسل الرسالة من البريد في سيرا كوندا الذي كان مثل بركان يغلي في ذاكرة نانا عبر سفرتها والتي سرعان ما أخذت ذكرياتها بالشحوب. أعادت الحلي البلاستك إلى المظروف وصعدت إلى أعلى بالمصعد ثانية. كانت تود أن تخفي المظروف مع الحلي الثمينة في صندوق مجوهراتها. تلك الهدايا الصغيرة من مارياما بدت لها أغلى بكثير من محتويات الصندوق أجمعها.

عندما دخلت نانا صالة المكاتب الكبيرة كان هانس جالسا مسبقا في مكانه. لم يكن هناك أحد غيرهما، كان المكان كله لهما. الأغلبية يعملون أثناء العطل الأسبوعية في بيوتهم. لم تشأ نانا أن تزعجه واكتفت بالتلويح له. توجهت لجلب كوب من

القهوة تسحق فيه بقايا الحبوب المنومة وتصحو. انضم هانس إليها. صارت ماكينة القهوة ملاذا وعذرا لأخذ استراحة.

- ما الذي تقوله لك عائلتك وأنت تعمل في العطلة بدلا من السفر مع الأطفال إلى ديزني لاند؟ خرجت الكلمات من دون تفكير من فم نانا. الرسالة مع الحلي المصنّعة باليد قد ألانت قلبها.

- ليست لي لا عائلة ولا أطفال، قالها باقتضاب وبتعبير مجروح في وجهه مما يؤكد لها أنهما من المحتمل أن يكونا من نفس النوع. هذه الحلقة غير المرئية التي يحيط نفسه بها، وإشارة الميموزا تلك التي تقول «لا تلمسني» كانت منذ المرة الأولى التي تعارفا فيها قد أيقظت فيها تعاطفا وقدرة على تمييزها.

أربكتها نظرته الشاكية. لم تعرف ما هو تفسيرها غير حدسها بدافع أناني أنه هو الآخر كان طفل تبرع يخفي الحقيقة مثلها منذ زمن. أم أنه ببساطة تعبير عن غضب رجل مرفوض؟ هل يكنّ لها شعورا من دون أن تتنبه له؟ هل غرقت في التفاصيل ولم تر ما أمامها؟ هل أضاعت على نفسها فرصة الارتباط بأحد؟ تود أن تصلح الأمر بينهما، أن تكلمه بلطف، أن تظهر اهتماما بشخصه. كل ما لم يكن من طبيعتها، ولكن عليها أن تذكر نفسها على الدوام به وتقرر القيام به كتعويض لنقص في تربيتها، أو كعطل وراثي في وظيفة الدماغ.

- ذلك يمنح حريات معينة، حاولتْ بنغمة خفيفة. نظر هانس إليها مستفهما.

- أن تكون أنت نفسك من دون التزامات عائلية، أضافت.

- نحن نعطي الأولوية في هذا للحرية، ندفع بامتنان تكلفتها.

ابتسم هانس لها. له أسنان جميلة. انتاب نانا الارتباك لأنها تخشى أن يعتقد أنها كانت تحرّض لحميمية لم تكن مستعدة لها. كان وضعها تحت ضغط لا يمكنها من الإحاطة بعلاقة جديدة الآن. أثناء فترة الدراسة كانت قد جرّبت التبتّل. الزهد كان في مرحلة ما من المراحل على الموضة تم استخدامه كطريقة لتفوق أعلى في الامتحانات. ولكن في الفترة خلال عملها في «روار» كانت لديها علاقات عابرة كثيرة جدا وقد بدأت بالتفكير في شيء أكثر ثباتا ودواما شرط أن يكون ضمن اختياراتها حيث إنها قد قررت منذ بدء مشوار عملها ألا تنجب أطفالا.

- يستغرب المرء أمر أننا نحن عشاق الحرية نربط أنفسنا عبيدا للعمل ونسجن أنفسنا داخل أقفاص الزجاج، قال هانس بسخرية محاورا إياها وقد عبّر عن الأفكار التي عبرّت عنها عند ثايس والتي كانت جديدة بالنسبة إليها وأفزعتها.

أتت نانا لارتباكها على قلب الكوب الورقي من ماكينة القهوة محدّقة بشلل في اللطخة المبللة على تنورتها وبركة القهوة الصغيرة عند مقدمة حذائها. انحنى هانس والتقط الكوب ورماه في سلة القمامة وجاء بمناديل ورقية ليجفّف القهوة.

- لا مشكلة، قالها بجفاف.

- هذا ليس يوم سعدي بالتأكيد. نظرت نانا إلى نفسها. ناولها هانس كوبا جديدا.

- شكرا، أنا... أنتَ جدا.. كانت نانا توشك على القول «طيب» ولكنها رمقته بنظرة امتنان بدلا من ذلك. هل كان حقا مهتما

بها، أم أنها تربيتة استثنائية بطبيعة محبة للمساعدة وبمراعاة شهمة؟

- لا شيء ذا بال. كان هانس يهمّ بالعودة إلى مكانه ثانية.

- هانس، انتظر، قالت نانا. توقف هانس واستدار نحوها.

- وددت فقط أن أقول إنني سعيدة لـ...أننا... يمكن أن نلتقي هكذا. توقفت نانا.

- أليس هناك من شيء آخر تودين قوله؟ قال لها ممازحا.

- ليس الآن.. لاحقا. شعرت نانا بأنها حوصرت في زاوية.

- عندي وقت كاف، قالها بحنان وواصل إلى صالة المكاتب الكبيرة. رغبت في الركض إليه ولكنها أحجمت.

كانت تقاطع عمل نانا خيالات حول شاطيء السياح، حيث تعمل ماريانا عند روزي معرضة لشهوات السياح الدافئة، ولا مكان لتنام فيه، ولا طعام تأكله غير ما تمدّه بها طاولة روزي. لكي تتخلص من خوفها الكابوسي اتصلت بتناوب بأرقام روزي وماريانا. اتصلت ما يقرب من عشر إلى خمس عشرة مرة من دون أن تحصل على خط اتصال. كانت تشعر بهانس وهو جالس يراقبها. استغرب إلحاحها المفرط في اتصالاتها التي صرفت عليها وقتا أطول مما صرفته على الشاشة. خشيت أن يأتي ويسألها إن كانت بحاجة إلى مساعدة.

أخيرا حصلت على اتصال.

كان في الخلفية صوت ضجيج محرك، فرملة قوية وصرير إطارات كأن صاحب الموبايل يوجد في تقاطع طرق من دون تنظيم مروري. تنشقت النبض السريع، الإيقاعات، الألوان

القويـة، الحـرارة، الطاقة، الأجساد، أولها الأجسـاد. هي لا تريد العـودة إلـى مقاتلة الرعب. الرعب خلف الأشـياء، تحت سـجادة العشـب الكـث، مخفيا بين الأشـجار والنباتـات، الرعب من عالم الأرواح، العالم اللامادي اللامرئي خلف المرئي. اسـتمر الضجيج مـن دون انقطـاع ومـن دون أن يحدث المزيد. يئسـت نانا وقطعت الاتصـال. قـدّرت احتماليـة أن يكون هناك انقطـاع في التغطية داخل مبنى «روار» ونهضت لتتوجه خارجا.

فـي اللحظـة ذاتها رن الموبايـل بمقطوعة بيتهوفن التاسـعة. سـمعت نانا مارياما بصفاء ووضوح كأنها قد وقفت أمامها تماما حيث مكتبها.

- أرجـوك اتصلي بـي الآن، صاحت ماريامـا تبعها صمت حثّ نانا على الاتصال لكي تسجل المكالمة على حسابها.

- متـى تأتـين لتأخذيني؟ كان صوت مارياما في الموبايل عاليا وصارخا كأنها كانت تخشى ألا يصلها.

- ما الذي تقصدينه؟

- أنتِ وعدتِ أن تأخذيني إلى أوروبا، تذكرين؟

- لا لا ماريامـا لقد أخبرتك بأن ذلك غير ممكن قطعا، قالت نانا بحسـم وتصميم ولكنهـا لا تنكر أنها في لحظة ضعف هناك تحـت الحـرارة الاسـتوائية تركـت لنفسـها أن تنجـرف مـع حلم مارياما.

- لا أريـد أن أكـون هناك بصفة غير شـرعية. أريد جواز سـفر عاديا وسـفرة طبيعية لبلدك، صرخت باسـتماتة متجنبة سـماع اعتراضات نانا.

- اسمعي، أنا أريد مساعدتك كثيرا ولكن في بلدكِ. كان هذا هو الاتفاق. تملكت نانا الرغبة في رمي الموبايل بعيدا.

- بإمكان الرجل الكبير أن يستحصل على أوراق رسمية شرعية... اتصلي بي لاحقا. تحول صوت ماريااما فجأة إلى همس. انقطع الاتصال. كانت نانا على يقين بأن روزي كانت لصقها تراقبها. تناولت قرصا من ديازيام (اشترته عبر النت) مع جرعة ماء. لم يعد العمل وحده الذي يضعها في حافة الانفجار. يأس ماريااما شكل ضغطا كبيرا أيضا عليها. كل ما قالته الطفلة سرى في داخلها كتكهنات وتنبؤات منذرة. تذكرت أدق التفاصيل في جمل ماريااما المبتسرة وإشاراتها الغامضة التي تفتح في كل مرة هوة جديدة. لم تعرف نانا ما يمكن فعله لها. لو كانت في ذلك الوقت على الشاطئ تلمّ بتبعات الأمر لما تواصلت معها، بل ولا تورطت بأنصاف وعود معها. لماذا تستميت من أجل أن تبتعد؟ لِمَ هذه الـ «يكاد الوقت ينتهي»؟

ربما كان الحل في مساعدة ماريااما للمجيء إلى أوروبا قبل أن يصلها إخطار بأنها صارت الزوجة رقم ثلاثة لواحد من أخوالها تحت اسم الرجل الكبير. بعد لحظة تأرجح عادت نانا ثانية وفكرت أن من الأفضل أن تمول دراستها في بلدها الذي تنتمي إليه وحيث تكون مع عائلتها. ولكن أفق أنها ستعيش مع شك مستمر فيما لو كانت النقود ستنفق لمصلحة ماريااما وأن تعاني من الخوف لمصيرها كان غير محتمل. كأنها لن تستطيع التخلص منها. مجرد سماع صوتها يجعلها تفقد السيطرة على مشاعرها.

وقفت نانا في الحمام قرب الصالة تنظر إلى وجهها في المرآة فوق المغسلة. لم تتعرف على نفسها. كأن ملامحها الحادة قد انمحت، عظمة الخد العالية قد غطست في جمجمتها، وشفتاها الغليظة قد تهدلت. لم تفكر في إصلاح الأخطاء وإعادة بناء مظهر خارجي كمالي لكي يشير إلى داخل صلب، كان قد تفطّر منذ زمن.

عليها أن تتماسك وتصعد إلى السطح وتبدأ بالعمل من جديد، لكنها لم تستطع كذلك أن تقرر فيما لو كان عليها أن تبقى وتواصل عملها أم تعود إلى البيت لتسيطر على أفكارها بشأن ماريااما.

بينما كانت تجمع أوراقها واللاب توب لتسرع مغادرة مكتبها رن موبايلها بالسيمفونية التاسعة ثانية. كانت روزي على الخط.

- ما هذا الكلام حول ذهاب ماريااما إلى أوروبا؟ لِمَ لم تخبريني بذلك؟ لم أسمع شيئا عنه؟ أنا بحاجة إلى ماريااما لتقوم بأعمال البيت وتعتني بالأطفال. لا تأخذيها مني. إن كنت تريدين مساعدة عائلة فخذي مادلين ابنتي. إنها أكثر ذكاء وتصلح أفضل من ماريااما لأوروبا. هي التي تستحق الفرصة. تحدثت روزي بسرعة جارفة مرة واحدة. كان على نانا أن تسألها التحدث أبطأ وإعادة ما قالته.

- لن أعطيك ماريااما، خذي مادلين ابنتي ولن تندمي. ماريااما لن تصلح لأوروبا، أنهت روزي السيل الجارف من كلماتها.

- هل مازلت على الخط معي؟ صاحت روزي. سحبت نانا نفسا عميقا.

- عليك أن تفهمي أني متعهدة مارياما لا غير.

- مادلين ابنتي تصلح أفضل بكثير لأوروبا. أنتِ التقيتِ بها على الشاطئ، أنت رأيت الفارق بين البنتين.

- ولكني قررت مساعدة مارياما.

- لا أوافقكِ على هذا إطلاقا. قطعت روزي الاتصال.

دار رأس نانا. لم تستطع التفكير بوضوح.

- ها هو وقت الانصراف قد حان. سمعت صوت هانس من خلفها. لقد نسيت تماما أنه كان هنا يجلس في مكانه في أحد مكاتب الصالة.

- لا أدري إلى أين سأذهب، تمتمت ومرت به مسرعة.

- أنتِ إنسانة حرة. ابتسم بتهكم. في اللحظة نفسها رنّ موبايلها. يزعجها أن ترد وهانس بالقرب منها ولكنها أجبرت على ذلك. كانت مارياما قد فقدت السيطرة على أعصابها ولم تستطع أن تقول شيئا ذا منطق. طمأنتها نانا وأكدت لها أنها لن تنساها وستساعدها في شأن دراستها «قبل أن يفوت الأوان». انقطاع الخط كان بطنين عنيف. ألقت نانا نظرة إلى المكتب المشترك حيث يجلس هانس وحيدا بشكل غريب. تملكها عطف مفاجيء تجاهه فأسرعت بالخروج إلى المصعد وأدخلته ببطاقة مرورها.

جلست نانا صباح الإثنين في حوض الاستحمام مع كوب قهوة والموبايل جاهز على سيراميك الحافة. انتظرت طوال المساء والليل مكالمة ولم تستطع الارتخاء قبل أن تسمع صوت مارياما ثانية، وأن تتأكد من أن كل شيء كان على ما يرام. أرادت

أن تعرف كيف كان حالها وأن تتابع ما كان يحصل من حولها. كل مكالمة كانت تولد سؤالا يجب أن يوضح، مخاوف جديدة يجب أن تخفيها. لأول مرة منذ انتهائها من مرحلة الدراسة لا يحظى عملها بالأولوية. نشوة العمل اندفعت إلى الخلف واستبدلت بماريانا والقلق المصاحب الذي لا ينتهي.

هل عاشت حياتها في حاضنة للخدج؟ بدءا بالثانوية ثم في الجامعة ومن ثم كلية لندن للاقتصاد وأخيرا في بيوت «روار» الزجاجي التي كانت تتنقل بينها بأمان وراحة. فندق هيلتون وماريوت في هونج كونج، أو دلهي أو جوهانسبيرغ لها تلك الراحة الباردة ذاتها، ذات الخدمة، ذات فنون المطبخ الراقية وذات الأمن. كان ذلك مرتبطا بأمان خاص وهو أن تصحو الصبح وللحظة لا تعرف في أي مكان من الكرة الأرضية هي، أي فندق في أي بلد، ولكن في الوقت نفسه هي على يقين من أنها وبغض النظر عن المكان الذي توجد فيه سيكون هناك بانتظارها بوفيه رائع للإفطار في محيط مريح ممتع وتكييف من دون صوت.

أوشكت أن تتأخر في ذهابها إلى العمل عندما رنّ الموبايل وقد سمعت صوت ماريانا واضحا صافيا من دون ضجيج في الخط.

- هل ستساعدينني قبل فوات الأوان؟ كررت الأسطوانة ذاتها.

- ما الذي سيفوت أوانه؟

- حياتي.

- أعدك، قالت نانا محاولة أن تبدو مقنعة قدر استطاعتها ولم تقل إن الوفاء بوعدها كان غير ممكن.

- ولكنك قد وعدت بتعهد مادلين وستأتي أيضا لأوروبا لهذا

السبب؟ قالت ماریاما بصوتها الناعم المتوجس الذي أثّر في نانا منذ لقائهما الأول.

- هذا غير صحيح ماریاما، صدقيني.

- خالة روزي قالت ذلك.

- أنا أتعهدك أنتِ ولا أحد غيركِ. لعنت نانا روزي أشد لعنة لأنها أرعبت ماریاما.

- أنا أدعو ربي كل يوم لشيء واحد فقط، أن آتي إلى أوروبا قريبا وأسكن في بيتك الكبير.

- من الصعب جدا على الأفريقيين أن يدخلوا أوروبا.

- أنا صغيرة ونحيفة ولن يتنبه أحد إليّ. باستطاعتي المرور من بين القضبان في الحجز. شرعت ماریاما بالنهنهة.

- ما الذي حصل يا ماریاما؟ أخبريني.

- لا شيء، أصلي فقط لربي، همست وأغلقت الخط. اتصلت نانا بها ثانية ولم يكن هناك من جواب.

وصلت متأخرة نصف ساعة عن الاجتماع الذي تم الاتفاق عليه بدلا من المرة الأخيرة والذي تركته من أجل إرسال نقود إلى ماریاما من الـ «ويستيرن يونيان». كانت تتحدث مع ماریاما ولم تستطع التخلص منها. اضطرت لأن تقسو وتخبرها أنها مشغولة وستتصل بها لاحقا.

خرجت نانا من المصعد وأسرعت إلى الممر المؤدي إلى قاعة الاجتماعات واكتشفت أن الباب لم يكن مسدودا فقط بل مغلقا. كان يمكنها رؤية ما بالداخل، فالزملاء لم يسدلوا الستائر المطلة على الممر. أشارت لهم بأن الباب مغلق، ولكن لم يأبه أحد

لإيماءاتها واستمر الاجتماع من دون إزعاج. طرقت بحذر على النافذة. لم يرفع أحد رأسه أو يستدر صوب الممر حيث تقف. هل كانت صالة الاجتماعات عازلة للصوت مثل استوديو مذياع؟ شعرت فجأة بالغثيان وأسرعت نحو التواليت لتتقيأ. غسلت فمها وجلست على غطاء مقعد التواليت تبرّد جبهتها بمنديل مبلل. كانت ترتجف من البرد متجمدة بداخلها كأن الحمى قد أصابتها. بالكاد وقفت مستوية على قدميها عندما نهضت.

مشت مسرعة إلى قاعة الاجتماعات. كان الباب قد انفتح على مصراعيه والستارة الخفيفة قد أغلقت. نظرت إلى الداخل ولم يكن هناك من أحد. لقد أنهى زملاؤها الاجتماع من دونها. نزلت إلى صالة الاجتماعات الكبيرة ووجدت مكتبا شاغرا. نظرت إلى ما حولها ولكنها لم تعثر على أحد من فريق المديرين. فتحت اللاب توب. كان هناك طلب توقيع لمذكرة الاجتماع النهائية من قبل مجموعة المديرين بأسرع وقت ومن دون تعليق قد نزلت في بريدها الإلكتروني. اتصلت بهانس ولكنها ندمت قبل أن يجيب. عوضا عن ذلك عادت واتصلت بماريااما عبر الرقم الذي اتصلت بها منه فكان الرجل الكبير على الخط.

- أين مارياما؟ صاحت به.

- لا أدري، قال ببطء.

- ألم تتصل من موبايلك؟

- تفعل ذلك أحيانا. هدوء الرجل الكبير زاد من توترها.

- لقد دفعت لضابط الشرطة... ابنتك في أمان على الشاطئ.

- ابنتي؟

- إنها تحت مسؤوليتك من الآن فصاعدا... خرجت من يدي.

- هل يمكنك استخراج جواز «بايوميتريك» صالحا لها مع صورة؟ من قبل أن يكون الوقت قد فات، حققت نانا معه من دون أن تفكر في أنها تبنت «فوات أوان» مارياما.

- الجواز غال جدا. قال الرجل الكبير بتحفظ.

- مجرد سؤال... للعلم فقط، أكّدت له، لقد وعدتها..

- وعودك غير صالحة هنا، قال الرجل الكبير بهدوء جارح.

- لا يمكنني التخلي عن مارياما، لها الحق في حياة محترمة قالت نانا بقوة غير متوقعة.

- وأنا أيضا، وكل البشر. قطع الرجل الكبير الاتصال.

في اللحظة نفسها اتصل هانس ليذكرها بتوقيعها المذكرة النهائية للاجتماع التي يجب أن يحصل عليه ليتمكنوا من تحولها من ثم إلى مجموعة «مورغيت». شعرت نانا بالعرق يتفصّد على جبينها. شعورها بتخلفها عنهم أطبق على حنجرتها.

- ألن أطلع على محضر الاجتماع أولا؟ من أجل عمل متقن؟ قالت نانا بانفعال.

- ليس ضروريا. الاستنتاج تم حسمه، نحن لا ننتظر غير توقيعك. أنهى هانس النقاش. اتحذت نانا قرارا سريعا.

- سآتيك بالتوقيع حالا. نهضت متوجهة إلى المصعد نزولا إلى الطابق الخامس وهرعت إلى هانس الذي كان جالسا أمام شاشته. كانت بورصة طوكيو قد أغلقت للتو ففتح بورصة موسكو. كان منغمسا تماما في قوائم أسعار العملات إلى درجة أنه لم يلتفت إلى وجودها خلف ظهره.

- تفضل. قالت وناولته الأوراق مع توقيعها في ثلاث نسخ.
استدار هانس ونظر إليها مضطربا كأنه كان في عالم آخر. أشار إليها لكي تضع الملف على الطاولة ووجّه ثانية تركيزه أمام الشاشة. ظلت نانا واقفة في مكانها تحملق في أرقام البورصة التي تنزلق أمامها على الشاشة. من الظاهر أن هانس لم يكن مرتاحا لوجود من يقف على رأسه ليراقبه.
- لا أستطيع التحدث الآن. لديّ زبون مجنون يريد بيع أسهمه في أسوأ توقيت يمكن التفكير فيه. الإجهاد والتوتر لدى هانس يذكّرها بأنها لم تكن الوحيدة التي تعمل تحت هذا الضغط.
- لنتحادث بعد السادسة، سيكون الأسوأ قد ولّى، قال بريكة وظهره إليها.
- بالتوفيق. وعادت نانا إلى مكانها بحال أفضل. كان على هانس أن يوضح لها الذي حصل في الاجتماع والسبب خلف الجو العكر من حولها منذ عودتها من غامبيا. لم يكن الجميع مقتنعا بسياسة التعامل الجديدة المتبعة إزاء الوقاية من الإجهاد للموظفين. كانت نانا تتوقع أن تتم مناقشة وضعها في مجموعة المديرين في أي وقت. عليها أن تتسلح وأن تهيئ «خطبة دفاع» لكنها لم تكن تملك ما تقوله للدفاع عن نفسها.
نظرت إلى ما حولها. كان المكتب المشترك نصف مشغول. شعرت بنوبة بكاء تتصاعد ونبشت داخل حقيبتها بحثا عن «فونتيكس». تركت الموبايل من دون صوت، وكانت على وشك مراجعة قائمة الزبائن عندما ظهر رقم مارياما على شاشة الموبايل. كما يبدو أن الرجل الكبير قد استولى على موبايلها الذي أعطته إياه في

لحظة وداع عاطفية. تحدث بلغة إنجليزية مكسرة غير واضحة كان من الصعب على نانا فهمها.

- الجواز غال جدا، جدا، قال وهو يمطّ الكلام. لم تكن نانا مستعدة للتفاوض معه حول واقع الموضوع. لم يفهم كما يبدو سؤالها الافتراضي واعتقد أنها قد طلبت ذلك.

- لا لا، أنا سألتك فقط عن احتمالية استخراجك فرضا جوازا لمارياما إن جاءت إلى هنا. كان ذلك مجرد افتراض بحت. لم نقرر شيئا بعد.

- لم سألتِ إذن عن السعر المحتمل؟ قال الرجل الكبير منزعجا.

- مارياما تريد المجيء إلى أوروبا، قالت نانا بتردد فلم تكن واثقة من فهمها لمارياما تماما بشكل صحيح وإن كان ذلك بالفعل ما تتمناه.

- هذا شيء لا تقرره هي. العائلة الكبيرة لها العديد من متخذي القرار، قال ليردّها.

- أعلم، روزي تريد الاحتفاظ بها كخادمة، قالت نانا بحدة.

- لا تتدخلي في عائلتي. بدا صوت الرجل الكبير غاضبا.

- أعطني سعرا فقط، قالت نانا بتوسل وهي تشعر بأنها تغرق أكثر وأكثر إلى أسفل في رمال متحركة. انقطع الخط.

اتصلت ثانية فواجهها طنين الخط مثل كلب مسعور سبب لها شعورا بفوبيا اختناق لحبسه. رفض الرجل الكبير جعلها تخشى بشدة قطع تواصلها مع مارياما. لم تجب مارياما أو روزي أو الرجل الكبير على اتصالها. تصور مارياما كجزء من حياتها كان

قد دخل في قرارة أعماقها. كانت على استعداد لدفع المبلغ الذي يطلبه الرجل الكبير من أجل استخراج جواز وفيزا لمارياما. وها هو سفر مارياما إلى أوروبا يصير واقعا في خيالها الساخن، وكل ما في الأمر هو التمويل الذي يخص شروطا لوجستية صعبة.

بعد أسبوع من انقطاع الاتصال مع ماريياما كان على نانا أن تستسلم. عانت من نوبات عنيفة من القلق والإرهاق ولم تستطع التركيز في عملها. تركت مبنى «روار» منتصف النهار ومنحت نفسها غداء في «كوستم هاوس» على جبهة الميناء تاركة كل الالتزامات والمواعيد لتبحر. أسدلت الستائر في البيت في «جميمني ريزيدينس» وجلست أمام شاشة التلفزيون مع زجاجة الشراب. بعد ساعة من برامج الواقع الاجتماعي ومسابقات الموهوبين ومشاهد من عيادات الأطباء استطاعت نانا أخيرا أن تنتزع نفسها من شرنقتها.

اتصل هانس ليخبرها بأن لديهم اجتماعا صباح الغد في السابعة، والمحور الوحيد الذي ستتم مناقشته هو افتقاد نانا لروح العمل الجماعي داخل الفريق منذ عودتها من سفرها الذي لم يكن، كما يبدو، له الأثر الإيجابي في حالتها النفسية غير المستقرة. الشركة لم تكن أقوى من أضعف حلقة فيها. أنهى هانس خطبته بالشعار الذي يرفعه موظفو الشركة. ولأن نانا قد توقعت الكارثة تحديدا جاء رد فعلها عنيفا. أظلمت الدنيا في وجهها ولم يعد لها وجود.

- هل أنت معي؟ سمعت هانس يصيح في الهاتف. لم تستطع أن تصدر صوتا.

- نانا هل أنتِ بخير؟ كرر بصوت أعلى. لم تكن قادرة على الاستجابة. تجمدَ جسدها. شعرت بالتجمد يصعد من قدميها أعلى صوب قلبها وحنجرتها.

- لا، لا، صرخت بصوت متحشرج.

- سآتي على الفور، قال هانس. رمت نانا بنفسها على الأريكة داخلة في نوع من غيبوبة لم تصحُ منها إلا حين ضرب الباب.

نهضت ومشت إلى المدخل بين اليقظة والنوم لتضغط على زر فتح الباب المركزي. تمكنت من مشاهدة هانس في كاميرا المراقبة وهو يدخل مسرعا إلى مدخل المصعد ليستقله.

- لا تبدين بخير؟ انطلق قائلا بخوف عندما فتحت له الباب وطلبت منه الدخول.

- كيف أبدو؟ سألت من دون اهتمام.

- لا تشبهين نفسكِ.

- هل تشرب شيئا؟ نظرت إليه نانا نظرة داخلية هادئة.

- شاي سايلون مع الحليب، قال لها غير مرتاح لصوتها المنهك.

- تعال معي إلى المطبخ وأخبرني عن سبب زيارتك، قالت نانا وهي تسحب كرسيا له. وضعت الماء على النار وبحثت كثيرا قبل أن تعثر في الجوارير على علبة أكياس الشاي. فتحت الثلاجة واكتشفت أن الحليب المنزوع الدسم قد انتهى تاريخ صلاحيته منذ زمن. ألقته في سلة القمامة واعتذرت لاضطراره للاستغناء عن الحليب.

- هل تعنين بقولك أنك لا تعرفين لم أنا هنا؟ قال، فهزت نانا رأسها نفيا.

- لقد صرختِ في الهاتف.

- أنا صرخت؟ قالت بجمود.

- لدينا اجتماع لمجموعة المديرين في الغد باكرا بين السابعة والثامنة.

- أجل هذا.. هذا صحيح .. كنا. جلست نانا عند مائدة الطعام أمام هانس. كان المطبخ مضاء بالإنارة القوية حول السايلو.

- سأكون محور النقاش في الاجتماع.

- أنتِ... غير موثوقٍ بكِ.

- هل الأمر سيئ جدا؟ تناولت نانا زجاجة بشكل عشوائي من على طاولة «الترولي» خلفها تنوي أن تدير في قدحها الشراب. أخذ هانس الزجاجة منها وصبّ الشاي في كوبين لهما.

- «روار» هي حياتي. كل وجودي، «روار» تمدني بالدفء والحب، قالت نانا كأنها تردد اقتباسا من كراس. نظر إليها هانس محرجا.

- عليك الاستعانة بطبيب أخصائي، قال من دون عاطفية.

- شكرا لمراعاتك.

- هل بإمكانكِ حضور الاجتماع مبكرا صباح الغد؟ هل أتصل بك لأوقظكِ.

- عليك البقاء معي هنا الليلة، أصرّت ووضعها لم يكن ليسوء أكثر من ذلك.

- سأنام على الأريكة.

- أنا أنام على الأريكة. وأنت تنام في فراشي، قالت له بتصميم.

- أنت بحاجة أكثر إلى النوم في فراش.

- ولكنك ضيفي، أكدت له.

- أنا أفضّل الأريكة. وصار له ما أراد.

الخـوف مـن اجتماع الغد أبقـى نانا مسـتيقظة رغم الحبوب المنومـة والإنهـاك. تنهـض بـين الحين والحين لتسـترق السـمع إلـى هذا المخلـوق النائـم الذي يتنفـس، يتقلب، يشـخر خفيفا مثـل طفل، يتحدث فـي نومه، ينهض إلى التواليـت. كانت تبذل قصـارى جهدها من أجل ألا يفوتها أقل صوت. حاولت السـيطرة على نفسـها من أجل ألا تدخل هناك ولكن الحاجة صارت كبيرة لأن تكون في ذات الغرفة مع إنسـان نائم، لتتحسس الأمان الذي يجلبـه النوم معه ولتتأمل من على مسـافة بـراءة الوجه. فتحت البـاب بحـذر وتركته غير مسـدود تمامـا. كانت تخشـى أن تزعج نومـه ووقفـت عنـد النافذة فـي أبعد مـكان من الأريكة. اسـتدار في نومه وأصدر صوتا شـاكيا. أسـرعت نانا إلى غرفتها مفزوعة. لم تكد تضع رأسـها على الوسـادة حتى جاءت الأشـباح والقامات الشـفافة بالوجـوه البيـض. كانـت تخشـى الأبيض دومـا والذي يذكرها بالعدم واللاشيء.

كان جميـلا ومـن غيـر المعتـاد أن تتنـاول الفطور مـع صديق وأن تجلـس مرتخية تتحدث عن كل شـيء غيـر العمل، حتى عن تجربتها في غامبيا. لم يعد هناك من حواجز مع هانس وتمكنت مـن التحدث معه حول ماريا وخططها. سـألها مازحا إن كانت قد انضمت إلى جمعيات خيرية أم صارت عضوة في كنيسة «جيش الخلاص». أوضحت نانا له أنها كانت قضية شـخصية تماما ولم تكـن لها علاقة بالعمل الخيري. لم تكن تنتمي إلى هؤلاء الذين يتبعـون الموضة ويلعبـون دور «المليونير الخفي». لم تكن جزءا من

المؤسسات الخيرية الأنيقة. لم تكن سوى تحسين صورة والتي أوضحت المسافة بين الأغنياء والفقراء.

- تبدين الآن كأنك ما يجب أن يكونه الاشتراكي القديم المخلص. مازحها هانس.

- لا أنتظر منك أن تفهمني. قالت نانا مجروحة. أن تكون اشتراكية هو الأمر الأكثر إحراجا الذي يمكن أن تتصوره عن نفسها.

- قلتها هكذا... كوميدية، حاول هانس أن يصلح الموقف.

- قد أصبتُ بـ... لم تستطع نانا أن تجد الكلمة الصواب.

- إنه الجانب العاطفي. حاول هانس معها. استغربت نانا شخصيته الراقية وشعرت فجأة بانشراح في صدرها. أخذت يده فقام من مكانه ولكنه لم يسحبها. ظلا جالسين من دون قول كلمة حتى حان موعد انطلاقهما.

تم عقد الاجتماع في صالة طوكيو. المجموعة كانت مسبقا قد حضرت عندما وصلا، أحدهما قبل الآخر بعض الشيء كي لا ينكشف أمر علاقتهما الخاصة فتثير شكوكا حول تواطؤ ما. جلست نانا مقابل كاما، متهيئة لأسوأ ما يمكن التفكير فيه. حياها الزملاء بشكل عابر كأنه اجتماع صباحي عادي جدا. كانوا يحلقون في شاشات كمبيوتراتهم ولم يرفعوا أعينهم عنها إلا قليلا. ارتدت نانا قلادة ماريانا البلاستيكية للمناسبة. كانت غير آبهة بما يفكر فيه المجتمعون بما يخص هذا الشيء الغريب الذي يعود لأعمال رياض الأطفال الفنية. كانت بحاجة إلى الحرز لكي تثبت ويجلب لها الحظ في الاجتماع الذي سيحسم قدرها.

- يمكننا إذن بدء الاجتماع. نانا هل توافقين على المطروح للنقاش؟ قال إريك الذي جلس في طرف الطاولة ·(الموكل إليه بإدارة الاجتماع يتبدل كل مرة). كان الجو طيبا مرتخيا وقد أملت نانا بلا وعي منها خيرا في ذلك. أدلى كل منهم بدوره تقييمه بشكل خاص لجهودها (أو النقص في الوقت نفسه) والتركيز على تخلفها القاتل عن الاجتماعين للمجموعة. احتجت نانا بشدة ودافعت عن نفسها بقولها إن الباب كان مغلقا في الاجتماع الأخير (ربما بالمصادفة) ما منعها من حضور الاجتماع عندما وصلت. لم يكن هناك من رد فعل، لا شيء غير هز الرؤوس رفضا.

زملاؤها كانوا إما غير قادرين على الإنصات لها وإما غير راغبين في ذلك. شكّت فيما لو كانت قد أوصلت اعتراضها إليهم أم أن ذلك كان ما يدور في رأسها فقط.

تداخلت الوجوه بعضها ببعض وصارت وجها واحدا، تحركت الأفواه بتزامن. لم يكن لديها أدنى شعور بكيفية تقييمهم لها، من الذي كان متشددا ومن كان لينا. كانت تشعر طوال الاجتماع بوجود هانس في القاعة ولكنها لم تنظر إليه ولو مرة واحدة. كان إيريك في تقديمه الشديد الاختصار (الوقت ثمين في «روار» ويقاس بجرعات صغيرة) قد أكد على النتائج التي حققتها وعلى حدسها اليقيني عندما يتعلق الأمر بقراءة وضع السوق عموما وسوق الأسهم المضطرب. كانت الأجواء تبدو على السطح كأن الجميع كمدرين كانوا متساوين في المنصب. ولكن تحت السطح كان كل واحد منهم يفكر في نفسه أولا ومن ثم «روار» وله أجندته الخفية، متربصا للآخر مع لعب متفق عليه.

كان لـدى كل منهـم ٣٠ ثانية ليطرح رأيه حـين يأتي دوره. تذكرُ بوضوح تسلسـل زملائهـا وأمكنتهم حـول الطاولة. إيريـك، كاما، هانـس، جيـرت. ولكنها لا تذكر مَن قال هذا ومـاذا قال ذاك. كانت تصريحاتهـم تقريبا متطابقة: روح الفريق الواحد لديها ضعيفة، نقص في الحماسـة (حب «روار»)، تقصير، الحلقة الأضعف حاليا. لـم تتنبه إلا إلى ما قاله هانس: إنها تفتقد القدرة على الإنصات. لقـد كان أشـد إيلاما مـن بقيـة المصطلحات التي جـاءت من قبل بقيـة الزمـلاء والتي تعرفها حق المعرفـة. انقضى الاجتماع خلال ربع سـاعة. انفضوا من دون احتدام في المشـاعر. كان هناك إجماع متفق عليه حول حاجة نانا إلى برنامج إعادة تأهيل جذري وشامل. المقترح سيمر بسلسلة من المسؤولين في فريق الإدارة الذي سيزكي أخيرا القرارات التي تم اتخاذها في مجموعة مديري الفريق.

أسـرعت نانـا إلـى مغـادرة قاعـة الاجتماعات وحرصـت على النزول وحدها في المصعد.

اختبأت في بيتها بقية اليوم ولم تستقبل مكالمات من أحد ولم تقرأ بريدها. راجعت ثانية وثالثة ما قيل في الاجتماع وما تقرر. كان جحيـم الربـع سـاعة يدور في رأسـها. لم يكـن هناك حديث عـن إنزالهـا درجـة، ولكن عن عرض سـخي أكدت لنفسـها. هكذا اسـتثمار ضخـم لا يـدل إلا علـى أن «روار» لاتـزال تراهـن عليها كقوى عاملة قيّمة.

فـي اليـوم التالي تسـلمت نانـا رسـالة قصيرة تنـص على أن فريـق «روار» الإداري قـد قـرر فـي اجتمـاع المتابعـة إعفاءهـا من مسـؤولية بعض المشـاريع واتبـاع برنامج مكثـف للتدريب الفني

الـذي تم تطويـره خصيصـا لـ «روار»: أوكلـت المهمة إلـى تايس. إعادة زرع الحماسـة فيها لـ «روار» وإعادة تأسـيس طاقتها العملية الكاملة. لم يكن لها خيار غير قبول العرض، الابتعاد عن الأنظار والانصيـاع. ألفت نفسـها في سـقوط حـر، تأرجحت مثل ريشـة بيضـاء صغيرة داخلـة خارجة من اللاشـيء. تم حجز موعد لها مـع ثايس في الصباح التالي، ولكن ظـل برنامج التدريب حرفيا والهدف النهائي المرسوم له في طي الكتمان حاليا. كان على نانا أن تحضر اللقاء من دون توقعات، خالية مثل ورقة بيضاء.

لقـد نامت بتأثير خليط من دواء الأعصاب والحبوب المهدئة، لذا فقد وجدت نفسـها مخدرة في مكتب ثايس. وشـرع مباشـرة من دون مقدمات ومن دون تفكير:

- ما هي استراتيجية بقائك على قيد الحياة؟

- التركيز مائة بالمائة على عملي.

- ألا تقومين بذلك الآن؟ نظر إليها بتمعن.

- هنـاك موقـف جديـد حاليا، قالـت نانا وقد أربـك انتباهها حركة الموبايل الذي أبقته من دون صوت في حقيبتها. لم تستطع تجاهله.

- مـا الـذي يحـول دون منحـك «روار» تركيـزك التـام؟ تحول ثايس من حار إلى بارد منذ لقائه الأخير بها.

- هذا الرقم. حملقت نانا في الرقم على الشاشة بنشوة. لقد عاد التواصل مع مارياما.

- عليـك أن تركـزي فيمـا نحـن فيـه. تجاهل ثايـس نظرتها الحميمية إلى شاشة الموبايل.

- حياة أخرى، مكان آخر، تمتمت. اهتز الموبايل ثانية. نهضت بحركة مفاجئة وخرجت إلى الممر. لكن ذلك كان متأخرا حيث لم يكن هناك من أحد على الجانب الثاني. دخلت ثانية وظلت واقفة عند الباب.

- عفوا، كان أمرا مهما، دمدمت. نظرت نانا عبر ثايس إلى ملصق المعرض الفني الأبيض. عليها أن توضح له أن لديها مشكلة مع اللون الأبيض، الأبيض يحرّض الخوف فيها من الفضاء الفارغ.

- لا يصح هذا. لا يمكنك استقبال مكالمة الآن. مشى ثايس رواحا ومجيئا أمام السبورة.

- هل نكمل من حيث توقفنا؟ احتفظت نانا بالموبايل في يدها.

- عليك أولا أن تغلقي هذا.

- لقد وقعتُ كما يقال في مشكلة. أغلقت الموبايل مكرهة.

- أنت تريدين في الحقيقة ترك «روار»؟ قال ثايس مواجها إياها.

- هل اتخذتَ قرارا بطردي منذ الآن؟ قالت له غاضبة.

- أنا أساعدك فقط من أجل أن تعرفي أين تقفين.

- بين معسكرين، قالت نانا وندمت في الحال.

- لديك الدافع لترك «روار» ولكنك لست مستعدة بعد؟ تابع ثايس تحريضه لها.

- لا، أود أن أظل حيث أنا. انطبقت حنجرتها. كأنها قد وقعت في مصيدة.

- انظري إلى سؤالي كأداة لمعرفة نفسك. غيّر ثايس تكتيكه.

- لا أعرف أي قدم أقف عليها، اعترفت نانا.

- ما الذي نتحدث عنه بالتحديد؟ قاطعها ثايس.

- إنه أمر خاص.

- لا شيء خاص مادمت موجودة في حيز «روار».

- موضوعي هو أن أعيد حياتي العملية، أنا لا شيء من دون عمل، ذكّرته نانا بذلك.

- إن لم تكوني صادقة مع نفسك فلن يحدث شيء. استدار ونظر إليها.

- لست بالمستوى الذي يجب أن أكون عليه، أخجل من ذلك أمام زملائي.

- أعطي لنفسك الحق بهذه المشاعر وإلا لن تتمكني من فصلها عن عملك.

- هناك فوضى بداخلي، قالت متشكية.

- هل لك أن تخبريني كيف نشأت هذه الفوضى؟

- هذه العلاقة الخاطئة، قالت مترددة كأن هناك جريمة عليها أن تصفها.

- كيف خاطئة؟

- اقتصاديا

- ما الخطأ في ذلك؟

- إنه مهين.

- لمن؟

- لي...

- كيف تريدين تصحيح هذا الخطأ؟

- كلما أرسلت المزيد من النقود إلى هناك ازداد الخطأ فيها.

- أين هناك ولمن؟

- غامبيا... لابنة مراهقة وبعض أفراد من عائلة.

- ألا يمكنكِ جعل إسهامكِ رسميا لكي يسهل تعاملك مع الموقف؟ هز ثايس رأسه رفضا.

- لم يأت ذلك بنتيجة قط. لم أستطع أن أطبق مقترحي حول نظام ثابت.

- هي أنتِ التي تدفع ولذلك فأنتِ أيضا من يقرر كيفية القيام بذلك.

- الموقف ليس هكذا، قالت نانا بانزعاج لعدم فهمه لها.

- إذن عليكِ أن تتحكمي في الموقف، قال ثايس بنفاد صبر.

- لا علاقة للأمر بتحويل النقود، قالت نانا مستاءة. نظر ثايس إليها منتظرا الجواب.

- إنها احتلت.. هيمنت عليّ، صححت قولها.

- هذا الذي تقولينه يعود إلى مستشفى الأمراض النفسية، قاطعها ثايس.

- لم أعبر عن نفسي بوضوح، بودي فقط أن أساعدها، شعرت نانا ببوادر يأس تستبد بها.

- ساعديها إذن وابقي في إطار ذلك. في الوقت نفسه فكري إن كان تعارفا عشوائيا خلال عطلة يتعين أن يدمّر حياتك ومستقبلك العملي.

- أنا لم أعتد على ... هذا النوع من المشاعر، دافعت نانا عن نفسها.

- عن أية مشاعر نتحدث؟

- لإنسان ليس قريبا مني.

- لقد قلت إنك مُحتَلة من قبلها، لا يمكن أن تكوني أكثر قربا من ذلك، قال ثايس بجفاف.

- أعنـي مقارنة بعلاقـات الزمالة أو الصداقة، الحب. شعرت نانا بأنها لم تكن على مايرام.

- هل لديك عائلة؟

- لا، لم تعد. لم تشأ نانا أن تخوض في الشأن العائلي.

- لنصرف النظر عن ذلك إذن، قال ثايس باقتناع وواصل:

- عليـك أن تجدي طريقة للتعامل مع هذه المشـاعر الطارئة كمشـكلة عملية وحلّ عملي. لا أسـتطيع ان أقـول لك ما عليك فعله، ولكن سأعطيك أدوات للسيطرة على نفسك.

- ولكنها ليست مشكلة عملية، قالت نانا بانفعال.

- هذا هو ما سـتجعلين منها، حَسَـم ثايس، فكري بإيجابية، تعمقي في مشاعركِ واقبلي أمر وجودها.

- هل بنيتكَ التحايل لطردي من روار؟ قالت نانا وقد تملكها الرعب.

- لا أفهم، قال ثايس ببرود.

- عذرا، كان ذلك قطعا كهربائيا. كانت نانا تخشى أن ينقطع حبل نجاتها عن ثايس.

- هل مازلنا في أن عملكِ لا يمكن له أن يتجاور مع ارتباطك الشـعوري؟ سـألها متجاهـلا اعتذارها. هزت نانا رأسـها مجبرة على الموافقة.

- إن لم يكن بمقدورك استيعاب حياتك العملية وحياتك بما يخص مشاعرك ستكونين موظفة سيئة. نظر ثايس إليها بقلق. نهضت نانا من مكانها على الكرسي الجلدي.

- تايم آوت، قالت. كانت بحاجة للخروج لتتنفس.

- لن أقول لك أي طريق عليك أن تسلكي. ولكني سأضعك داخل الأطر التي تقودك إلى فهم نفسك. ما تبقى يعود إليك. اعملي خطة عمل ليوم غد. سيطري على... هل نسميه مشروع تمويلك وضعيه داخل صندوق منفصل حيث بإمكانك أن تشعري بما تريدين ولكي نتمكن نحن من التحدث حول وضعك بما يخص العمل. صافحها ثايس وغادرت نانا المكان بغضب مريك مزعج.

في طريقها إلى البيت حاولت الاتصال مرة أخرى بمارياما فحصلت على خط في الحال.

- نانا، حبيبتي لماذا اختفيتِ؟ صرخت مارياما في أذنها.

- لم أتمكن من الحصول على خط للاتصال بك، أدلت نانا.

- أخبار جيدة، يمكن للرجل الكبير أن يحصل على الأوراق الضرورية لي للحصول على جواز.

- لم نتفق على ذلك مارياما. لم تكن نانا متهيئة لتقبل مبادرات جديدة.

- جواز أصلي، درجة أولى مع صورة وطبعة أصابع «بايو ميتريك»، قالت بصوت ناعم حاد يقطر حلاوة.

- لا أفهم عم تتحدثين، قالت رافضة وقد شعرت في الوقت نفسه بتحرر غريب في فقدانها السيطرة على نفسها.

- هـل تريديـن الحديث معـه؟ تركت مارياما الموبايل للرجل الكبير.

- مـن أيـن جـاءت مارياما بهـذا الذي تتفـوه به؟ قالـت نانا متأثـرة. لـم تكـن قد اسـتقرت بعد إثر جلسـتها مـع ثايس وما يجول في رأسها الكثير في آن واحد.

- أنـت طلبـتِ مني سـعرا. كان الرجل الكبيـر منقوعا بهدوء غامض.

- لقد سألت إن كان هناك مجال للحصول على جواز لمارياما، مجرد افتراض.

- أنت طلبتِ وأنا أعطيك سعرا.

- وكـم سـيكون تقريبـا؟ قالت. مـا الذي يجري لهـا؟ لم تعد سيدة أمرها. وكأن رغبة مارياما هي التي استولت عليها.

- خمسة عشر ألفا، تمتم الرجل الكبير.

- دالاسي؟

- يورو، قال الرجل الكبير غاضبا من الإقلال من شأن جهوده.

- لـن ينفعهـا الجـواز بشـيء. بـدأت نانا تـدرك الجنـون في تورطهـا فـي الخوض معـه في عرضه لاسـتخراج جـواز وإن كان مجرد افتراض.

- أنتِ تتولين أمر استخراج الفيزا.

- لقد قلت لمارياما عدة مرات إنه من المسـتحيل دخول واحدة مثلها إلى الاتحاد الأوروبي.

- اجعلي الأمر ممكنا إذن، قاطعها الرجل الكبير بنفاد صبر.

- هـل هـو... تواطؤ؟ سـألت نانـا بمـرح وازدادت انطلاقا أكثر

فأكثر بابتلاع الرمال المتحركة لها.

- هـل تريديـن أن أوكل المهمة إلى مهرّب؟ قـال الرجل الكبير مهددا.

- لا لا، صرخت ماریاما، لا أريد السفر بطريقة غير شرعية.

- علـى جثتـي، صرخت نانـا ردا عليه علّ ماریاما تسـمعها. لـن تقع بين مخالب المهربين وتموت فـي الصحراء وتصير كومة عظـام فـي الرمـل أو تنتهي فـي قاع البحـر المتوسـط قريبا من بحيرة إيطالية عدائية.

- لقـد وعدتني، هل تذكرين، نانا لقد وعدتني. عادت ماریاما وأخذت الموبايل.

- أنـا لـم أعدكِ بشـيء. دافعـت نانا عن نفسـها باستسـلام. رأت نفسـها فـي حلم كانت ماریاما فيه معهـا وكانت متحررة من كل الهمـوم والقلـق. أية سـعادة أن تأخذ تلك البائسـة الصغيرة تحت جناحيها تتقاسـم كل شـيء معها، حالتها المادية الرصينة المضمونة مسـتقبلا، شـقتها المريحة الواسعة، سـيارتها البورش، سفرات الإجازة، رؤيتها الكونية. كل ما ملكت وما لديها يجب أن يعود إلى ماریاما أيضا. كان الرجل الكبير على الخط ثانية وقد جرّها من رؤى أحلامها.

- الأمـر عائد إليـك، كلميني عندما تقررين ما تريدين، أنهى كلامـه. وقفـت نانـا أمـام مدخـل مبنى سـكنها ولم تسـتطع أن تستقل المصعد إلى شقتها وتكون وحيدة بين أربعة جدران.

بفعـل نوع مـن اليأس جاء ببالها أن تقصد العم فرانك برغم كل السـنين التي مرت. صديق العائلـة القريب الذي كان له حق

ما عندما ناداها بطفلته بالتبرع، بما أنه من قام بحقن الأم لغرض التلقيح الاصطناعي.

لقد كبتت نانا بداخلها حاجتها للتعريف بأمر أصلها الذي كانت تشك في كونه تكنولوجيا تماما كالانطباع الذي أعطاه والداها. أظهر فرانك اهتماما وتعلّق بها منذ كانت طفلة. كان كأنه يحمل الحب معه. كانت تفرح وتصعد الحماوة في خديها عندما يزورهم في بيت والديها الكبير الذي لم تشعر يوما بأنه بيتها.

عيادة فرانك للإخصاب في أقصى «فريديريكسبيرغ» قد تم توسيعها مع إيقاع التقدم العلمي الخارق. كانت نانا من نتاج المرحلة الأولى من بحوث الخصوبة قبل أن يكون بالمستطاع إجراء تلقيح اصطناعي خارج الرحم واختراع ما يسمى بطفل الأنبوبة. شعرت نانا بنفسها كجسم غريب لم يكن ليخلق لو لم يكن ذلك التطور البايوتكنولوجي في حقل البحوث لفرانك.

أسرته زيارتها المفاجئة وطلب منها التفضل إلى مكتب مدير العيادة. سألها باهتمام عن صحتها. أخبرته نانا بإيجاز عن خضوعها لعلاج مكثف ضد الإجهاد. لم يكن التواصل الودي بينهما وفق المقاييس تماما من قبل وبقي كل منهما داخل حدود العرف الاجتماعي الرسمي الحازم. على المختص البايوتكنولوجي ومنتجه ألا يكونا على معرفة خاصة. لذلك كان هناك سبب وجيه لإخفاء الحقيقة عن نانا بشأن أصلها حتى جاءت زلة لسان فرانك.

- من المهم أن تحترمي أعراض الإجهاد وإلا هناك الخطر في أن يصير مزمنا. كان فرانك يمضغ بتفكر سيجارته البلاستيك.

- لقد جئت للعالم من أجل أن أعمل وأستوفي الشروط التي تملى عليّ، قالت نانا بحدة.

- هذا يقتضي أن تعتني جيدا بنفسك.

- لم تعتد أن تكون ... أبويا جدا. قمعت نانا كل مشاعر الخجل فيها. لقد جاءت من أجل توجيه سؤال محدد له.

- وأنت لم تعتدي أن تقضي إجازة في سفرة. شكرا لبطاقتك، قال لها. لم تتذكر نانا أنها قد أرسلت بطاقات للتحية. من المؤكد أن ذلك كان في الأيام الأولى قبل ماريانا.

- اشتريت عرض السفرة بشكل تلقائي، لا بد لنا من تجربة شيء جديد. قالتها بجرأة وشرود. كان شعورا غريبا أن تتحدث مع فرانك بعد كل هذه السنوات من الافتراق.

- أعتقد أن من الأفضل أن تخبريني ما الذي في بالك، قال لها بلطف. شعرت نانا بأنه كشف النقاب عن مبتغاها فتملكتها رغبة في الهرب بعيدا.

- لم أفهم تماما، قالت مراوغة.

- أنت من إنتاجي ولكن من الطبيعي أن ذلك لا يمنحني الحق لكي أعرف حياتك الخاصة وأن أعلم ما الذي تقومين به في سفراتك. كان فرانك ينظر صوب الزاوية الأبعد من المكتب عالي السقف.

- ولكن إن كان أحد ما من ضمن محيطك قد تعرض إلى

خطـر فهناك من سـبب لكي يكـون متنبها لذلـك، تابع صانعها بتفكر.

- ولكن لا يمكنك أن تكون متنبها لكل... منتجك.

- لا أعـرف أحـدا منهم عـداك وهذا مخالـف للقانون، تمتم بينه وبين نفسه. لم تره نانا متأثرا بهذه الدرجة ومجهدا. شحب وجهه وأخذ يتنفس بصعوبة.

- هـل ألـمّ بـك شـيء؟ قالت لـه مرعوبة. لـم يجبهـا فرانك وأمسك صدره جهة اليسار.

- هل يمكنك مرافقتي الطريق إلى البيت؟ تأوه متألما ونهض. وقف وتأرجح. أمسـكت نانا به لئلا يسـقط. انسحب معها خارج العيادة بعد أن أحكم إقفالها. كانت السكرتيرة قد غادرت قبله.

عـادت الحيـاة إلى فرانك من جديد في المتـرو، عاد اللون إلى خديه والألق إلى عينيه. رافقته نانا إلى الباب ثم المدخل والمصعد وتوقفـت. لـم تـزره مـن قبل في سـكنه الخـاص ولم تكـن واثقة فيمـا لـو كان قصده هو زيـارة بيته. لوح لها لتدخل واسـتطاعت أن تحشـر نفسـها قبل أن ينزلق باب المصعد وينغلق. صعدا إلى الطابـق الأعلى. كانت الشـقة مقابل المصعد مباشـرة. كانت نانا متوترة إزاء الموقف غير المنتظر. تأسفت لعدم ارتدائها شيئا أكثر أناقة في زيارتها الأولى وربما الوحيدة لفرانك.

بدا الموقف رسميا عندما فتح الباب ودعاها للتفضل بالدخول قبلـه. كان يسـكن في أتيليـه كبير يتخلله الضـوء من أعلى عبر النوافذ في سقف الغرفة. كان الضوء يدخل من الجانبين ويذوب بعضـه في بعض بانعكاس أبيض جعل الفضاء يتأرجح. ترجاها

فرانـك لتجلس في أقصـى مائدة الطعام الطويلة بينما هو يعد الشاي ويدهن بعض قطع من بسكويت الجبن.

تأملـت نانـا المكان من حولهـا. كانت هناك صـور فوتوغرافية للأطفـال فـي كل مـكان. كانـت ذات الوجـوه الثلاثـة بمختلـف الأعمـار. لـم تسـتطع نانا رفـع بصرهـا عنهم. صبّ لها الشـاي فانتشرت رائحة ياسمين في الغرفة.

- إنهـم أطفالـي، قال بعفوية. شـربا الشـاي بصمـت قبل أن تقول:

- لديك أطفال جميلون.

- يتبع الأم، قال.

- أجل بالطبع، أسـرعت نانا بالقول ولم تتوغل أكثر. لم يكن لديها الحق لسؤاله عن حياته الخاصة.

- المزيد من الشاي؟ سألها.

- سرعان ما عادت حيويتك إليك مجددا، أكدت برضا.

- الوعكـة فـي طبيعتها عابرة، قالها تقريبـا بأبوية ثانية. لم تستطع نانا الكف عن التفكير في كيفية تعامله مع أطفاله وهو يعاملهـا بهذا الحنان والحب. ولكن ربما كانت هي أحد أطفاله؟ نظرت نانا مستكشـفة ما حولها من جديد. اسـتجاب فرانك في الحال لشكها.

- معي يمكنك التحدث بحرية، أكّد لها.

- أنـا بحاجـة للحديـث عـن التجربـة التي مـررت بها خلال سفرتي وسماع تقييمك لما جرى لي. تحدثت نانا بصوت خفيض وأغلقت فمها كأنها تود أن تصطاد الكلمات قبل خروجها.

- سأكون واضحا جدا: خبرتي المهنية هي كل ما يمكنني عرضه عليك. ما هو خارج ذلك عليك بإيجاد أماكن أخرى. نظر فرانك مباشرة في عينيها.

- لقد أعطيت وعدا وفي نيتي الوفاء به.

قابلت نانا نظرته من دون أن ترمش.

- أي وعد؟

- أن آتي ببنت صغيرة من هناك إلى أوروبا.

- لقد ابتعدتِ عن الواقع كثيرا. كان لصوت فرانك صدى معدني. لم يمس بسكويت الجبن الموجود في الصحن، والشاي قد برد برغم أن رائحة الياسمين ظلت عالقة في هواء الغرفة.

- أنا وعلى العكس قد خطوت داخل عالم الواقع، أدلت له. استنكار ورفض فرانك قد يسهّل من وداعها له.

- سميه ما شئتِ، قال رافضا.

- الواقع حيث تكون ماريا‌ما، قالت نانا.

- الواقع حيث تكونين أنتِ وحيث أكون أنا. هزّ فرانك رأسه نفيا.

- لا يمكنك أن تتبني واقع الآخرين، واصَل هو.

- لا يمكنني أن أخذلها، همست.

- أنتِ في الواقع حيث يوجد جسدكِ، وهنا عليك استخدام إمكانياتك.

- ولكن روحي في مكان آخر، أصرّت نانا.

- هنا أضع حدا واضحا. لا يمكنني ولا أستطيع أن أكون المُداوي لروحك ومن يحل مشاكلكِ. نهض فرانك وأخذ إبريق

الشاي معه إلى المطبخ. نهضت نانا أيضا. اشتاقت للعودة إلى بيتها. تريد بعضا من الوقت لهضم درس فرانك. قد تم ترسيم الحدود بشكل صريح وواضح. ما الذي كان تتصوره حقيقة؟

- أحسبك إنسانة رشيدة. فكري جيدا. كان فرانك منحنيا أمام غسالة الصحون.

- لا طريق للرجعة، قالت نانا بهدوء. كانت سعيدة لأن فرانك وبرغم كل شيء كان قلقا بشأنها.

- لقد وعدتِ بشيء من المستحيل تحقيقه.

- أعرف ذلك، قالت نانا بضعف.

- أريد أن أقوم بمحاولة أخيرة لأجعلك تتراجعين عن ذلك. قال فجأة بصوت عال جدا.

- أن تقلق عليّ وتهتمّ بحياتي يعني لي الكثير. لقد ظلت نانا شابة لزمن طويل ولكن ذلك قد مرّ الآن وبشكل نهائي.

- كما أرى فإن مشاعركِ تتحكم في حياتكِ.

- إنه خياري. شعرت نانا بانزعاج يتنامى لعدم تفهمه لها.

- تبدين حاسمة. رفع فرانك حاجبيه الكثين.

- ولكنكِ قد ضللتِ الطريق. واصل بعد وقفة للتفكير.

- يؤسفني أنك لستَ معي في تفكيري. تناولت نانا معطفها من على الشماعة ولكن قبل أن تزرره قام فرانك بحركة غير متوقعة. أخذها إلى حضنه وأبقاها بين ذراعيه كأنه لا يريد أن يفلتها أبدا.

- الحرية ليست في أن يكون لك والدان، قال بعد أن أفلتها من بين ذراعيه أخيرا. كانت تشعر بدوار. ارتجفت ساقاها.

لـم تفهـم ثانية ما كان خلـف كلماته، إن كانت عـزاء أم كان فيها معنى فلسـفي أعمق! ربما كانت جوابا لسـؤال لم تسـأله. نظرت مـن خلفه إلـى الصـور الفوتوغرافية لأطفاله فرأت نفسـها من بينهـم. بإمكانهـا أن تحدس أنهم كانوا تقريبا فـي عمرها. تتبع فرانك نظراتها.

- إنهم أذكياء شطّار في حياتهم العملية في كل أرجاء العالم.

- لديك أطفال حلوين، كررت نانا، تغمرها مشاعر لم تعتدها أثارها احتضانه لها. كان لديها شـعور بأنها يمكن أن تنكسـر في أية لحظة.

- ألتقيهم مرة في الشهر عبر سكايب. اهتز صوت فرانك، بدا فجأة ضائعا.

- نحـن الذين نحتاج إليك. ندمت نانا في الحال لتصريحها المشفّر.

- أشـياء يجب إبقاؤها منفصلة، لا يجب خلطها معا. تحدث فرانك ثانية بسلطة متحفظة.

- لقد تطورت التكنولوجيا البيولوجية كثيرا منذ أن.. حاولت أن تقـول. حـرك فرانك ذراعيـه وتوجه صوب البـاب. بقي واقفا مترددا. نظرت نانا للمرة الأخيرة من حولها على الغرفة الهادئة بسـجادة الحريـر الفارسـية، المفـرش المطبـوع باليد من الشـرق والأعمـال الفنيـة علـى الجـدران. تنحنـح فرانـك وفتـح الباب ليدعهـا تتقدمـه. تنحنح ثانية خارجا عند المدخل بشـكل أقوى كأن شـيئا قد سـدّ بلعومـه. ضغط علـى زر المصعد الـذي انزلق إلـى أعلى من دون صوت من خلف المشـبك الحديدي. وقف عند

تجويف السلم ينظر إليها وهي تهبط عبر قناة المصعد. لم تسأل السؤال الذي تحرقت لتوجيهه له ولكن التشابه مع أطفاله على الأخص الابنة قد أعطاها الجواب الذي بحثت عنه. تأكدت أن فرانك قد أدرك أنها على يقين الآن أنها لم تخلق نتيجة تلقيح اصطناعي. تراءى وجه أبيها المملوء بالأسى أمامها فجأة وانتابها تأنيب ضمير لأمر ولادتها.

ترجلت نانا من التاكسي أمام «سيتي هول بيلدينج»، حيث يقع مكتب فرع «روار - لندن» في الطابق الثامن. كانت تعرف المنطقة بحذافيرها جيدا وتشعر كأنها في بيتها في تلك العمارة الزجاجية السوداء التي يرى المرء من داخلها ما هو خارجها وليس العكس. كانت تتردد كثيرا على المكان حتى إن حراس الأمن حيّوها كفرد من أفراد العائلة وقد أدلوا بتعليقات لطيفة بشأن مظهرها فاجأتها ككل مرة فهي لم تعتد أن ترى نفسها عبر الآخرين.

لقاء لندن مع الممثلين من قبل المقر الرئيسي في دبي انتهى باتفاقية حققت نجاحا باهرا وقد تمكنوا من إنهاء العقد قبل الوقت المقدر لها بكثير. اعتبرت نانا ذلك بمنزلة مؤشر لاستعادة لياقتها مجددا. طرأ على بالها «هانس». من دونه ومن دون علاقتهما كانت قد ضاعت ولا شك.

بعد واجب احتساء الشراب المفروض عليها مع زملاء لندن تمكنت نانا من الوصول إلى عنوان بِن وبياتريس في كنغستون. تذكرت أنها لم تجلب معها باقة زهور للمضيفين اللذين استقبلاها بحرارة. تحركت عواطفها وامتنّت لمنحها الوقت

لزيارتهمـا بإنـذار قصيـر مـن قبلها. صعـدوا جميعا إلـى غرفة المعيشـة بأثاثهـا الفخـم فـي الطابـق الأول. صبّ بِن كأسـا من الشـراب لنانا وله. لم تشـرب بياتريس غير مياه معدنية. جلسوا جميعهم في أرائك ضخمة حول الطاولة المربعة الكبيرة.

- صحـة. رفـع بِـن الـكأس وخاضـت شـفتاه الغليظتـان في الشراب.

- وقبل كل شيء، الطفلة، قال بفاعلية. برغم ملبسه العملي، الكارديغان والبنطلون المخملي بدا اسـتثنائيا ونخبويا أكثر مما كان بملابس وقت الفراغ في غامبيا.

- بيـا وأنـا كما قلنا متفقان حول احتياجنا لشـابة في البيت تعيننا في المنزل يوميا.

- شـكرا بِن ذلك يعني الكثير بالنسـبة إلي. تكسر صوت نانا. استأذنت بياتريس وراحت إلى المطبخ لتحضر العشاء.

- نحن نتطلع إلى مجيء ماriاما هنا. لم تعد بياتريس قوية. إنها في الحقيقة ليست بصحة جيدة.

- يؤسفني سماع ذلك. بدا الاستفسار على وجه نانا.

- لا تحـب بيـا أن أقولها كما هي ولكن الموقـف حرج. نظر بِن إلى الأمام متفكرا.

- كان علـيّ بالفعـل إقناعها. لم تود أن تسـمع شـيئا عن عدم قدرتهـا علـى تولي كل شـيء وحدها ولكننا بحاجـة إلى ماريـاما لتسـاعدنا فـي الأعمال المنزليـة، وعلى الأخص بيـا بحاجة إلى رفقـة عندمـا أكـون بعيدا عن البيـت في مهمة لفتـرة قصيـرة أو طويلة.

خجلت نانا من لسعة الغيرة التي شعرت بها لفكرة أن ماريياما ستكون رفيقة بيا، وأن الاثنتين ستكونان على علاقة قريبة فيما بينهما أكثر من علاقتها مع ماريياما.

- آمل أن تتمكن من الدراسة لتحسّن إنجليزيتها. حشدت نانا كل ما هو غير أناني فيها.

- علينا الآن أن نركّز من أجل استخراج فيزا لها.

- هذا هو أكثر ما يقلقني، تنهدت نانا.

- الذي لا يؤمن بالمعجزات ليس واقعيا. شرد بِن مع أفكاره. تفاؤله المتسرع منح نانا الشجاعة للوثوق بأن الحلم بماريياما يوشك أن يتحقق.

- لم أتوقع أن أحضر للعشاء. هذا كثير. شعرت نانا بأنها فرضت نفسها عليهما.

- أنت بحاجة إلى وجبة دسمة. ستأخذ الرحلة من الوقت الكثير قبل أن تصلي بيتك في كوبنهاجن، قال بِن. رفضت نانا وجبة إضافية ونظرت من حولها. لم تكن في بيت من قبل بهذه الكمية من الكتب وبهذا الجمال. ليس لديها غير رفوف ببضعة كتب من أدب المطارات والفلاسفة الكلاسيكيين. ربما لأنها كانت تعيش حالة حب ليس مع بِن وبياتريس بل مع علاقتهما ولذا لم تستطع تجنب طرح سؤال شخصي عليهما. لم يكن هذان الشخصان مجرد صفقة عمل بالنسبة إليها.

- كيف التقيتما أنتَ وبياتريس؟ قالت له. لم يبد بِن خجلا من تصرفها المباشر.

- التقينا في مرحلتنا الدراسية الأولى. كانت بيا أكثر اجتهادا

تحصل على درجات أعلى مني. كانت النجمة في مجال دراستنا الأنثروبولوجيا.

- ألست طبيبا بيطريا؟ تذكرت نانا ذلك منذ لقائهم الأول في الفندق في غامبيا. كانت لها دوما ذاكرة قوية.

- لديّ العديد من الشهادات الدراسية. قال باختصار وتابع.

- كنت أنظر لبياتريس كقدوة لي بالفعل. ولكنها منذ ذلك الزمان وصحتها ليست على مايرام. علمنا من النظرة الأولى أننا سنكون معا. لم نعرف بالطبع خلفيات بعضنا. سرعان ما أدركنا أن قصة بياتريس بدأت عند ولادتها، وقصتي تعود إلى آدم وحواء، إن جاز القول. على المستوى الروحي فنحن من نوع واحد، قسما أفلاطون اللذان يبحثان ويجد أحدهما الآخر كما تعرفين.

- لا أفهم حقيقة.. ولادة بيا؟

لم تستطع نانا السيطرة على فضولها.

- إنها معجزة علمية. قال بِن وأغلق على بقية الأسئلة.

- هل تفكرين في الارتباط بشريك؟ تابع.

- لقد بدأت التفكير في هذا، اعترفت نانا، إن ظهر الشخص المناسب... أو.. ربما هو موجود.. لا اعتراض لديّ على علاقة ثابتة على الرغم من أني كامرأة وحيدة أجد نفسي في حال جيدة جدا. لا أصلح حقيقة لعائلة.

- ومن هو إذن المختار؟

- زميل وصديق لي.

- يجب أن تتوافر لدينا الرغبة في الانتماء لكي تنجح الأمور.

- ربما لا أملك ذلك بداخلي، تمتمت نانا.

- يعتمد ذلك بالطبع على الاختبار.

- لن تجد مارياما مكانا أفضل لتكون فيه غير هنا. عندكما، انطلقت نانا قائلة لتحاشي الحديث عن نفسها.

- أنتِ مهتمة بالفعل بأمر هذه الطفلة. نظر إليها بِن متفحصا.

- إنها تهمني. تنحنحت نانا خجلا.

- أهذا جين المساعدة؟

- لا، ليس كذلك.. إنها.. روح..

- هل أنت متأكدة من أن القطاع المالي سيأخذ «الروح» في حساباته؟ قال مناكدة.

- لا أستطيع أن أجد كلمة أخرى.

- كلمة لمن؟ نظر بِن ثانية إليها نظرة حادة.

- كلمة لمارياما. شعرت نانا بحرية وطبيعية برفقته.

- سنعمل على الاعتناء جيدا بـ «روحكِ». إن حصلنا على تصريح من دائرة الهجرة البريطانية، ولكن دعينا أولا نحاول المستحيل.

- هل تعني أنه لا مجال لمارياما؟ قالت نانا بانكسار.

- العشوائية والاضطراب بشأن قوانين الفيزا في المملكة المتحدة يمنحنا فرصة ما. كان بِن يشعّ بالثقة ما جعل نانا ترتخي. جلسا للحظة صامتين. وضع يده على كتفها.

- نحن ممتنان جدا لقبولك العمل لشركتنا B&B كمستشارة مالية.

- يشرّفني ذلك، أكدت نانا. تعاملها مع الأرقام الجافة، الرسوم البيانية والحسابات من شأنه أن يدعم ثقتها بنفسها.

أخبرتهما بياتريس من المطبخ في الأسفل أن العشاء قد جهز. نهض بِن وقد بدت لياقة جسمه واضحة.

- دعينا نرَ كيف ستتطور الأمور بشأن مارياما.

- ولكن إن فشل طلب الفيزا؟ تبعته في نزول السلم إلى الطابق الأرضي.

- سنجد مخرجا. هناك دوما أكثر من حل لمشكلة ما. كان لبِن علاقاته وبإمكانه الضغط على بعض الأزرار التي تتبوأ مناصب عالية في الدولة.

- شكرا، عزيزي بِن، شكرا، فكرت نانا. أدارت نظرها صوب السقف الخشبي الجميل في شك من أمرها فيما لو كانت في العالم الواقعي. هل كان هوسها باستقدام مارياما إلى أوروبا مجرد خيال لا يوازي أمنيات مارياما ذاتها؟ لم تسألها نانا قط. إنها لم تفعل غير أن تستجيب لإشارات الطفلة الواهنة حول مجيئها إلى أوروبا بصفة مساعدة عائلة. ربما كانت «فيزا» و«أوروبا» كلمات حالمة علقت في الهواء مثل حرز متاح لكل من كان بحاجة للتشبث بأمل.

كانت مائدة الطعام في المطبخ المفتوح الكبير قد أعدت. أخذ كل منهم مكانه وفتح بِن قنينة شراب. شعرت نانا بضيق بسبب علمها بمرض بياتريس ولم تعرف ما عليها قوله. بدأ المطر بالهطول خارجا. فتح بِن الباب المطل على الشرفة والحديقة الخلفية. بدا كأن الوقت قد توقف. كانا بعيدين جدا عن ذلك

المساء اليوفوري والحديث المنساب في المطعم في فندق جولدن باي. كسرت بياتريس الصمت بصوت قاتم لحني:

- من المؤكد أن بن قد فضفض لك عن قلقه بشأن صحتي.

- أجل أنا قلق من أجلكِ حبيبتي، اعترضها بِن بقوله. تابعت بياتريس غير مبالية.

- ذلك صعب عليّ كما ترين أن أتحمل مسؤولية بنت شابة وأمنحها عائدا لإقامتها. أخشى أنها ستشعر بالملل معي أنا وضعفي عندما يكون بن بعيدا. نظرت بياتريس إليه بقلق ولم تكن منتبهة تماما لوجود نانا. تعرفت نانا على أجواء حديثهما منذ كانوا في غامبيا والذي يبقيها خارجا بينما يدعوها إلى شراكتهما الروحية ذات الوقت.

- نحن معا في هذا حبيبتي لست وحدكِ. أرسل بِن الخبز المحمص ليدور بينهما.

- عندما تكون بعيدا في مهمة سأكون وحيدة.

- أنا أسافر فقط في المهمات القصيرة لأسبوع أو أسبوعين كل مرة، وأنت لن تكوني وحيدة لديك مارياما وهذا هو المقصود. كان بِن واثقا بكونه قد عمل اللازم لأجلها.

- هذا ما أقصده لا أريد بالخصوص أن أرفّه عمن سيكون معي.

- لن ترفهي عن أحد، عليك أن ترحبي وتستمتعي برفقة بنت شابة، تنصتان إلى الموسيقى، تذهبان إلى معارض فنية، وكل ما لم يكن لديك وقت له لسنوات، أقنعها بِن.

كان من الواضح أن نقاشا قد دار بينهما من قبل. لم تشأ نانا

التدخل. كل ما كانت ترغب فيه هو إلغاء كل شيء والعودة إلى ما كانت عليه ثانية. كأن بياتريس قد قرأت أفكارها استدارت نحوها فجأة:

- أرجو ألا تسيئي فهمي نانا. أريد من كل قلبي أن تكون مارياما عندي. ولكني غير واثقة بقدرتي حتى ذلك الوقت.

- الطفلة ستكون مخففا وليس ثقلا على أعبائك. كان صبر بِن بلا حدود. جمع الصحون ونهض ليقدم الوجبة الرئيسية طبق باستا مع صلصة معجون الزيتون.

- هذه تحفة بيا، أعلن بِن بزهو. كان مرض بياتريس عائقا آخر، كان على نانا أن تتجاوزه إن كانت تأمل في استقدام مارياما إلى لندن. كان بِن وبياتريس احتمالها الوحيد.

- عليك أن تثقي حبيبتي. أرادت نانا مساعدة روحها الشابة في طريقها. أرسل بِن إليها نظرة تفهم جانبية. ارتبكت بياتريس ولكنها تظاهرت بلا شيء. أضاء وجهها بشفافية مطفأة.

- وأنا سأساعدكِ عزيزتي، أضاف بِن وهو يحرّك عضلات وجهه بشكل مضحك ليجعل بياتريس تبتسم.

- اثنان ضد واحد، قالت بجدية ورفعت نخبا بكأس من المياه المعدنية. لم تحب نانا المنحى الذي آل إليه الحديث. هي لا تود أن تخلق فرقة بين الاثنين.

- لا يجب أن تشعري بأنك مضغوط عليك، أسرعت بالقول بتأنيب ضمير لأنها جرّتهما إلى الدخول في مشروعها مع مارياما.

- لا تقلقي، كان ذلك لحظة مراجعة للذات، قالت بياتريس

بلطفها الناعم وقدمت المزيد لها من طبق الباستا.

- بِن وأنا متفقان حول حاجتنا إلى مساعدة في المنزل. لذا فلم لا تكون مارياما؟ قالت بخفة لم تبدُ مطمئنة لنانا تماما.

- نانا وافقت على أن تكون مستشارة مالية لنا، قال بِن بمرح.

- شكرا نانا. بدت بياتريس هشة جدا كمن خلق من زجاج. لم تر نانا لسذاجتها أن تلك الانطباعات التي تتكون من خلال تعارف سفرة واحدة لا تمنح بالضرورة صورة حقيقية.

- دعينا نجرّب، أليس كذلك بيا؟ قال بِن.

- أجل بالطبع. ابتسمت بياتريس ابتسامة بعيدة.

أصرّ بِن بعد القهوة والكيك الذي صنعته بياتريس بالتوت البري الأزرق على أن يري نانا أنحاء البيت. كانت هناك ثلاث غرف للنوم في الطابق العلوي. لكل من بِن وبياتريس غرفته ومن المفترض أن تكون الغرفة الثالثة في نهاية الممر لمارياما. أوضح لها.

كانت هي غرفة الأطفال سابقا والتي كما يبدو ظلت على حالها منذ انتقل منها طفلهما أو أطفالهما.

- بحاجة إلى تلميع. قال بِن الذي بدا أخيرا متعبا. لحظت نانا أن الغرفة المتروكة كانت تعود إلى مراهق بأسطوانات روك ومضخّم للصوت مُدمَّر وأكوام من الموصلات جعلت الأرضية تشبه مزرعة دود.

- نحن نحتاج إلى شباب في هذا البيت، إلى موسيقى عالية، مذكرات سرية وجروح عشاق، قال بِن. فكرة أن تكون مارياما في هذا البيت اللندني المتين والمثقف بدت غير حقيقية لنانا. الألق

قد اختفى من خطتها اليوفورية بشأن منح ماريـاما حياة أفضل. لم يعد بمقدورها رؤية ذلك.

- نانـا، سيسـير كل شـيء علـى ما يـرام، قال بِـن عندما وقفا عند المدخل بانتظار التاكسي. حضنتها بياتريس وأكدت لها أنها متهيئة مائة بالمائة لاسـتقبال ماريـاما. سـألت نانا نفسها: «لماذا يفعلان ذلك، لم أفعل ذلك؟».

اسـتبد بنانـا فـي الطائـرة إلـى كوبنهاجـن القنـوط وفكرت ثانية أن من الأفضل لها أن تمول دراسة ماريـاما في بلدها الذي تنتمي إليه. وبعد لحظة تتذبذب حول الفكرة المعاكسة. لن تأمن لحصـول ماريـاما على دراسـة من غير مجيئهـا إلى لندن. لا تود أن تعيش بقية حياتها في لوم نفسها وتأنيب ضميرها بشأن عدم قيامها بكل ما هو ممكن إنسـانيا من أجل ضمان مسـتقبل لها. وكلما احتست المزيد من الشراب الذي يقدم مجانا في «البيزنس كلاس» زادت قناعتهـا بخصوص القيمة العليا في ضرورة مجيء ماريـامـا إلـى لندن لتقيم عند بِن وبياتريس ومعها كمتعهدة من أجل انتشالها من التعاسة.

اتكأت نانا إلى الخلف في مقعد الطائرة الواسع ورأت حياتها الجديـدة أمامها مثل فيلم تترأسـه البطلتان اللتان اتحدتا بعد سلسلة من الصعوبات. أغمضت عينيها.

وتخيلـت كيـف أن ماريـاما وبعـد لقاء مؤثـر بوصولها والمرور البطيء للشهور والسنوات تتفتح وتصير امرأة شابة ذكية جميلة وقد أخذت شـكل صورتها هي. سـتكونان مثل أختين تتشـابهان، وفي الوقت نفسه مختلفتان.

٣
خيال

وقعت عينا نانا عليها بعد أن انغلق الباب الأتوماتيكي من خلفها وقد وقفت جامدة قاطعة الطريق على جمع المسافرين التالي المتوجه إلى قاعة الوصول. بدت مارياما تائهة، مرعوبة تقريبا مما حولها وهي تمسك قويا بحقيبتها الرياضية من النايلون. شعرها الرمادي قد تمّ تنزيله فبدا مسحوبا متصلبا مثل باروكة. كانت ملابسها خفيفة جدا بالنسبة إلى الطقس الإنجليزي. لقد أرسلت نانا لها مبلغا وفيرا من أجل شراء ملابس دافئة والتي كما يبدو قد استخدمت لحاجات أكثر إلحاحا في العائلة.

كانت تبدو أكثر نضجا عند النظر إليها، أطول وأكثر انتصابا في قامتها وأكثر نحولا أيضا خلال السنتين اللتين مرتا قبل حصولها أخيرا على الفيزا إلى المملكة المتحدة. لم تحصل على شهادة جيدة بيدها لدراستها التي لم تتمها. وبرغم الدرجات المُرضية نوعا ما من ثانوية «كانيفينج» لم يكن استخراج الفيزا للخريجين أمرا سهل المنال. وقد كان استهلاكا وضغطا للأعصاب بسبب الآمال الخائبة والتفاؤل اليوفوري قبل أن تتمكن نانا من

دفـع رسـوم الدراسـة لفصلين دراسـيين في كليـة Southwark وتضمن إقامة مارياما بنسخة مطبوعة من حساباتها في البنك.

وقد تمكنت أثناء هذه الفترة وبمساندة ودعم صادق من هانس أن تسيطر بعض الشيء على حياتها وأن تنهض من إحباطها في «روار». الثَلْمُ الوحيد كان في أن تختار الذهاب إلى لندن وأن تترك هانس بالتالي. لم يكن بمقدورها أن تتدبر أمر علاقة ثابتة، وفي الوقـت نفسـه تتكيف لحياة جديدة مـع مارياما. بـل إنها أخذت تشعر بجسدها بقربه وكيف صارت غريبة عن نفسها كأنها أخرى معـه. أوهام، أوهام، تقول لنفسـها وتعود مجـددا لتكون حاضرة. إنهـا لا تـودّ أن تتـرك للسـينتيمانتالية لتقودهـا. لقـد اتخـذت قرارا وعليها التمسـك بالمعجزة التي، بفضل المعاناة المشتركة، قد استحصلت فيزا لمارياما إلى المملكة المتحدة الموعودة.

فرح مارياما الغامر في الأسابيع الأخيرة قبل سفرها كان مؤثرا للمشاعر. قد أمطرت نانا بوابل من المكالمات عبر الموبايل وكلمات الشـكر المخنوقـة بالبـكاء، «ثانك يو، ثانـك يو، ثانك يـو». هزّها كـون مجـرد مبلغ صغير نسـبيا يمكن أن يبعث كل هـذا الامتنان البهيـج. ولقد تحدثـت أيضا مع والدة مارياما على الهاتف. قد جاءت من القرية لتودع مارياما وقد حيّت نانا أيضا بكلمة «ثانك يو» خاضعة روتينية ثم تركت الموبايل في الحال ثانية لمارياما.

ظلـت مارياما واقفـة كأنها قـد زُرعـت منتصـف الزحمة في المطـار. لوّحـت لها نانـا بذراعيها عاليا وشـعرت بخيط رفيع من الخيبـة مثـل بالونـة يتسـرب منهـا الهـواء. كان تقريبـا إحباطا مفاجئـا بعد وقت الانتظار الطويل المتوتـر وقبل أن تخرج أخيرا

إلـى صالـة الوصول. القلق قد تملك نانـا قبلها خوفا من حدوث شـيء سـيئ، فلربما لم تأت في هـذه الرحلة. ولـم يخبروها عند الاسـتعلامات بغير أن الطائرة قد حطّـت في الوقت المحدد وهذا التأخير طبيعي للمسافرين من غرب أفريقيا حيث يمرون بنقاط تفتيش.

وقعـت عينـا ماريامـا علـى الوجه الوحيد الـذي تعرفه فبدأت بالتحرك ببطء وبدفعات صوب نانا ثم توقفت فجأة بضعة أمتار على مبعدة منها.

- افتقدتـكِ، أمي ترسـل لـكِ بحبها. إنها فرحـة جدا لأجلي، همست لاهثة. شعرت نانا بأن الدموع تحاصرها.

- دعينـي أحمـل حقيبتكِ، قالت لها. ولكـن ماريامـا لم ترغب في إفلاتها من يدها.

- ستلتقين بمضيفيكِ. وضعت نانا يدها بحذر حول كتفها.

- مَن؟ سحبت ماريامـا نفسها من نانا.

- هيا تعالي عزيزتي، قالت نانا بهدوء.

- لقـد أخبرتكِ أن بِـن وبياتريس هما مضيفاكِ ولكن يمكنكِ البقـاء عنـدي بالقدر الذي تريدينه. أنا أسـكن قريبا جدا، أكدت لها نانا.

- لا أريد أن أكون بالقرب، أريد أن أسـكن عندكِ، قالت ماريامـا بانفعـال واسـتدارت مبتعـدة عنهـا. لم تظهـر نانـا ردة فعل ولم تستمع إلى عنادها.

بِـن وبياتريس اللذان انسـحبا إلى الخلف خـلال ذلك تقدما إليهما. مدّ بِن يده لماريامـا مُرحبا بها في لندن. صافحته ماريامـا

على مضض بأطراف أصابعها.

- شكرا، همست وأحنت رأسها.

- بِن وبيا. قدمتهما نانا لها.

- نحن متشوقان لمجيئك عندنا في البيت، قالت بيا وحضنتها.

- هيا، لنذهب إلى البيت ونأكل، لابد أنك جائعة. رفع بِن حقيبتها فنظرت ماريااما إلى نانا بارتباك.

- سأسكن عندك أليس كذلك؟ همست وهي متشبثة بقوة بذراعها.

- لا تقلقي بشأن هذا ماريااما، قالت لها. استسلمت ماريااما وتركت لـ «بِن» أن يحمل حقيبتها إلى اللاند روفر التي كانت في محل توقف السيارات قصير الأمد خارج قاعة الوصول. أخذت بيا يد نانا وعصرتها لتطمئنها وتؤكد مسؤوليتهم المشتركة. هل يعني هذا الاعتناء أنها فقدت ماريااما مقدما ليأخذها كل من بِن وبياتريس؟ شعرت نانا بهدوء غريب كمن ينظر إلى أسفل هوة. هذا الخوف المضبب الذي عاشته في الستة أشهر الأخيرة قبل مجيء ماريااما قد تجسد.

حصلت ماريااما على جولة لترى أرجاء طوابق البيت الثلاثة كلها عند بِن وبياتريس في بورتلاند رود. تفحصت كل شيء من دون أن يحمل وجهها أي تعبير ولم تُبد إعجابا بالمحيط المريح. كانت تهزّ رأسها متعرفة كأنها قد عاشت كل شيء من قبل في حياة أخرى أو في مسلسل أمريكي. تركت نانا لحالها بينما استقرت ماريااما في غرفتها التي تم تجديدها وأزيل منها كل أثر لمن أقام فيها من قبل.

فكـرت فـي القرب الذي صـار بينها وبين بن وبياتريس بسـبب الجهود المشـتركة من أجل اسـتقدام ماريـاما إلـى المملكة المتحدة وفـي فرحها للصداقة التـي جمعتها بهمـا أول إقامتها في لندن. لقد سـارت بمكتب B&B الاستشاري عبر الأزمة من دون خسارة كبيرة وبهذا دعّمت رأسـمال الشركة. كبرتْ بصمت وهدوء في ظل تقدير الأصدقاء وتعزّز هذا الشـعور الغريب الذي يشـبه الرباط العائلي بينهم.

راقبت نانا عند الغداء رد فعل مارياما إزاء الطعام ولم تتمكن نفسـها من بلع ولو لقمة. ولكن ماريامـا تناولت بأدب كل ما قُدِّم لهـا. لقد تصرّفـت عموما مثل سـيدة تدبّرت الموقـف غير المعتاد بلياقتها على طريقتها. تطلّعت نانا للتسوق معها وملء خزانتها بالثيـاب وبالأخـص اصطحابها إلى حلاق جيـد. لقد اتفقت مع بن وبياتريس على أن تتولى هي أمر ثيابها ومصرف جيبها بينما يتكفلان هما بطعامها وسكنها وراتب قليل لقاء الأعمال المنزلية البسـيطة لكي تتصرف به كما تشـاء. أن ترسـله كله إلى عائلتها أو تقسـمه بـين الأم والخالـة روزي. كانـت مارياما كمـا قالت هي «إنسـانة طيبة» وحريصـة جدا على تولي دور المعيـل للعائلة بعد إقالة روزي من عملها في البنك.

كانـت أجـواء حميمية حـول مائدة الطعـام. شـاركت مارياما بالحديـث على شـكل إجابـات مختصرة على أسـئلة محتضنيها الثلاثة.

قطعـت فجـأة الحديـث ووضعت الشـوكة والسـكين جانبا ثم تنهدت عاليا.

- أنا تعبة جدا، قالت ونظرت في الصحن أمامها.

- الا تريدين المزيد؟ سألتها نانا مرتبكة. لم تستطع أن تجيد دورها كشريك ثالث. هزّت مارياما رأسها نفيا.

- اذهبي مع نانا فوق إلى غرفتكِ وافتحي حقيبتكِ واستريحي بينما نرفع الصحون، اقترحت بيا وهي تنظر إلى بِن. نهضت مارياما ونانا بكل أدب وصعدتا إلى الطابق العلوي.

رفعت نانا مفرش السرير وطوته بعناية جانبا. رمت مارياما بجسدها على السرير ورأسها إلى الجدار. جلست نانا على الحافة.

- ليس لديَّ ما أخرجه من الحقيبة، تمتمت مارياما. كان ظهرها النحيل الطويل داخل سترتها الخفيفة يسطع بالإهمال الذي يقطّع نياط القلب.

- أنا لا أتفق معك نانا، قالت واستدارت.

- ما الذي لا تتفقين معي فيه عزيزتي؟

- هذان الاثنان في الأسفل. وأشارت إلى الأرض.

- إنهما صديقان طيبان ومثلك «ناس طيبون».

- أنا أفتقدكِ. أخذت مارياما يدها.

- أنا هنا عندكِ، طمأنتها نانا.

- أنت ستروحين وسأبقى وحدي.

- ولكننا سنلتقي كل يوم، قالت نانا وهي تعلم جيدا أن ذلك لن يكون كل يوم.

- مذ أخذتني الخالة روزي من القرية إلى سيرا كوندا وأنا أفتقد أمي دوما. أنا أفتقدها هنا. جلست مارياما على السرير.

- بإمكانكِ الاتصال بأمكِ كما ترغبين.

- ليس لديها تليفون. دمعت عينا مارياما وعادت ثانية الطفلة الصغيرة التي التقتها نانا على الشاطئ حيث فندق «جولدن باي». أخذتها إلى صدرها وأخذت تهدهدها. استغربت أمر أنها ومن دون أن تفكر عرفت ما الذي يجب فعله. كأنها ليست هي تلك التي جلست على السرير تحضن طفلا بين ذراعيها بل امرأة أمومية أخرى قد استولت على جسدها.

- سنتدبر أمرنا من دون شك، همست نانا لها. تملصت مارياما منها بحركة مفاجئة.

- لقد فحصوني في المطار.

- فحص جسدي؟ سألت نانا مرتعبة. هزّت مارياما رأسها إيجابا.

- هل كان ذلك السبب في تأخركِ قبل الخروج إلى صالة الوصول؟ لقد قلقنا حقيقة بشأنك.

- هكذا. تجنبت مارياما سؤال نانا وتركت يديها تنزلقان على جسدها.

- بأيديهم؟

- بالجهاز الكشّاف، قالت مارياما بخجل.

- على ملابسكِ؟

- طبعا، قالت ولم يبد ذلك مقنعا.

- ليس أكثر؟ أصرّت نانا ولكن مارياما انغلقت وانسحبت إلى داخلها. أيقنت نانا من استحالة الحصول على المزيد من المعلومات منها.

نهضت ماريامـا وشـرعت تتفحص بقلـق الغرفة ومحتوياتها. تم التدقيـق في طاولة الكتابة. وقُلبت الرقعة فوق سـطح المكتب أسـفل أعلى وأعيدت إلى مكانها بالمقلوب. كرسـي المكتب بغطائه الجلدي البيج تم تدويره ثانية وثالثة. الجوارير الفارغة للمكتب سـحبت خارجـا الواحد بعد الآخر وصفقـت بعنف ثانية. وجدت سـلة المهملات تحت المكتب فوضعتها على رأسها كأنها تسخر من نفسها.

- ضعي السلة في مكانها ثانية، قالت نانا.

- لستَ نفس الـ نانا التي كانت في غامبيا.

- أنـا نفسـي طبعـا، أنزلي ذلك من على رأسـكِ أرجوك، قالت نانا منزعجة. ظلت ماريامـا غير مبالية تقف والسلة بتوازن على رأسها.

- ضعـي سـلة المهمـلات فـي مكانها، أصّـرت نانا. لـم تتحرك ماريامـا.

انتظـرت نانا وصمتـت. وبقيت ماريامـا صامتة مثلها. يئسـت نانا أخيرا وتوجهت إليها وأخذت السلة ووضعتها في مكانها.

- تعالـي واجلسـي بجانبـي، قالـت بنعومـة. من أيـن جاءها هذا الشعور الغريزي في كيفية معاملة طفل لم يعد طفلا، فكرت نانا مع نفسها. جلست ماريامـا بجانبها. شعرت نانا باحتياج قوي لمساررتها.

- لقـد تركـت عملي وانتقلـت إلى لندن، بـدأت بالقول. صَعُبَ عليهـا أن تقولها بصوت عـالٍ. لم تـخبر بن وبيا عن وضعها الذي تغير وهما لم يسـألا. كان من المسـلّم بالنسـبة إليهمـا أنها بدأت العمل في «سيتي».

- لا عمل، لا خبز، أكدّت مارياما. سخن خدا نانا ودار رأسها. لم تكن قد تجاوزت بعد صدمتها بعد أن علمت بعدم حصولها على عقد التوظيف لثلاث سنوات في فرع «روار- لندن» في شارع باسنج هول كما توقعت.

- كيف ستحصلين على النقود وأنت لا تعملين؟ كررت مارياما السؤال متشككة. كانت مازالت كشيء غير حقيقي بالنسبة إلى نانا وهي تجلس على السرير إلى جانبها بقربٍ غريب عجيب.

- لديّ مال في البنك، قالت نانا بتوضيح مفهوم بسيط لوضعها الاقتصادي المعقد. نظرت إليها مارياما بخوف كأن حياتها قد تعلقت بخيط رفيع. ندمت نانا على مفاتحتها مقدما بتغير وضعها وخشيت أن تسيء فهم الموقف وتتصور أنها صارت فقيرة وتفكر في أن تتركها مادامت أنها لن تستطيع إعالتها. أخذتها بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها.

- ثقي بي، قالت نانا وخافت من وعدها الجدي. سحبت مارياما نفسها بعيدا.

وجهها كان مرتبكا.

- شعرتُ باضطراب في البيت، هناك شيء ما..

- ماذا تعنين بهذا؟

- أمي أخذتني إلى مفسّر أحلام قبل سفري. لم تكن مرتاحة لوجود روح في أحلامي.

- أنت لا تصدقين بمثل هذه الأشياء أليس كذلك؟ شعرت نانا بخيبة أمل غريبة. نظرت مارياما بجمود أمامها متحاشية نانا. سمعتا ذات الوقت بيا تناديهما من المطبخ في الأسفل.

- ما الذي تعملانه في الأعلى؟ تعاليا لنتناول كوبا من الشاي.
كانت بيا تبدو فرحة مرتخية. نهضت نانا ومسّدت ثوبها. تأرجحت قليلا قبل أن تتوازن بكعبها العالي. خلعت مارياما حذاءها غير المريح ومشت حافية إلى الطابق الأسفل عبر السلم المنتصب.

كانت بيا في طريقها إلى الطابق الأرضي مع صينية الشاي. هناك الكثير من التفاصيل العملية التي يجب التحدث بشأنها، قالت وهي تمر سريعا. لم ترها نانا مشرقة هكذا من قبل. تمنت أن يكون ذلك مؤشرا لتجاوزها المرض الذي لم يذكر لها كل من بِن وبيا ماهيته تحديدا. جلس الأربعة حول الطاولة المربعة الثقيلة. بدت مارياما متضايقة تنظر إليها طوال الوقت.

- هل يضايقك شيء؟ سأل بِن.

- إنها الرحلة لا شك، أسرعت نانا بالقول.

- هل نقوم بنزهة لترى مارياما المنطقة؟ اقترحت بيا. كانت تعيش في عالمها ولم تلحظ أن مارياما لم تكن على مايرام.

نهضت مارياما من مكانها وانطلقت مسرعة إلى الطابق العلوي. بعد لحظة عادت بهدايا في أكياس شفافة سلمتها لكل منهم. قلادة من صدف المحار لـ «بيا»، وسوار من اللؤلؤ لنانا، وحرز بشكل قناع خشبي غير ملون لبِن.

- من أمي، قالت باعتداد. تساءلت نانا في سرها عن أمر عدم ذكر الخالة روزي. هل يكون السبب هو خيبتها لعدم تمكنها من الاحتفاظ بمارياما فانسحبت من دورها كأم راعية لها.

لقد أسرّتها مارياما بأن العائلة بأجمعها تخشى غضب الخالة روزي ولعناتها.

- هذا حقـا لطف منك عزيزتي، قالت بيا وحضنتها. حضنها بِـن أيضـا. نظرت مارياما باستفسـار إلى نانا ما أكـد لنانا وجود تواصل خاص أعمق بينهما.

بينما كانت نانا سارحة مع أفكارها وهي تتحسس سوار اللؤلؤ بين أصابعها كان بِن وبيا قد أجلسـا مارياما بينهما على الأريكة. بيـا قد ارتدت قلادة المحار حـول رقبتها. امّا نانا فلم تملك إلا أن تعجب بجمالها الناعم الداكن.

- لنر سوارك نانا، جاء صوت بِن ثانية. مدّت نانا يدها لتتناوله السوار وهي تعجب لأمر الاهتمام الذي أثارته بضع هدايا سواح. هذه البهجة البيتوتية حول الطاولة جعلتها فجأة غير مسـتقرة ومنحتهـا الشـعور بالبـلادة. اجتاحها شـوق عنيـف للعمل ولأن تكون في استنفار لأربع وعشرين ساعة.

- هل يمكن لهذا القناع أن يرعب السـحرة ويطردهم؟ أمسـك بِـن بالقنـاع أمام وجهه. هزّت مارياما رأسـها وبحثـت عن كلمات تقولها.

- إنهـا قصـة قديمة، دافعـت عن عدم رغبتها فـي الخوض في السـؤال عـن ذلـك المعتقـد الأفريقـي الغربـي بالسـحرة ولكنها جاهدت في سبيل أن تكون ضيفة مؤدبة كما أمرتها أمها أن تكون. لقد وجدت أمها أخيرا بعد ذلك الزمن الطويل عند الخالة روزي الـذي مرّ مـن دون تواصل عدا تحايا قليلة جدا ترسـل بواسـطة أفـراد العائلـة ممن كانوا يـزورون القرية. لقد أعـادت أوروبا أمها إليها وسرعان ما أخذتها منها ثانية.

- فكرة جيدة تلك التي اقترحتها بيا بأن ترى مارياما المنطقة،

لكي ترى أيضا محل سكني، بأنه قريب جدا منكما، قالت لتقطع فحص بِن المركّز للقناع الخشبي الذي جاءت به أم ماريياما من القرية.

نهضت ماريياما بارتياح واضح.

- ولنرافقكِ الطريق إلى بيتك نحن الثلاثة، قال بِن سعيدا لنانا التي كانت تتشوق إلى الذهاب لبيتها لتكون وحيدة. كانت في حاجة إلى أن تفكر وتستوعب ماريياما المفعمة بالحيوية بعد فترة انتظار طويلة مملوءة بالمكالمات الهاتفية المحبطة، المال الذي تنقل من يد إلى يد والخوف لئلا تحصل بالرغم من ذلك على تأشيرة دخول ويفشل المشروع بأكمله. يجب أن تعتاد الآن على حضور ماريياما الذي أثّر فيها مثل هجمة حمى. انفصلوا مسرعين من دون أن ينظر بعضهم إلى بعض عند مدخل سكن نانا في هنري ديكنز كورت التي تقع على مبعدة عشر دقائق من سكن بِن وبيا.

عادت ماريياما كأنها محشورة بين ضيفيها إلى البيت في «بورتلاند رود». كانا ظلين أبيضين شاحبين على جنبيها. أريكها أن هناك كلا من نانا الراعية لها وبِن وبيا اللذين ستسكن عندهما. سرعان ما تحسست ذلك البيت الأصفر الضيق الذي يشعّ بالنظام والانسجام ولكن اللمعان في الوقت نفسه محاط بحزن رمادي، هو ذاته الذي بداخلها والذي تريد ارتداءه كحجاب غير مرئي يحميها من الأرواح الشريرة.

في اللحظة التي خطوا فيها داخل البيت طلبت منهما الإذن لتأخذ حماما وانسحبت إلى غرفتها. أكدت لها بيا أن بإمكانها

فعل ذلك وطلبت منها أن تشعرهما إن احتاجت لشيء ما. سيتناولون الطعام في الساعة الثامنة ولكنها ستناديها إن نسيت الموعد. أغلقت مارياما الباب بحذر على نفسها في غرفتها لكي لا تحدث ضجة وأحضرت حقيبتها حيث التقطت منها طقم ملابس داخلية جديدا. إنها والدة مارياما لا شك، لا يمكن أن يكون غيرها من وضع سجادة صلاة في قاع الحقيبة من دون علمها. كان لونها أزرق مطرزة بألوان متفاوتة للأخضر مثل البحر في باكاو.

كانت الأم على علم بالتزام روزي الضعيف بالتعاليم الدينية وكانت تلومها بحضور مارياما على إهمالها في التربية لهذا الجانب. ولكن أسلوب الأم الخجول جعل روزي تسرع بالدفاع عن نفسها بهجوم عنيف يدور حول ظروفها العصيبة كونها أُما وحيدة لخمسة أطفال صغار ولرعاية ابنة يقتضي التكفل ليس فقط بمدرستها بل بكتبها المدرسية وملابس الزي الرسمي لها. نصحت والدة مارياما أختها بقولها إنها وأولادها ومن باب أولى بحاجة إلى حماية الله. كانت حينها تتحدث بصوت خفيض جدا حتى أن مارياما التي جلست إلى جانبها كانت بالكاد تسمع ما تقوله. كان ذلك في اليوم ما قبل السفر إلى أوروبا وهو يوم سفر الأم كذلك التي كان عليها أن تقطع طريقا طويلا من أجل عودتها إلى قريتها.

دخلت مارياما الحمام وفركت جسدها بالإسفنجة الصفراء الخشنة بنوع من الغضب حتى سخن جسدها وأضحى أحمر غامقا ثانية مثل باذنجانة. وبرغم اغتسالها المستمر أولا في

حوض الاستحمام وبعدها تحت الدوش لم تشعر بأنها نظيفة. لن ينمحي الجزء المتبقي إلا بالصلاة. جفّفت نفسها بالمنشفة الكبيرة جيدا وتسللت إلى الغرفة وارتدت تنورتها الطويلة وألقت إيشاربا خفيفا على رأسها. وضعت بعد ذلك سجادة الصلاة بوجهةٍ أمام النافذة تصورتها وجهة الكعبة في مكة. أغلقت الباب كي لا تقتحم بيا الغرفة لتذكرها بموعد العشاء. كانت ممتنة لضيافة مضيفيها ولكن قلبها كان عند نانا التي حققت حلمها الذي حملته بداخلها مذ بدأت العمل على الشاطئ برعاية روزي وقد كانت بالكاد تتمكن من الوقوف على قدميها تحت ثقل صينية الفاكهة على رأسها.

شعرت ركبتاها بخشونة سطح سجادة الصلاة عبر قماشة تنورتها. كانت أفكار أمها منسوجة بتلك السجادة المربعة الصغيرة التي رافقتها رحلتها الكبيرة التي تمنتها من دون أدنى تفكير.

تمتمت بأسماء «الله»، وصلّت من أعماقها بشكل لم تقم به منذ كانت طفلة عندما كانت تصلي مع أمها عند شروق الشمس. صلّت من أجل نقائها ومن أجل أن ينمحي العار الذي لحقها بالمطار يوم الحساب الكبير وأن تعود كما كانت من قبل. تركت نفسها لتصعد إلى أعلى سماء. كانت أخفّ وزنا من الطير، من دون وزن مثل ملاك. مرّت عبر قصور لؤلئية من الغيم، نافورات وأفواج من أسماك ملونة مبهرة. نظرت في عوالم بجمال غريب. جبهتها تلامس السجادة فتغلغلت في الأبدية.

نهضت وطوت السجادة. شعرت بأنها نظفت وهي الأنظف، «النظافة من الإيمان» كان من ضمن تعليم الطفولة لكنها كانت

تعلـم أيضا أن ذلك لن يدوم إلا لحين موعد صلاتها اللاحق وعليها لذلك ألا تفوت فريضته لتحافظ على نظافتها. تمنت لو كانت أمها إلـى جانبها لتسـتمتع بنصحها الروحي الذي لـم تكن بحاجة إليه في سـيرا كوندا، حيـث كلمات الخالة روزي كانـت أوامر فاكتفت هي بالصلاة بين فترة وأخرى عندما تتذكر ذلك. ولكن روزي أوفت بوعدها وأرسـلتها إلى المدرسة معظم شـهور السنة. كانت مارياما محظوظة مقارنة بالأطفال الآخرين. الخير كان مكتوبا لها. تطلعت إلى اليوم الذي تصير فيه نجمة مضيئة عندما يحين الوقت.

لم تكن نانا قد ألفت شـقتها الصغيرة في الشـمال من هنري ديكنـز كورت. وقت الفراغ الذي أجبـرت عليه والذي لم تعتده قد مـلأ الفضاءات بفراغ محرّض على صداع الشـقيقة الذي اشـتد جراء الضوء الحاد والحركة السريعة. كانت تسير بهدوء في شبه ظلمة مرتدية نظارتها السوداء عندما تشاهد التلفزيون أو تخرج نهارا. كان في مجيء مارياما ضغطا إضافيا لأعصابها.

واضطرت في الأيام التي لحقتها أن تحتجب تماما عن العالم من حولها.

لم تجلب معها سوى بضعة أشياء قليلة شخصية إلى شقتها. ألبوم صور لفترة الدراسة الذي خلّد حفلات القسم الداخلي وكل العلاقات الفاشـلة لتلـك الفترة التي كان العالـم فيها مفتوحا. تأثـرت برؤيتهـا لـكل ذلـك الشـباب الذي كانـت جزءا منـه قبل خمس وعشـرين سنة مضت. على سـدة النافذة وضعت بومة من البورسـلين الملكـي قـام أبوهـا بإهدائها لهـا ليذكرها باسـتخدام العقـل. لقـد تبعـت نصحـه الهـادئ والمسـافة كبـرت بينهـا وبين

الوالديـن كثيـرا حتى اختفيا عـن ناظريها. عندمـا نفد الخزي بسـبب خيانتهمـا كانا قد تلاشـيا ببسـاطة معه. لم يمـرا ببالها قـط. ليس لهما وجـود في وعيها، ولا تنوي حتـى أو تتمنى ذلك مسـتقبلا. ولكـن في هذه الشـقة الصغيرة المؤثثـة المعتمة الضد المعاكس لبيت الطفولة المقموع بداخلها بفضائه الواسـع الكبير بدأ وميض من الذكريات الغائمة يتبعها مثل رجع في فيلم. نثار مـن أحـداث، وجوه تظهر فجأة على السـطح، أصوات صعدت من قاع البحر محمولة من قبل ذاكرة الغريق المحررة.

العمـل الـذي انغمسـت فيـه فـي «روار» جعل ذكريات الشـباب والصدمـات القديمة تختفي داخل عتمـة الكبت الذي كانت ترى أنـه المكان الذي تعود إليه. ولكن الأمور لم تسـر كما خططت هي والإدارة فـي «روار» فـي «أمار بوليفارد» لهـا. لقد توقعت أن تندمج هـي مـن دون صعوبـات مـع فريـق العمل فـي لندن والـذي كانت تتعـاون معه بانتظام عبر سـنوات في «روار» العالميـة. ولكن الباب كان قـد صفق بوجهها وأبقاها خارجا حتى إشـعار آخر. كان على فرع «روار- لندن» أن يختزل طاقم عمله بنسـبة عشـرة بالمائة. مع ذلـك فقد حصلت على اتفاق مـع مدير مكتب التوظيف للموارد البشـرية بهذا الشـأن حالمـا يتضح لهم مسـار الأزمـة المالية كما يأملون.

جلست نانا في المطبخ تستمع إلى موسيقى فاغنر في جهازها «الآي بـود» بينمـا كانت تنتظـر أن يمر الوقت حتى بلوغ السـاعة الرابعة لتتصل بجاكوب. لقد أرسلت له رسالة قصيرة تطلب فيها النجـدة منـه لتعجّل من موعد الجلسـة معه عبـر الهاتف. كانت

بحاجة إلى سيطرة لتتدبر أمورها في الفترة الأولى مع ماريام.

لم تستطع التعامل مع مشاعرها القوية تجاهها. لم تفهم من أين جاءت وماذا تحمل في ثناياها سوى أن تلك المشاعر مسحت هانس وافتقادها للاستقرار النفسي الذي أمدّتها العلاقة به. مدرب الحياة التابع للشركة رشّح لها جاكوب الذي دفعت أتعابه من جيبها. كانت «روار» كريمة في منحها ثماني جلسات لمرتين استنفدتها منذ زمن. نانا قبلت العرض كإثبات على تقدير الشركة لجهودها ولكنها لم تعد واثقة بشأنه فيما لو كان هدية لرجوعها أم لوداعها.

اعتاد جاكوب أن يجيب في الحال ولكن هاتفه مغلق. أقلقها ذلك. غير طبيعي. بقيت متهيئة والهاتف في يدها ولم تستطع التركيز على الكتاب الموضوع أمامها. كانت قد عثرت على «رسائل سينيكا» مصادفة في محل لبيع الكتب القديمة في هولاند بارك أفنيو حول مفهوم الوقت وموت الإنسان. رأت في ذلك إنذارا لوصولها مرحلة جديدة في حياتها. وكان عليها أن تقرأه ببطء، كلمة كلمة لتفهم المعنى. ابتعدت كثيرا عن دراستها الأساسية وهي الفلسفة. في المقابل فقد نجحت في تحقيق منصب وظيفي عال وخبرة جعلتها على اتصال مع مراكز المال في الكرة الأرضية كما منحتها بالإضافة إلى ذلك حياة مريحة وربحا ماديا وفيرا. ذلك كان يعني لها أكثر بكثير من المواد الفلسفية أجمع. ولكن خيبتها من فرع «روار- لندن» جعلها تفتقد غذاء روحيا.

اتصل جاكوب أخيرا وخلّصها من أفكارها المزعجة.

- آسف آسف، ذهبت مع ابني إلى الطوارئ بعد سقوطه المؤلم

من دراجته، ولكن كل شيء على ما يرام الآن. كاد يصيح في أذنها.

- أين أنتِ الآن؟ غيّر جاكوب نبرة صوته.

- وصلت مارياما لندن.

- صحيح؟

- لا أحتمل ذلك.

- لماذا؟

- لا أجد نفسي في كل هذا.

- دعينا نبدأ من هناك. لقد تحققت أمنيتك الكبيرة. لم يبد جاكوب حاضرا قريبا تماما كالمعتاد.

- يبدو أن علينا أن نكون حذرين بخصوص ما نتمنى، تمتمت نانا.

- لأجل مَنْ تمنيت أن تجلبي مارياما إلى لندن؟

- لم أطق فكرة هلاكها، من دون دراسة، من دون عمل، قالت بتردد.

- هل كان احتمالا فعليا أم هو مجرد تصورك بأنها لن تتدبر أمرها من دون تدخلك؟

- لم يكن وهما، قالت نانا بغضب.

- هل نتحدث عن موضوع إغاثة؟

- لا، هذا أمر آخر.

- كيف آخر؟

- شخصي أكثر.

- كيف شخصي؟

- لا أعلم شيئا غير أن كلا منا في محل ما مرتبط بالآخر جدا.

- كيف هي علاقتك مع أصدقائك؟

- بِن وبيا فيهما كل ما لستُ عليه.

- هل بإمكانك أن تعطيني أمثلة حول ما هما عليه وليس أنتِ؟

- إنهما شخصان منظمان مائة بالمائة في كل ما يقومان به.

- ألستِ كذلك؟

- ماريباما أفضل حالا معهما.

- إذا كان قرارِك جلبها لتسكن معهما هو الصواب، علّق جاكوب بجفاف.

- أجل ربما ولكن ذلك لا يجعل الأمور أسهل، قالت بانزعاج من استنتاجه السريع.

- أسهل لمن؟

- لنا جميعا.

- ما هو الأمر الذي ليس سهلا بالنسبة إلى ماريباما؟

- إنها تفضّل أن تسكن عندي.

- يجب أن يكون ذلك في موضع اختبار. وما هو غير السهل لبِن وبيا؟ تابع جاكوب.

- إني عبء ثقيل زائد عليهما. نهضت نانا من مكانها، مشتْ إلى النافذة ونظرت إلى الفناء حيث بضعة أولاد يلعبون كرة قدم بعلبة بيرة فارغة.

- ولكنه مشروعك أساسا، عارضها جاكوب.

لم تجبه نانا.

- وما هو الذي ليس سهلا عليك؟

- أن أدور هنا من دون أن أعمل شيئا. جلست ثانية.

- كم من الوقت مر منذ مجيئك لندن؟

- ستة أسابيع.

- إنها ليست فترة طويلة، مثل عطلة صيفية عادية من معلوماتي أنكِ لم تقضيها في السنوات الأخيرة.

- أنا غير مهيأة لشيء تماما.

- ماريام بحاجة إليكِ.

- ولكنها أفضل حالا معهما. كررت نانا.

- لا تدعي خوفك يسيطر عليك.

- أي خوف؟

- خوفك من مشاعرك لماريام التي وفوق هذا قد اخترت أن تكون أول أولوياتكِ.

- ربما كان ذلك أيضا قرارا خاطئا.

- لا يندم الإنسان لحصوله على طفل.

- أنا لا أهرب من مسؤوليتي، قالت نانا بغضب.

- لنكتف بهذا اليوم، ختم جاكوب حديثه.

- شكرا لوقتك معي، لا أعرف ما بوسعي عمله من دونك.

- يومك سعيد، اعتنِ بنفسكِ.

قال وأسرع للحاق بابنه المصاب، فكرت نانا مع نفسها ثم اتصلت بالحال ببِن وبيا. كانت ماريام من تناول السماعة.

- أين غبتِ؟ همستْ لها. صوتها الناعم المعاتب وخز ضمير نانا لأنانيتها السلبية.

- سآتي إليكِ في الحال، أسرعت بالقول.

- لا، أنا أريد أن آتيك، أصرّت ماریاما.

- هل تدلّين الطريق وحدك؟

- لقد مشيته عدة مرات ووقفت أمام بيتك.

- ماذا تريدين؟

- لم أجد اسمكِ على الباب.

- هل يمكنني التحدث مع بِن وبيا؟

- إنهما يعملان.

- بلغيهما التحية عني وقولي لهما إنك ستزورينني، وإن بإمكانهما المرور بنا بعد انتهائهما من العمل ليصحبانكِ، اقترحت نانا عليها. إن كان هناك من شيء تكن له كل الاحترام فهو العمل.

- سآتي الآن، قالت ماریاما باندفاع. جهدت نانا من أجل ألا تأتي بنصائح من قبيل أن عليها أن تنتبه لتدلّ الطريق وأن تتنبه إلى إشارات المرور. كان من الصعب عليها أن تراها من أهل المدينة ممن اعتاد على السير في فوضى المرور في سيرا كوندا.

وقفت نانا عند المدخل لتستقبل ماریاما التي صعدت السلم ببطء وبإيقاع يكاد يكون للتأمل وهي تقضم تفاحتها.

- كيف حالكِ؟ سألت نانا.

- شغل البيت كثير مثلما كان عند الخالة روزي. كانت ماریاما ترتدي معطفا قطنيا أزرق اللون مع بنطلون واسع من الصوف أخفى قامتها النحيلة، من ثياب بيا القديمة كما خمّنت نانا.

- هل دعوت بِن وبيا لتناول الشاي معنا؟ قالت لها. رفعت ماریاما كتفيها وهزت رأسها إيجابا في الوقت نفسه.

بينمـا كانـت نانـا تعـدّ الشـاي قامـت مارياما بمسـح سـريع للشـقة. لم تكـن نانا تميل إلى أن يطّلع أحـد على خصوصياتها وأن يسـتعرض فوضاها فـي الأدراج وخلف أبواب الخزانات. كانت الفوضى تحت السـرير كذلك حيث كومة كبيرة من ثياب وأحذية فقدت قيمتها. نادت نانا على مارياما لتأتي إلى الصالة. لم تكن متهيئـة لاسـتقبال ضيـوف ولم يكـن لديها غير قطع بسـكويت جاف للشـاي. جلسـت مارياما تضع مثل سـيدة سـاقا على ساق بطريقة تذكّر بـ «بيا» وراحت تنظر إلى ما حولها.

- هل هذه أشياؤك؟ سألت مارياما بشك واستدارت إلى نانا.

- لقـد قمـت بتأجيـر الشـقة مؤقتة، قالـت نانا. كانـت خيبة مارياما واضحة. صبّت نانا الشاي مستمتعة بتقديمه لها.

- هـل اتصلـتِ بأمك لتطمئن على وصولكِ؟ قالت مسـتغربة فقد توقعت مراعاة وتفكيرا منها لم تكن هي نفسها عليه.

- لقـد أخبرتـك أنـي لا أسـتطيع الاتصال بهـا. أجابت بنفاد صبر.

- ماذا عن الخالة روزي إذن؟

- إنها بعيدة. لقد سافرت.

- أين؟

- عادت إلى القرية، إلى زوجها.

- بإمكانـك الاتصال بالخالة روزي من هاتفي، قالت نانا وهي تحاول أن تجمع أفكارها للخبر الذي سمعته.

- أريد أولا الاتصال بعمي هنا.

- ولِمَ لم تتصلي به عند بِن وبيا؟

- أردتُ سؤالكِ أولا، همست مارياما ونظرت إلى ما حولها في الصالة كأن للحيطان آذانا.

- كوني عاقلة ماريامـا. بن وبيا هما مضيفاكِ هنا في لندن مقابل أن تقومي ببعض الأعمال المنزلية.

- شغل كثير في البيت، اعترضت مارياما.

- ماذا تفعلين؟

- أستيقظ قبلهما في الصباح كي لا يكون هناك انتظار بشأن الحمام. أعدّ الفطور لنا نحن الثلاثة. يحصل بِن على صينية في الطابق العلوي. هو ليس ممن يحبون الفطور. بدا واضحا أن مارياما لم تكن مرتاحة بشأن نقل تقرير عن عملها.

- يبدآن العمل في الثامنة والنصف. أنا أبدأ بالتنظيف وعندما أنتهي أقوم أحيانا بالتسوق. بعدها يكون الوقت لي حتى السادسة، حيث نتساعد في إعداد العشاء هكذا بشكل عائلي. سردت مارياما برنامج عملها عن ظهر قلب.

- سترتاحين عند بِن وبيا، بمجرد أن تعتادي وجودك بينهما.

- ولكن أنتِ الراعية لي، قالتها دفعة واحدة حزينة وقانطة.

- بإمكانكِ المجيء إليّ عندما تنتهين من عملكِ. لم تصدق نانا أنه لم يكن حلما أن تجلس في زاوية من الأريكة ومارياما إلى جانبها تتجاذبان الحديث كأنهما من عائلة واحدة.

- شكرا، شكرا نانا، قالت مارياما بانزعاج وسحبت نفسها بعيدا عن نانا.

- ما بكِ؟

- أخذونا إلى الخارج هكذا... وأدخلونا في غرفة باردة، قالت

ماريامـا غاضبـة. نسـيت نانـا كل مـا مرّت بـه مارياما فـي مطار «كاتويك» ولكنها حدست على الفور أن مارياما تتحدث عن ذلك.

- كان عليّ أن أقف وذراعاي جانبا... حتى ساقيّ. تقرفصت في مكانها على الأريكة.

- فـي كل مـكان.. تحـت الذراعين..أشـارت بخجـل إلى بعض المواضع في جسدها.

- و.. همسـت ولـم تسـتطع أن تلفـظ مـا حـدث، الانتهـاك، بشفتيها.

أصـاب نانا نوع من شـعور بالذنب لا يمكن تحديده ولم تعرف ما يتعين عليها قوله.

- شعرتُ بدوار.. غامت الدنيا في وجهي.. سمحوا لي بالجلوس على مصطبة.

- ما الذي كانوا يبحثون عنه؟ حاولت نانا أن تظل هادئة معها.

- مخـدرات، قالتهـا مـن دون اكتـراث كأنـه كان شـيئا معروفا للـكل. لـم يكن لديهـا فكرة عما تبحـث عنه الشـرطة إلا بعد أن قاوم أحد المسـافرين الشـرطة وأخـذ يصرخ اللعنـة ليس كل من أتـى من غرب أفريقيا يعمل في المخدرات وبطنه محشـوة بها من بوليفيـا. قامـوا بتهدئته وإبعاده عن المكان سـريعا وقد أرعبها ما سيكون عليه مصيرها بعد ذلك.

- يا للحظ أنكِ نجوت بارتعابكِ، حاولت نانا أن تواسيها.

- أعادوا جوازي إليّ.. ورافقوني في الخروج إلى حزام الحقائب.

- إنهـا القوانين بالتأكيد، يجب أن تعلمي أن عليهم أن يوقفوا المخدرات من الدخول إلى أوروبا، قالت نانا كأنها تفكر مع نفسها

بينما كانت تراجع أمر تقديم شكوى.

- أنـا بهذا لا أحـب القوانين، قالت ذلـك ثانية بصوت غاضب متظلم.

- يؤسفني أنكِ حصلت على هكذا استقبال مزعج، ألا تحاولين نسيان ذلك؟

- ليس بيدي.

- لا أريـد أن يحـدث لك شـيء سـيئ، أكدّت لها نانـا لتجعلها تفهم أنها تشعر بما مرّت به.

- لماذا شيء سيئ؟

- لأنكِ شابة وجميلة، قالت لها لكي لا تفزعها من دون داع.

- لا تقلقي نانا أنا لسـت جميلة بالمـرة، قالت وربتت على ذراع نانا.

- فـي عينـي أنتِ أجمل زهـرة في الحديقة وأحلى شـجرة في الغابـة. عجبـت نانا للصـور التي جاءتها من وحي قصص رسـوم الأطفال.

- مـا أجمـل هذا منك. لـم تعـرف ماريـاما كيـف تتجاوب مع إقرار الحب الأمومي لنانا الذي كان بعيدا جدا عن طريقة الخالة روزي المباشرة.

- لن أخذلك أبدا. قالت لها نانا وحضنتها.

- شكرا، شكرا نانا، قالت ماريـاما وتركت لنانا أن تحضنها. هذه الـ «شكرا شكرا» الأبدية بدت فجأة كأنها عائق لا يقهر بينهما.

- أنا أتمنى أن تراني أمي في بيت بِن وبيا، أتمنى أن ترى أن كل هذا الغنى موجود في الواقع، قالت بسعادة فجأة.

- بِن وبيا ليسا غنيين. قاطعتها نانا.

- ولكـن البيـت، اللانـد روفـر، وكل الأثـاث والأشـياء؟ سـألت ماريـاما.

- إنه بيت عادي. شكت نانا للحظة. كانت تجد نفسها من ذوي الدخل الأعلى، ربما كان كل من بِن وبيا في ذات المستوى. لم تفكر في ذلك من قبل. المال كان شيئا تتعامل معه بتخصص لا غير.

- أنا لا أحب النوم وحدي. تابعت ماريـاما.

- ولكن لديك غرفة جميلة.

- ولكـن كل هذه المسـاحة لي فقط وهذا البيـت الكبير لثلاثة أشـخاص فقط. كأن سـاكنيه ماتوا، وبيا وبِن الباقيان في حداد. ارتجفت ماريـاما.

- ولكـن تذكـري أنه مكان عملهما أيضا، دافعت نانا عن سـكن صديقيها.

- لـم أر فـي حياتي أحدا يعمل بالقـدر الذي يعملان عليه هـذان الاثنان. إنهما يعملان طـوال الوقت، كذلك ليلا. ليس هنـاك من ضيوف، فقط من يأتي للاجتماع خلف باب المكتب المسـدود. كانت ماريـاما سـريعة في حديثهـا حتى أن الكلمات تداخلـت بعضها في بعض، واسـتمرت بإخبـار نانا أن بيا وبِن لـم يراقبـا عملهـا، إن كانـت تقـوم به علـى الوجـه الأكمل أم لا. تطلـق الخالـة روزي على هـؤلاء «المتسـاهلين» مثل أمها. لا يتمتـع المتسـاهلون باحترام مـن المحيط هنـاك. وبالتالي احترام ماريـاما لأنها لم تكن مجرد سـائحة على الشـاطئ بل راعيتها التي تمكنت من تحقيق أشياء عظيمة.

- هل نتفق على موعد لنذهب للتسوق في المدينة ولنشتري لك ملابس؟ قالت نانا نشوى بفعل تصريح مارياما الذي ينطوي على ثقة بها.

- أنا أفتقدكِ نانا، أجابت مارياما بآلية. وهي لا تنظر بشكل مباشر إليها.

- هناك امرأة تستجدي عند عتبة «تيسكو»، قالتها من دون مبالاة.

- لم أتنبه إلى ذلك.

- أنا أعطيها النقود الصغيرة.

- عليك الابتعاد عن هؤلاء، نصحتها نانا. بدا العصيان على وجه مارياما.

- سأرافقك إلى البيت. لا أعتقد أن بيا وبِن سيأتيان. نهضت نانا وهي تنظر إلى ساعتها.

- إنهما يعملان كثيرا جدا، كررت مارياما بقلق. بِن وبيا كانا نسخة مطابقة للسيد والسيدة براون في أول كتاب لها لتعليم الإنجليزية. كانا يتحدثان الإنجليزية الراقية وينتميان إلى السلالة البريطانية الرفيعة نفسها التي كانت وفق الكتاب تعشق بيوتها وحدائقها التي تفوح بالورد الجوري وتقول «بيتي هو قلعتي».

كانت نانا في طريقها إلى السوبر ماركت «تيسكو» في هولاند بارك أفنيو. كانت تحب أن تخرج وتتسوق بملابسها الرياضية المستهلكة مكتفية بمعطف «البيربيري» فوقها. وقع بصرها في الحال على المرأه النحيلة الشقراء عند المدخل بشحوبها المضيء

فـي عتمة بعد الظهر. كانت ترتجف بمعطف من النايلون ترتدي قفازيـن وتضع سـيجارتها في فمها. السـاحة بين أشـجار الدلب العاليـة وواجهـات البيـوت بالمحـلات والمقاهـي بـدت مثل شـرفة زجاجية مغلقة. كانت المرأه راكسـة في مكانها متقرفصة. شعرها الأشـعث يشـبه عش طيـور. وفجأة تسـتدير برأسـها إلى الخلف لتقـول شـيئا ما. مثـل خداع الصـورة رأت نانـا ماريـاما موضوعة فـي الصورة بشـكل مائل مـن خلف المرأة على المنحدر الإسـمنتي الضيق لمدخل السوبر ماركت.

وقفـت نانـا موليـة ظهرهـا تنظر فـي نافـذة محـل النباتات الأكزوتيكية وأشـجار بونسـاي. لم تستطع تجنب سـماع نثار من حديثهما.

- هل أنت غبية أم ماذا؟ قالت المرأه لماريـاما عندما طلبت بأدب أن تكرر ما قالته قبل قليل.

- ذلـك على حسـاب كرامتي أن أكرر نفسـي، قالـت بامتعاض وقـد بدت مريضة. لم تعر ماريامـا لذلك اهتماما وظلت تنتظر. طلبت المرأه منها أن تنصرف فهي لا ترغب في التحدث مع من لا يفهمون اللغة.

- الإنجليزيـة هـي سـيدة العالم، مـن دونها فأنت لا تسـاوين شـيئا، ارتشـفت قدح القهوة ذا الغطاء. بقيت ماريـاما جالسة في مكانها في هدوء تضع كيس التسـوق الشـبكي في حضنها تتفرج علـى الناس المارين. دعتها المرأه لرشـفة من قهوتهـا الباردة وكما يبدو فقد سامحتها.

رفضت ماريـاما عرضها ونهضت واختفت في تيسكو.

- على مهل بلا عجلة وإجهاد، صاحت المرأه إثرها. عادت وحيدة مع قدحها الفارغ من القهوة واللوحة من الورق المقوى الباعثة على البكاء «شابة وجائعة» والتي من المفترض أن تخزّ ضمير زبائن تيسكو المهندمين مع أكياس تسوقهم الملأى. لا تظن نانا أنها تبدو شابة إلى الحد الذي يجعلها تجاهر بذلك بشكل مباشر. ظلت واقفة بانتظار أن تخرج مارياما مع كيس تسوقها. انضم إلى المرأه خلال ذلك رجل ذو كرش كبير من الكاوبوي وقد بدت المرأه أصغر بكثير في ظله. كان منظرهما يكفي ليكون مصدر استفزاز لنانا. لقد حاول كل منهم هي وبِن وبيا الكثير من أجل تحذير مارياما بشأن خطورة لندن بالنسبة إلى شابة مثلها ولكنها لم تكن كما يبدو واعية لجدية التحذيرات ما دام أنها اعتادت الاختلاط مع هذا النوع من الحثالة.

خرجت مارياما مسرعة من تيسكو مع أشياء قليلة في كيسها الشبكي. ارتاحت نانا وهي تراها تعبر المرأه مع رفيقها مسرعة ومكتفية بتلويحة متحفظة في طريقها.

بعد أن اختفت في شارع بورتلاند اقتربت نانا من تيسكو ودخلت مارة عبر الزوجين التعيسين اللذين جلسا يتوسطهما كوب مشترك للاستجداء ويرشف كل من قنينته. كانت تود لو تركل القدح البلاستيكي المشقق الذي يحوي حفنة من الفلوس في مجرى مياه الأمطار.

بعد أن باشرت مارياما في كلية Southwark حدث تغيير لافت عليها. كان يزداد وضوحا أكثر وأكثر في كل زيارة أسبوعية. لم تكن نانا راضية عن نفسها وعن افتقارها إلى القدرة في

تعاملها مع ماریاما التي ازداد اعتمادها على نفسها واستقلالها. لم تستطع معالجة الصراع العاطفي، محاولة التنقل بين اللين والشدة ولكنها لم تجد نفسها في أي منهما. كانت مجرد شكل اتخذته خارج ثيابها، استعارت ريشا من المبالغات التربوية. لم تكن لديها خبرة لتغرف منها في حياتها. لقد أدارت ظهرها لوالديها عندما كانت في عمر ماریاما.

في كل مرة توشك ماریاما على مغادرة البيت يحدث خلاف. كانت تصر على الذهاب إلى عائلة عمها وحيدة في «أبتون بارك» ولم تكن تتزحزح عن قرارها. حذرتها نانا من خطورة التحرك في شوارع لندن في المساء مع العنف المتصاعد والطعن بالسكين الذي يستهدف في الأغلب الطلاب من الشباب الأجانب.

- مضى زمن كاف على وجودي في لندن ولست بحاجة إلى من يتابعني مثل طفل صغير، ردّت ماریاما وهي تلوح بجوازها وتاريخ مولدها، وترجو نانا أن تحسب كم بلغت من العمر.

- شهادة ميلاد تم استخراجها من قبل الرجل الكبير بالطلب، يمكنهم استخراج ما شئت من الوثائق الرسمية، الشهادة ليست إثباتا لشيء، قالت نانا منفعلة وقد كتمت أنها هي التي دفعت بنفسها المبلغ المطلوب للأوراق.

- شهادة الميلاد مكنتني من الحصول على جواز في مركز الشرطة في كوتو ولذا فقد تمكنت من التقدم بطلب الحصول على فيزا إلى المملكة المتحدة، قالت ماریاما بانتصار.

- عليك إذن على الأقل أن تستقلي تاكسي، أصرت نانا.

- لندن ليست كما تتصورين أنت وبن وبيا. لم أقابل غير ناس

مريحين طيبين، عارضت مارياما بانزعاج للقلق المستديم لدى مضيفتها خشية ألا تتدبّر أمورها في لندن لما كانت بحاجة أكبر إلى نصح وإرشاد بخصوص أسئلة أكثر جدية.

- هل تقصدين أناسا مثل هؤلاء الذين تخالطينهم عند تيسكو، جاءت نانا بتعليقها اللاذع.

- إنهما صديقاي بيردي وخطيبها فيانس.

- لا أحبُّ مخالطتك لهذه الأنواع.

- أنا أحبهما لأنهما دائما في ذات المكان عندما أذهب إلى تيسكو. إنهما يحكيان لي الكثير، أوضحت مارياما.

- إنهم رفاق سوء لك.

- إذن أنا رفيقة سوء أيضا. نهضت مارياما واندفعت نحو المدخل وركضت نانا خلفها لتدس في يدها بعض الأوراق النقدية.

- على الأقل تستقلين تاكسي، طالبتها نانا. استدارت مارياما غاضبة نحوها. لقد قلّ تقبلها لكرمها.

- هذا تبذير. الباصات كثيرة في لندن. التاكسي شيء جيد هناك في أفريقيا حيث يضطر الناس إلى المشي لمسافات طويلة على أقدامهم، أخبرت نانا. لقد بدأت التحدث عن أفريقيا بدلا من غامبيا.

تصورت نانا أنها كانت تحت تأثير زملائها في الدراسة، من النوع المسعور من بين الطلبة الأكثر طموحا ولباقة. لقد تصورت الكثير الذي يعوض واقع أن مارياما لم تكن كثيرة الكلام بشأن حياتها الجامعية. ومثلما كانت نانا مرعوبة عندما افترقتا عند شاطئ الفندق لفكرة ما يمكن أن يحصل لمارياما في هذا العالم

المغلق المنيع الذي انسحبت إليه تخشى أن مارياما توشك على خلق حياة مستقلة في لندن تكون مغلقة في وجهها.

كانت مارياما مشغولة بمغادرتها، لم يكن لديها الوقت لتحية نانا إلى العم ولعلبة الشيكولاتة إلى العائلة. لقد اتفقتا، أو أن نانا على أية حال اتفقت معها على أن تكون في البيت في الساعة الثانية عشرة.

- أولاد عمي سينتظرونني في محطة ليفربول ستريت ويرافقونني في طريق العودة، أكدت لها مارياما. لم تستطع أن تستوعب تركيز نانا على الساعة والتوقيتات.

حالما خرجت من الباب أصاب نانا عدم استقرار ولم تستطع أن تهدأ في مكان. حرصت على أن يكون الهاتف المحمول أمام ناظريها إن اتصلت مارياما وطلبت مساعدة، نقودا أو شيئا آخر. لو كان في مقدروها أن تفعل لها ولو شيئا صغيرا لكان من شأن ذلك أن يروح عنها. جلست في مكانها من دون عمل على الأريكة تتنقل بين المسلسلات الأمريكية عندما رنّت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن وأصابتها مثل نغمات خلاص. لم تجرؤ أن تصدّق أنها مارياما. من خلفها انطلقت ضحكات وأصوات عالية، من الواضح أنها أجواء حفل.

- سأبقى هنا عند عمي الليلة. إنه لا يقبل أن أعود إلى البيت متأخرة. إنه يبلغك التحية ويشكرك على الهدية ويوبخني لأني لم أصحبكِ معي. عذرا نانا، يقول في المرة القادمة ستزورينه برفقتي. إنهم يبلغونك التحية جميعا. أراك غدا.

كادت نانا تركع. الشكر يعود إلى هذه العائلة التي خشيت أن

تنحيها جانبا لكنها كما يبدو رحبت بها من دون رؤيتها والتي أعادت ماريياما ثانية لكي تكون ناعمة، البنت الواثقة التي قابلتها عند الشاطئ أسفل فندق جولدن باي. شريت نانا وثملت فقط لأنها كانت ممتنة.

صارت إقامة ماريياما في الويك أند أقصر وأقصر. اختُزِلَ تواصلهما إلى محادثات عبر الموبايل ولقاءات مقهى سريعة. لم تعرف نانا ما يجب أن تقوله لها لتجعلها تنفتح معها في الحديث. أي سؤال عليها توجيهه، أي عرض مغر واقتراح يمكن أن تأتي به لتلين الموقف! كلمات ماريياما المقتضبة جعلتها غير واثقة بنفسها وأمدّها بشعور أنها غير صالحة للمهمة. قصدت بِن وبيا لتشتكي من محنتها ولكنهما لم يملكا ذات الشعور ولم يفهماها. إن ماريياما منغمسة تماما في دراستها قلبا وروحا وسرعان ما صار لديها أصدقاء، قالا لها وأكدا لها أنها هي ربما التي لديها مشكلة. هل أن زوجين محل ثقة أكثر من أعزب؟ هل أن الأعزب بحد ذاته تهديد متنقل ضد القانون والنظام؟ هل مازال الناس يخلطون حياة الأعزب بالوحدة المعروفة في الماضي التي تنجب وحوشا.

- إنها مؤدبة، تربّت تربية جيدة، لا تأخذ شيئا من الثلاجة إن لم تستأذن أولا، علّقت بيا.

- إنها حزينة وليست مرحة. صبر بِن له حدوده. كان قد كبر مع خدم في البيت.

- لديها حنين لوطنها، ستتغلب عليه، دافعت بيا عنها.

- قد تكون لا تحبنا إطلاقا، قال بِن بسخرية وانسحب إلى مكتبه.

- أخذنـا نتعلـق بهـذه الطفلـة، واصلـت بيا الحديـث. يداها الجميلتان مضمومتان في حضنها.

- بالتأكيـد، قالـت نانا مماشـية لها. لم تحب مـا يذكرها بأن ماريا ما لا تخصّها وحدها.

- جميـل أن تكـون لنا عائلة من جديـد. تابعت بيا كأنها قرأت مشاعر نانا المتضادة.

- أجل، قالت نانا غير فاهمة ما قصدته. تحركت بيا في مكانها على الأريكة بقلق وقد بدت فجأة متألمة.

- بِن مشغول للغاية حاليا. علينا بأسرع وقت اتخاذ قرار بشأن التقليص من المشاريع أو توظيف أحد مستشارينا الذين يعملون لدينا بشكل مؤقت.

- ألا يمكنني المساعدة؟ اقترحت نانا.

- لقد قمت بمسـاعدتنا بإعادة توزيع الأصول المالية للشـركة. ومن دونك كانت الشركة ستفلس، قالت بيا مباشرة.

- لا عليك إلا أن تطلبي إن كنت أستطيع المساعدة.

- ولكن هل لديك وقت لعملكِ؟

- لقد وضع على الاحتياط لإشعار مؤجل. من الجانب الآخر فذلك يمنحني وقتا أكثر لماريا ما. وهذا مهم بالنسـبة إليّ حاليا، ربما الأهم، قالت نانا وهي تشـك في نظرتها هذه إلى وضعها. لو كانت تعرف قبل بضع سـنوات ما كان ينتظرها لكانت قد اعتبرت حياتها الآن بمنزلة نهاية العالم.

جـاءت ماريامـا في زيارة لـم تعلن عنها. كانت لهـا مفاتيحها فوقفت فجأة في الصالون من دون أن تسمعها نانا.

- أيـة مفاجـأة جميلـة. أطفـأت نانـا التلفزيـون ونهضت من مكانهـا علـى الأريكـة. لـم تكـن متهيئة لضيـوف وشـعرت بأنها فوجئت على حين غفلة في سريرها.

- لقـد حصلت على عمل في السـوبر ماركت «سـينزبيري» في شارع «جيرنج كروس». كان وجه ماريـاما يشرق بالرضا.

- أرجـو فقـط ألا تهملـي دراسـتكِ، نصحتها نانا وهـي تراها تتجه إلى منحدر. على الأخص بعد الذي رأته عند تيسكو ودفاع ماريـاما عما أسمتهم أصدقاءها.

- أنا بحاجة إلى النقود لإرسالها إلى أهلي. إنها عشرون ساعة في الأسـبوع فقط، أسـرعت لكـي تضيف بحماس بعـد حصولها على موافقة نانا.

- عليهـم أن يفهمـوا أن عليكِ الاهتمام بدراسـتكِ أولا. كانت نانـا قـد تعبت من تدخـل العائلـة. وكان على ماريامـا أن توضح لهـا للمـرة الألف أن مـن واجبها تسـديد المبلغ لعائلتهـا للحياة والرعايـة التي حصلت عليها والتي وضعتها منذ الولادة في دين بلا قعر.

- ومـا رأي بِـن وبيا في عملكِ؟ رأت نانا فجـأة أن ذوق ماريـاما في ثيابها يشبه ذوق بيا.

- إنهما لا يعلمان بعد بذلك. نظرت ماريـاما بنفور إلى فوضى المطبخ وعرضت عليها المساعدة. تغاضت نانا عن سماع اللوم غير المباشر وتركت لها الحرية للقيام بما تشاء.

حدثتها ماريـاما خلال ذلك عن عملها بفخر كمحاسـبة. أنها تحـب كل الوجـوه التـي تعبرها مـع بطاقاتهـم التخفيضية. كل

الزبائن كانوا متقدمين في السن وملوني البشرة. ليس هناك من تمييز ما دام لديهم القدرة على الدفع. هذا ما شدّد عليه رئيس الموظفين للمتعينين الجدد خلال أسبوعين للاختبار. ولكنها تنزعج كثيرا للكنة القادمين من أوروبا الشرقية، الذين لا يخرج من أفواههم غير مزيج من كلام غير مفهوم، اشتكت لها. أنها تفضّل الزبائن الدائمين الذين عرفت وجوههم بمرور الوقت.

- هل باشرتِ العمل منذ فترة؟ قالت نانا وهي تشعر بأنها خارج اللعبة تماما.

- سأنهي تقريبا فترة الاختبار ولكني سأحصل على العمل، قالت مارياما بثقة. كانت قد انتهت من وضع الأكواب والصحون المتسخة في غسالة الصحون وعليها المغادرة.

قبل أن تلحق نانا لتسألها عن وجهتها رنّ هاتفها. أطلقت ماريامـا تنهيدة وهي تنظر إلى شاشته واختفت في غرفة النوم. تحدثت بصوتها العالي الحاد الذي تخلل الأبواب والجدران.

- لا، لم أستلم راتبي بعد. لا أستطيع. سقف جديد؟ ولكن...، مومو يعيش في لندن منذ سنين. لديه شركته الخاصة. سيارة جديدة تماما في السنة المقبلة؟ أجل، إنه ولد طيب. اسمعي خالة روزي أنا أفعل ما بوسعي. سأرسل لك هدية بأقرب وقت.

أعلم جيدا أنك فعلت كل شيء من أجلي. أنهت المكالمة بنفاد صبر وجاءت إلى الصالة وغطست في المقعد وهي تجفف جبهتها من العرق بظهر يدها.

- ما الذي حدث؟ سألت نانا قلقة.

- عليّ سماع تباهي الجيران طول الوقت: مومو يرسل هذا

ويرسـل ذاك. يظنون أنـه ليس عليّ إلا أن أنحنـي لأجمع النقود من الشـوارع. إنهم يجهلون تمامـا كيف هو الحال في أوروبا. وقد صدقتهم وأنصتُّ إليهم طيلة ما أذكر من حياتي، قالت متذمرة.

- هل يمكنني المساعدة؟ قالت نانا. رفعت ماريايما يدها رافضة.

- أمـي لا تطالـب بغير الهدايـا من لندن التي تريـد أن تريها لسـكان القريـة. تتصـل مـن هواتـف الجيـران كل يـوم وتوبخني لأن عليها تسـديد ديون لاتصالها بي. بـدت ماريايما فجأة متعبة ومجهدة.

- تقول إن من واجبها أن تعرف عن حال ابنتها ما دامت بعيدة عنهم وليس لها من يرشدها. لقد طمأنتها بأن لدي الخالة أمينة والعم سـولاي في أبتون بارك ولكني لم أخبرها بأنهما مشغولان جـدا، لا وقـت لديهـم للتدقيـق فيما أفعلـه وكيف هـو حالي مع الإنجليـز. الخالـة أمينة تعمـل في التنظيف صباحـا وبائعة في محل إكسسـوارات بعد الظهر حتى السـاعة العاشرة مساء. العم يعمل سـائق تاكسـي عشـر سـاعات، سـبعة أيام في الأسـبوع لكي يتمكن أولاد عمي من الدراسة. نهضت ماريايما وكانت في طريقها إلـى الباب. تشـعر نانا بالعجز عندما لا تسـتطيع حلّ مشـاكلها بمبلغ من النقود.

- أخبريني إن كنتِ بحاجة إلى مساعدة في حل الواجبات. ألم يحن وقت تسليمها؟

- لديّ وقت كاف. وقفت متعجلة خروجها.

- خـذي حـذرك عزيزتي. استسـلمت نانـا لأعذارهـا وتركتها تذهب.

ويرسل ذاك. يظنون أنه ليس عليّ إلا أن أنحني لأجمع النقود من الشوارع. إنهم يجهلون تماما كيف هو الحال في أوروبا. وقد صدقتهم وأنصتُّ إليهم طيلة ما أذكر من حياتي، قالت متذمرة.

- هل يمكنني المساعدة؟ قالت نانا. رفعت ماريياما يدها رافضة.

- أمي لا تطالب بغير الهدايا من لندن التي تريد أن تريها لسكان القرية. تتصل من هواتف الجيران كل يوم وتوبخني لأن عليها تسديد ديون لاتصالها بي. بدت ماريياما فجأة متعبة ومجهدة.

- تقول إن من واجبها أن تعرف عن حال ابنتها ما دامت بعيدة عنهم وليس لها من يرشدها. لقد طمأنتها بأن لدي الخالة أمينة والعم سولاي في أبتون بارك ولكني لم أخبرها بأنهما مشغولان جدا، لا وقت لديهم للتدقيق فيما أفعله وكيف هو حالي مع الإنجليز. الخالة أمينة تعمل في التنظيف صباحا وبائعة في محل إكسسوارات بعد الظهر حتى الساعة العاشرة مساء. العم يعمل سائق تاكسي عشر ساعات، سبعة أيام في الأسبوع لكي يتمكن أولاد عمي من الدراسة. نهضت ماريياما وكانت في طريقها إلى الباب. تشعر نانا بالعجز عندما لا تستطيع حلّ مشاكلها بمبلغ من النقود.

- أخبريني إن كنتِ بحاجة إلى مساعدة في حل الواجبات. ألم يحن وقت تسليمها؟

- لديّ وقت كاف. وقفت متعجلة خروجها.

- خذي حذرك عزيزتي. استسلمت نانا لأعذارها وتركتها تذهب.

- كيف؟

- أنتِ بحاجة إلى أن تساعدي، ولكن هل مارياما بحاجة إلى مساعدتكِ؟

- إن تحدثنا عن الجانب المادي فهي بحاجة إلى ذلك.

- أنا أتحدث عن الوضع الحالي حيث الجانب المادي مضمون.

- لا أدري إن كانت هي بحاجة إلى شيء غير كفالتي، لا أدري إن كان لديّ ما أمنحه لها غير النقود.

- ها أنتِ لا تستطيعين الفصل مجددا. الأمر لا علاقة له بمقدار ما لديك من أشياء أخرى لتعطيها وأكثر من أن تعرضي عليها دعما ماديا بقدر السؤال إن كانت مارياما بحاجة إلى شيء أو أكثر.

- ليس لديها الكثير الذي يعينها في حياتها. كانت طفلة مهمّشة لم تعش طفولتها حقيقة.

- لديها ولا بد قوة بداخلها لتصل إلى ما وصلته الآن، قاطعها جاكوب.

- ولكنها وحيدة تماما في هذا العالم.

- كم هي وحيدة فعلا مع كل هذه العائلة؟

- العائلة تجعل كل شيء أكثر صعوبة، قالت نانا بانزعاج.

- إنه الواقع الذي تعيشينه.

- كان الأمر أسهل لو لم يوجد الواقع، قالت نانا ساخرة من نفسها.

- لِمَ اتصلتِ برقمي للطوارئ، اعترضها جاكوب.

- عندما أنظر لنفسي في المرآة أرى قناعا.

- ما الذي تخافينه؟ قال جاكوب بموضوعية.

- وضعي المادي على المدى الطويل، من دونه لا أستطيع مساعدة مارياما.

- انسي مارياما وركزي بنفسكِ على عودتك إلى الطريق. هل لديك فرصة معقولة للحصول على عمل في «روار» فرع لندن؟

- لديّ تواصل جدي مع مدير مكتب التوظيف. القرار بيده.

- كم من الوقت ستمنحينه قبل أن تبحثي في مكان آخر؟

- لا أستطيع ان افعل شيئا غير هذا.

- غير ماذا؟

- روار.

- ألستِ في طريقكِ للبحث عن تحديات جديدة في هذه القفزة التي اتخذتها؟

- حاليا وضعي فوضوي فقط.

- عليك أن تفكري بطريقة بنّاءة وتتصرفي من خلال ذلك.

- لا أستطيع التفكير في غير مارياما حاليا.

- دعيها وشأنها.

- لا أستطيع.

- إن كانت لديك حاجة لعمل شيء لأجل أحد فلم لا تلقين بنفسك في العمل في إحدى الجمعيات الخيرية؟ أن تجدي عملا تطوعيا في محل للمواد المستعملة أو الطبخ في الشوارع؟

- هل تعني ما تقول حقا؟ أن أعمل مجانا وبهذه السيرة الذاتية التي عندي؟

- لِمَ لا؟ إن هذا يمنحكِ تركيزا ويجلب النظام إلى هذه

الفوضى.

- ذلك دون مستواي.

- عذرا ولكن ما المستوى الذي أنتِ عليه حاليا؟

- أعرف جيدا، تمتمت نانا.

- واجبك للمرة المقبلة هو أن تشرعي في البحث عن شيء معقول لتعمليه. إن كان براتب أو من دون راتب، سنبقى على اتصال.

- شكرا لتوبيخك. أغلقت الهاتف وهي تشعر بأنها قد سُحِقَت تماما.

اتخذت نانا من المجيء إلى «سيتي» عادة يومية لها بعد الظهر نحو الرابعة. كانت تستخدم في طريقها قطارات الأنفاق إلى بانك لتترجل إلى ذلك الأمان المجهول الهوية من الرخام والزجاج. كانت تشعر بأنها في بيتها في تلك الصحراء من الخرسانة العاجية اللون، حيث اعتادت أن تأتي بانتظام في السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الأخيرة. كانت تعرف الشوارع والمقاهي، والبارات، والبنايات المشرئبة الصقيلة التي تحجب السماء. تعرف البدلات الرجالية المفصّلة وملابس التنزه، الكعوب العالية ومحافظ الوثائق ذات الماركة التي تستخدمها. تعرف الخطوات التي تدل طريقها والتي تطلق جلبة بين الجدران مثل صدى مجوف لعيدان طبول.

لقد حصلت أخيرا على موعد من قبل مدير قسم التوظيف. دارت حول «City Place House» حيث مقر «روار» ثم انتهت إلى الجلوس في المقهى ذي السقف العالي الكبير هناك واحتلت

مكانـا إسـتراتيجيا عنـد طاولـة تجـاه الواجهـة الزجاجية لكي تشـرف على محل عملها السابق. جلست على الأريكة المنخفضة ترشف من كأس الشراب. طالعت صحيفة الفاينانشال تايمز وهي تشـعر بأنها خالية من التركيـز. تعرفت على البعض من زملائها القدامـى الذيـن مرّوا بهـا على الرصيف وانعطفوا عبر السـاحة إلى المدخل الرئيسي.

اسـتطاعت نانا أن توهم نفسها بأنها عادت إلى وعيها السابق بعـد أن جلسـت طويلا فـي محيطها المعتـاد تنظر إلـى الجرائد وأسـعار الأسـهم التـي تداخـل بعضهـا ببعـض وصـارت نقشـات معروفـة، أن توهم نفسـها بأن كل شـيء كمـا كان وأنها بمجرد أن تنتهـي مـن قدحها سـتعود إلى قاعـة الاجتماعات والـلاب توب. ولاحقا بعد انتهاء يوم العمل سـتتناول «السوشـي» مع بعض من زملائها قبل أن تسـتقل الطائرة آخر اليوم لتعود إلى كوبنهاجن. شـعرت بنشـوة وهي تسـتدعي حياتها العملية سـاعة بعد سـاعة بتفاصيلها الصغيرة. كأنها تنظر إلى جنة مفقودة.

انتهـت مـن كأسـها وغـادرت متوجهـة صـوب «City Place House» وسـاحة المرمر الموحشـة. بمظهرها الأنيق البهي، أناقة الثـوب الرصينة، الحذاء الذي ناسـب قدميهـا والكعب الذي رفع من طولها سبعة سنتيمترات كانت نانا تشبه سيدة الأعمال، التي كانت عليه في حياتها قبلا والتي تلاءمت وانسـجمت مع المحيط مـن حولهـا. وجدت فجأة أن مرأى النافورة وسـط السـاحة مؤثر لعرائه المختزل بخيوط الأشـعة الرفيعة المجموعة في إضمامات عمودية.

دخلت البهو وتوجهت إلى الاستقبال حيث أظهرت بطاقة «روار» الشخصية وأعلمتهم أن لديها موعدا مع السيد باتريك كلوفر. طلب منها التفضل بالانتظار حيث مجموعة من الأرائك عند النباتات الداخلية. جلست بانتظار السكرتير ليرافقها إلى الطابق الثامن. لقد سبق أن قابلت مدير قسم التوظيف بشكل عابر عندما كان عملها قائما مع الشركة من قبل. ولكن بعد أن انتقلت إلى لندن لم يكن بينهما من تواصل غير المكالمات الهاتفية وعبر البريد الإلكتروني. تتذكره بشكل غائم كرجل جذاب في أجمل عمر للرجل. في مكالمتهما الأخيرة كان هناك تيار داخلي من غزل بينهما. وقد أفلحت في الحصول على موعد لديه. تأخر مجيء السكرتير. أصاب نانا خوف من مقابلة الرجل ذي السلطة وجها لوجه. ولكنها طمأنت نفسها بأن لديها ما تفوز به ولن تخسر شيئا.

كانت وجهتها في جلستها تشرف على المصاعد وفجأة رأت رجلا وسيما في منتصف العمر يدخل البهو ويقف مباشرة أمام مجموعة الأشجار الداخلية. مدير قسم التوظيف نزل بنفسه ليصحبها. شعرت بالخجل مثل طفلة مدرسة ونهضت بحركة مرتبكة من مكانها. ولكنها سرعان ما استعادت سيطرتها. للمحيط مفعول منشط لها. وتلك الاستراحة اللاطوعية لم تستطع أن تمسح آثار ذاك الاحتراف القديمة فيها.

- سكرتيرتي مجازة اليوم، أوضح لها سبب نزوله من الأعلى.

- لم أعتقد قط أن سكرتيرة يمكن أن تأخذ إجازة يوما، قالت نانا بلمسة صغيرة ساخرة. كانت تجيد لغة «روار» كأنها نشأت وسطها.

- الأمر يستحق أن نكون كرماء بين آونة وأخرى. كان ردّه وهو مرتخٍ. استغربت أمر عدم انتباهها له من قبل.

- استثمار ممتاز، أضافت هي.

- فضلا عن الناتج، قال وهو يصدر طقة بلسانه. أخذت نانا نفسا طويلا.

- لن نظل واقفين هنا، أكمل وهو يضع يده على ظهرها ليقودها إلى المصعد.

جعلها باتريك كلوفر تتقدمه في الدخول إلى المصعد. التقت نظراتهما مثل ومضة برق في المرآة. شفطة غير محسوسة صعدت بهما إلى أعلى. تنحى ثانية إلى الخلف بأناقة لتسبقه في الخروج من المصعد إلى الموزع حيث طاولة صغيرة من الزجاج مع عصير برتقال طازج وسلة فاكهة.

- جميل، أليس كذلك؟ قالها بنبرة أرستقراطية ثم تقدّمها في الممر الطويل إلى مكتبه في النهاية. غمر جسدها شعور حلو حارق مثل صحوة بطيئة من الموت. لقد مر وقت طويل منذ أن شعرت بأنها حية. خطر ببالها ثوب الربيع للأشجار وتبدّى أمامها أن الأغصان والأوراق نمتْ من ذراعيها العاريتين. نظر باتريك مباشرة إلى الوراء ليتأكد أنها تتبعه. وأمسكت نانا عن الابتسام ردا على ابتسامته. لم تكن تسلّم بشيء. لم تشأ أن تخمن القدر. الحظ وحده الذي يمكن أن ينقذها، لعبة صدفة تضع القطع المفقودة في مكانها كي تنفتح لها كوة رغم كل الصعاب.

جلسا كل في مكانه عند الطاولة في المكتب الضخم الذي احتل زاوية في المبنى. جلست نانا قلقة على طرف المقعد تطغى

أهميـة اللقـاء على تفكيرهـا. عندما تتعرض إلى موقف يشـكل ضغطا عليها يدور في رأسـها في الوقت نفسه خط موازٍ ترى فيه نفسها من الخارج يرافقه تعليق داخلي بينما هي تحاور باتريك. بدا أصغر سـنا مـن نظرتها إليه في الوهلة الأولـى كما أن هيأته المسـالمة جعلتهـا ترتخـي. وجدا نفسـيهما يدخلان فـي أحاديث جانبيـة ويختبـر أحدهمـا الآخـر في مبـارزة كرة منضـدة حيث الضربات القوية بينهما في تبادل فوق طاولة المكتب.

- تبديـن نضـرة ونقيـة مثـل النـدى كأن الحيـاة لم تمسّـكِ، قـال باتريـك بإرسـاله القوي وهو يصب الشـاي لها. كان يشـرب مياها معدنية. معدته لا تحتمل حامض التانين، قال لها وشـاي الأعشاب ليس من مستواه.

- لقد أمضيتُ سـت عشـرة سـنة مـن حياتي فـي «روار»، قالت نانـا بنبـرة حـادة واثقة. ليـس لديه الحق فـي أن يتعامـل معها بشـكل غير رسـمي. لقد جاءت لتنقـذ عملها ووجودهـا. لديهما التحصيل الدراسـي نفسه وتقريبا ذات الأقدمية في المؤسسة. كل ما في الأمر أنه كان محظوظا وهي لا.

- أرجـو ألا تسـيئي فهمي، كنـت أقصد إطراءك، قـال ليلطّف الجو وابتسم بأسنان بيضاء مضيئة.

- بشـرتكِ مصقولـة مثـل حريـر، لا عمـر لكِ. لا أجـرؤ حتى علـى تقدير عمركِ. ربما هي قصة شـعرك الولادية ولون الشـعر المقصـور. تناول ملعقة شـاي بـذراع طويل كانت في كأس الشـاي العالـي والـذي لـم يسـتخدمه وتـرك المعدن البـارد غيـر القابل للصدأ ينزلق ببطء على خدها. اقشعر جلد نانا.

- أعطـي الألولويـة لعملي دائما، قالـت بموضوعية واعتدلت في جلستها على الكرسي.

- لكـن المعـروف عـن «روار» أنهـا فـي العـادة سـبب التجاعيد والشيب، قال بسخرية.

- لقـد حاولـت أن أرقى إلى المسـتوى الذي اقتضتـه وظيفتي في مجموعة فريق المديرين، قالت نانا متجاهلة الفترة العصيبة التعيسة في «روار دنمارك».

- لا أحـد يشـك فـي مؤهلاتـكِ نانـا. اسـتقرت عينـا باتريك عليها. كان هناك دفء تحت زي السيتي والربطة المشدودة.

- هـل المؤهلات كافية بحد ذاتهـا، إن كان هناك أكثر من واحد يتنافس على المنصب؟

- أجل، إن كان المظهر في الوقت نفسه مناسبا. استدار باتريك بالمقعد وظل جالسـا في مكانه موليا ظهره لها مستمتعا بالمنظر للحظة قبل أن يستدير ثانية.

تفحصهـا بعين متخصص. هل نالت مسـبقا مـا عزمت عليه عندما جلسـت عند البار منتظرة؟ هل اشـتم في الحال رائحتها كفريسة سهلة؟

- هل ترين نفسك عضوة في فريق مديرينا؟ قطع تفكيرها.

- هذا هو ما هيأتني روار- دنمارك له.

- مـا الذي تعرفينه بخصوص إدارتنا الجديدة؟ سـأل باتريك بروتينيـة. لـم تفهـم إن كان سـؤاله فقـط لإضفاء شـرعية على اللقاء.

- وفق تقارير الاجتماعات من العام ٩ والربع الأول من العام ١٠

هناك حديث عن كسر للخط السابق من القرارات بالإجماع إلى الأغلبية التي تمنح مرونة ومواءمة للتأرجح الحاد في الأسواق المالية، أجابت بمعرفة مثل طالبة مستقيمة. كونها على لائحة الاحتياط حال دون ارتخائها بمقتضى الزمالة التي تجمعهما.

- الإدارة التنفيذية لها الكلمة الأخيرة، أي أن صلاحيات فريق المديرين قد رفعت إلى أعلى قمة الهرم، تابعت نانا بحماسة. لم يتم تحديها هكذا مهنيا لزمن طويل.

- باستثناء؟ ضغط باتريك أطراف أصابعه بعضها على بعض.

- «روار جوهانسبيرغ»، «روار نيروبي». تحيد أفريقيا عن بقية الأسواق. أفريقيا في نمو. استمتعت نانا بالتكافؤ المهني وشعرت بأن «أناها» القديمة تنهل ذلك مثل نبتة جافة.

- أنتِ على معرفة تامة بروار لندن، حدثيني عنكِ، قاطعها باتريك وبدا كأنه ضجر.

- لقد بدأتُ استشاري استثمار، بشكل رئيسي في الشركات التجارية، إدارة المخاطر المالية، إدارة السيولة المالية وحسابات الكلفة...

- يعني مسؤولة عن العملاء. لوح باتريك بحركة يد آمرة جعلها تجمد في تقديمها وتتردد.

- كنت في قسم فريق العملاء حيث عملنا مع تقريبا ٣٠ مجالا ضمن آفاق التسويق في جميع أنحاء العالم إلى أن تم تعييني كـ « صائدة»، البحث عن عملاء مع سفر نحو ٢٠٠ يوم في السنة...

- صائدة؟ قاطعها باتريك ثانية.

- ووسيط تجاري؟ متابعا وهو يحملق أمامه في نقطة بعيدة.

- نعم، لفترة قصيرة تقريبا قبل أن أدخل في مجموعة فريق المديرين بالدنمارك. أحببت العمل على مدار الساعة، ذلك ينسجم مع مزاجي.

- هل عملتِ كوسيط مع عمولة؟ نظر باتريك مباشرة إليها. وهزت نانا رأسها تؤكد قوله.

- أي الوظائف هي المفضلة لديكِ؟ أطلق باتريك سؤاله إليها مثل لسعة سوط.

- كل الوظائف كانت حجر بناء لخبرتي في «رواز» ولكن وظيفة مدير فريق حاليا هي المفضلة، قالت وهي تشعر بأنها معراة.

- دعيني أوضح. فجأة صار باتريك حاضرا.

- أنتِ مازلتِ في خط الشركة، ولكن بالطبع حرة لتختاري مجالات أخرى. ونحن لا نتمنى لكِ غير الحظ السعيد إن اخترت طريقا جديدا، قال ملخصا. بسبب هذه الـ «نحن» التي قالها انحسر اندفاعها.

- أنا لا أعرف وضعكِ، أعلم فقط أنك ولأسباب خاصة قد ارتبطتِ بلندن. لذا فنحن (هذه الـ «نحن» الباردة ثانية) لا يمكننا أن ننقلكِ مباشرة إلى هونج كونج أو سنغافورة.

- صرتُ أقل قدرة على التنقل الآن، أقرّت نانا باقتضاب. لم تكن تود مناقشة علاقتها الخاصة مع باتريك.

- شيء يتعلق برعاية طفل كما فهمت؟

- يمكن القول، أجل، لا، ليس تماما.

- تبنّي؟ مثل مادونا؟ حيلة إعلامية مؤثرة أعطت الكثير من الدعاية المجانية، قال باتريك بحنق. لم يكن سهلا كما كان في

الانطباع الأول، فكرت في خطها الداخلي الموازي.

- لا ليس كذلك. أصابتها فكرة أن باتريك يعتقد أنها على خطى مادونا وأن مارياما لم تكن اختيارها الشخصي بل من أعراض التقليعات العصرية.

- إذن أنت لستِ وحدكِ ولديك التزاماتكِ؟ تابع قبل أن تنتهي نانا من التفكير.

- وأنتَ أيضا بالتأكيد، طارت من فمها بينما كانت في الخط الموازي تفكر إن كان التبني احتمالا عليها التفكير فيه.

- هاتان الأميرتان. ناولها باتريك إطارا من الجلد يحوي فتاتين بهيئة جدية وبأزياء الموضة في عمر ما قبل المدرسة. كما يبدو فلقد أنجب متأخرا. الوقت ليس متأخرا بالنسبة إليها كذلك، هو ما فكرت فيه في الخط الثاني الموازي على العموم. الفكرة لم تخطر ببالها من قبل فبإمكانها الحصول على المساعدة عبر العلم الأكثر تقدما من تلك الفترة التي خُلقت فيها. كيف واتتها تلك الفكرة؟ لقد أقسمت ألا تستعين يوما بتكنولوجيا الخصوبة التي جاءت بها إلى العالم. لعلها فكرت بصوت عال فقد ترجاها باتريك أن تعيد ما قالته.

- هل قلت شيئا؟ لم تكن نانا حاضرة.

- تمتمتِ بشيء حول «الجرأة في التعامل»، قال باتريك منزعجا.

- عفوا، لقد فكرت في جرأة «مادونا»، ارتجلت القول.

- الأمر برمته ليس أكثر من تجارة أطفال، استهلاكية بمعنى ما، ثم قال بعدها مشددا على الكلمات «so ein Ding muss

«ich auch haben»(*). شعرت نانا بأنها المقصودة. لم تستطع أن تتجنب رؤية علاقتها بماريياما كعلاقة اقتصادية أساسا.

- على الأفريقيين وحدهم أن يجدوا طريقهم في الخروج من الفقر. دعيهم يظهروا ما هم قادرون عليه.

- لا يمكن للأطفال أن ينتظروا طويلا، دافعت نانا عن نفسها. لم تكن متهيئة للدخول في نقاش حول أفريقيا والذي لم تشعر بأنها بمستواه ولم تلحق أن تراجعه قبل وصول ماريياما إلى لندن واستحواذها على كل اهتمامها.

- انقطع خيط حديثنا. استجمع باتريك تفكيره حول أمر نانا. أنتِ مدرجة في قائمتنا. أنتِ من الذين نعول عليهم بالتأكيد.

- في مقياس من ١-١٠ أين تضع قضيتي؟ لم تمس نانا شايها. كانت تخشى أن ترتجف يدها. كانت بحاجة ماسة إلى شيء ما ليقويها ونظرت طويلا إلى الزجاجة التي لم يمسسها أحد بعد في الصينية.

- لا يمكنني أن أعدكِ بشيء ولكن أنتِ وكما يقال على لوحة الإعلانات الضوئية. وعلى الأخص الآن بعد أن تعرفت على قدراتكِ.

- شكرا، قالت نانا وهي تشك في إعلانه. ناولها باتريك الكأس مع قطعة ليمون وثلج.

- اللقاء الشخصي مهم دائما. ضغط باتريك على «الشخصي» واستمتع بالرشفة الأولى من شرابه. نظر إلى ساعة يده. صورة

(*) «أنا أريد هذا الشيء أيضا».

الأميرتين الصغيرتين كانت لاتزال بينهما على المكتب.

- كان لطفا منكَ أن تجد لي وقتا في مفكرتكَ، قالت نانا برسمية. كانت تريد منه أن يتخذ الخطوة اللاحقة.

- من دواعي سروري، أجابها بذات النغمة. نانا خشيت انسحابه مسبقا.

- من النادر أن نشعر بأننا على الموجة نفسها، جسرت على القول ومدّت يدها لتتناول الكأس. لن يرميها خارجا قبل أن تفرغ كأسها أو على الأقل لتصل نصفها.

- التحدث معكِ لا يشعرني بأني أتحدث مع امرأة إطلاقا، قال بتفكير.

- لديك ذكاء ذكوري واضح، تابع باتريك.

لم تستطع نانا أن تُجزم إن كان هذا حكما ساحقا أم إطراء عظيما. لقد تقلصت تحت أشعة نظرة باتريك السينية وشعرت بأنها معراة.

- أفضّل أن أفهمها كإطراء، قالت بإيجاز.

- وذلك ليس خطأ تماما كذلك، قالها مسرعا من دون أن يبدد شك نانا ونظر إلى ساعته ثانية.

- يؤسفني أنه ليس بمقدوري دعوتك إلى العشاء. عليّ أن أحضر اجتماعا بعيدا جدا في الطرف الآخر من لندن.

- لستَ مجبرا على ذلك، قالت نانا مربكة بعض الشيء. لم ينبعث من باتريك الهدوء ذاته والاهتمام كما كان قبل ولكنه أرسل إليها بضع إشارات غامضة مختلفة.

- سأرافقكِ إلى الأسفل. نهض بخفة من مكانه.

- لـديّ رغبة في أن أريكِ استوديو «بيدفورد سـكوير» الخاص بي. لعل طريقة عيش «السـكان الأصليـين» تثير اهتمامكِ. عليّ في كل الأحوال أن أجلب بعض الأوراق للاجتماع من هناك، تابع بينمـا كان يضـع الـلاب تـوب في الحقيبـة الجلديـة التي تحمل مونوغراما.

- يبدو ذاك ممتعا، عقبت نانا ورفعت حقيبتها.

- سنستقل التاكسي، قال باتريك وهو في طريقه إلى الخروج مـن المصعد. هزّت نانا رأسـها محيية وتمنت لموظفي الاسـتقبال «مساء جميلا». كان موظفو روار على مدار الأربع والعشرين ساعة في المبنى. البعض يبيت ليلته على أريكة في زاوية بعيدة، وآخرون يكتفون بإغفاءة قصيرة حيث ترتاح جباههم على طاولة العمل.

كان اسـتوديو باتريـك ذو الغرفة الواحدة عشـا مبطنا صغيرا بسـتائر مخملية ثقيلة، سـجادة سـميكة من الجـدار إلى الجدار غطّت كل الأرضية والمطبـخ المصغر والحمام الضخم بالجاكوزي. بدا المكان مجهولا وغير مأهول.

من دون أشـياء شـخصية أو لوحات على الجدران، عدا ملصق سـياحي من رومـا للكولوسـيوم بإضاءة مصطنعـة. رمى باتريك بجاكتتـه على السـرير وفتـح ذراعيه. كان من الواضـح أنه فخور بكهفـه الخاص. شـعرت نانـا بأنها قد انحبسـت ولم تكـن واثقة بأنهـا اتخـذت خطوة ذكية. مـن ناحية أخرى فقـد هزّها تعليقه بشـأن ذكائها الذكوري (أنـتِ تفكرين مثل رجل) إلى درجة جعلها تصمم بشدة على إثبات أنها امرأة.

- البيـت بيتكِ، قال باتريـك بصوت ناعم وأبعد في لمح البصر

فَرْشة السرير عن السرير المزدوج الواسع. وقته كان ضيقا.

- ماذا عن أم طفلتيك؟ ساورت نانا مخاوفُ فجأة، ليس شفقة على زوجة باتريك بقدر ما كان بسبب وظيفتها في روار.

- أليس من المتأخر التفكير في زوجتي الآن؟ رفع باتريك حاجبيه معا. كان لديه سبب قوي لغضبه.

- آسفة. كانت نانا جاهزة للمغادرة. تولد لديها شعور بأنها توشك أن تخسر مستقبلها في روار.

- لا تقلقي، قال باتريك بفتور، نحن نعيش معا من أجل الأطفال ولكننا نعيش كل على حدة، كما تعرفين «زواج صوري» .

- هكذا إذن، جلست نانا بحذر على السرير. لم يخطر في بالها يوما في أقصى خيالاتها أن تستخدم أنوثتها للوصول إلى ترفيع وظيفي. لم تكن تعرّف نفسها عن طريق جنسها ولكن عن طريق درجة الماجستير والتخصص لها وقد كان لديها من الطموح والزهو بنفسها ما يمنعها من استخدام الجنس كوسيلة في حياتها المهنية. ولكنها لم تكن على طبيعتها ولم تتصرف على طبيعتها. بمجرد أن تعود إلى روار سيعود كل شيء طبيعيا وهي نفسها ستعود طبيعية ثانية. الطبيعية كانت المثال لها، أن تكون رقما في تسلسل، مجندة في جيش العمل.

كانت دائما تود لو كانت مثل الآخرين، تتكيف مع محيطها وتنتمي إليه. قبل كل شيء أن تنتمي.

أمسك باتريك بحنكها ودفعها إلى الخلف بعنف غير متوقع، بينما حاولت نانا أن تقنع نفسها بأن الموقف سيسهل عليها إن لم تمتزج المشاعر فيه.

جلست مارياما بانتظارها في شقتها وهي بمعطفها وحقيبتها

البلاستيك عند قدميها. كانت الموسيقى المنطلقة من سماعات مسجل الأسطوانات المضغوطة تطرق الجدران. رمت نانا حذاءها وأطفأت الجهاز.

- الجيران، قالت لها منتصف الصمت الصلد الذي حلّ.

- ألم تري عَلَما بصليب أحمر يتدلى من الشرفة؟ نظرت باهتمام إلى ماریاما التي كانت تحملق في وجهها.

- عَلَم القوى البيضاء، إنهم عنصريون، هنا جوارنا. ألفت نانا نفسها تهمس.

- هناك الكثير من الناس عنصريون، رفعت ماریاما كتفيها.

- ليس الكثير عزيزتي، البعض فقط، صححت نانا ما قالته ماریاما. لم تكن ترغب في شيء بقدر ما كانت تريد للندن أن ترأف بماریاما.

التفتت فجأة إلى ماریاما، كانت قد بدت مثل مَنْ جاء في زيارة توديعية قبل سفر طويل وتذكرت أن منتصف الأسبوع هو ليس موعد زيارتها.

- ما الذي جرى؟ هل أنتِ بخير؟ تبع السؤال احتضانها الذي حاولت ماریاما تجنبه.

- أريد أن أبقى عندكِ.

- ماذا يعني ذلك؟

- لا أريد البقاء عندهما. بدت ماریاما مرهقة ومهمومة كأنها لم تنم لليالٍ متتالية. تبعت نانا إلى المطبخ وتحدثت مثل شلال بينما كانت نانا تعد الشاي.

- لا تغضبي مني نانا. ليس هذا إنكارا لجميل بيا وبن ولكن بيا

تقـول إني أجلب حزنا قديمـا إلى البيت، بدأت ماريـاما بالقول. حزنت حزنـا كبيرا بسـبب قول بيا التي تذكّرها ملابسـها بالأكفان بقياسـها الفضفـاض وألوان الباسـتيل الحساسـة. مثل ملاكٍ طلـع من القرآن ولكنهـا لا تجـرؤ على قول ذلك لها. هـي وبِن لا يؤمنان بالله، كما قال بِـن، ملحـدان عن قناعـة. ذلك جعلهما فـي عينيهـا مجنونين بعض الشيء وخطرين. لم تستطع أن تتخيل أن هناك أناسا لا يؤمنون بإله.

جدتهـا تنحدر من عائلة مسـيحية وقد علّمتهـا اللحم والدم والقيامة والذي سرعان ما نسيته. كان مخيفا. على الرغم من أن الجـدة أوضحت لها أن عيسـى كان أيضا مـن الأنبياء في القرآن، ولـذا فعليها ألا تخشـى لحـم هذا الرجل ودمه. ولكـن القرآن لم يسـاعدها لأنها لم تسـتطع قراءة لغته. سـمح لها الإمام مرة أن تمـسّ الكتـاب المقـدس. ظلـت حرقة لمسـه طويلا فـي يدها فيما بعـد ولـم تبطـل حتـى دخلـت المدرسـة وصـار كتـاب الإنجليزية كتابهـا المقـدس. كانت الخالة روزي هي مـن علّمها أن تحب اللغة الإنجليزيـة الناعمـة والمرنة والتي تعشـقها هـي لأن أمنيتها في الحياة كانت أن تصبح مدرّسة للغة الإنجليزية.

- ولكن بِن قال إن بيا بحاجة إلى شـابة في البيت. لقد صارت أقوى بكثير بعد أن سـكنتِ في غرفة الأطفال عندهما، قالت نانا معارضة.

- ألا تعرفـين شـيئا إطلاقا عن الطفلة التي نشـأت في البيت فـي شـارع بورتلانـد وصارت بنتا شـابة؟ فاجـأت ماريـاما نفسـها لتقول «مثلي».

- لا أعلم شيئا عن هذا، تمتمت نانا وتركتها تسترسل.

- لقد تركتُ البيت غاضبة مخلفة وراءها رائحة حشيش حامضة وخزانة ثياب ملأى بعلب البيرة الفارغة التي انقلبت على الأرضية بدوي سبّب الأزمة القلبية الأولى لبيا.

إنها لا تريد رؤيتهما ولكنها تتصل كل ليلة رأس سنة جديدة وفي أعياد ميلاد بيا. إنها منحرفة وهما يرفضان التحدث معها. هما لا يستحقان ذلك ولا هي في حالتها هذه، قال بِن.

- ذلك حقا جديد بالنسبة إليّ. شعرت نانا بالأرض قد مادت تحت قدميها.

- البنت جانيت هي بنت متبناة. جاءت معهما خلال مهمة في أوغندا. لقد تم إقناعهما بإنقاذ طفلة صغيرة من ملجأ للأطفال في كامبالا حيث لم تحب الطفلة العيش هناك ولم تنطق بكلمة لسنوات طويلة.

انخفض صوت مارياما بالتدريج. كانت روح البنت هي التي شعرت بها من اليوم الأول. وخوفا من الروح في البيت أخذت بعمل واجباتها في المقاهي التي كان فيها مدخل للانترنت. كانت تجرّ نفسها مع كمبيوترها المحمول أينما ذهبت والذي أهدته لها نانا عند استقبالها. لقد أهملت واجباتها بسبب الأصوات التي يصدرها الشبح والخراب الذي ألحقه في البيت في شارع بورتلاند. كانت نانا تنصت بصبر إلى قلق مارياما، سعيدة لأنها كانت في حاجة لها وليس لنقودها فقط.

- لا يصح أن تُثقلي هكذا بمشاكل بيا وبِن فتهملي دراستكِ، قالت نانا مستنكرة وأمسكتْ بيد مارياما التي سحبت يديها وأخفتهما في حضنها. احمر خدا نانا بشدة وندمت لانجرافها

مع مشاعرها.

- ألا يمكنكِ أن تقولي لهما إني سأنتقل للعيش عندكِ؟ كانت ماريا ما ترقب طيلة الوقت موبايلها الموضوع على الطاولة أمامها.

- هل أنتِ متأكدة من رغبتكِ في ترك غرفتك الجميلة عند بيا وبِن والاكتفاء بغرفة الضيوف الصغيرة هنا؟ قالت نانا.

- نعم. كررت ماريا ما ثانية تقريرها الدرامي في شارع بورتلاند. كانت متأكدة من رؤيتها بوضوح للشبح من خلفها بشكل مائل في زاوية عينها وهي تخشى أنه يطالب باسترداد غرفته. هذه الروح المسكينة لم تستطع مغادرة هذا البيت وأهله.

إنها تختفي بين الجدران ليلا، خلف الأبواب وتحت السجادة. كان يشكو ويعول مثل الضباع. لقد سمعت ماريا ما قصصا فظيعة عن ضباع أكلت الشبابيك والأبواب لتعصف الرياح الأربع بالبيوت وتأخذ النيام معها.

تقرير ماريا ما عن الوضع في بيت بورتلاند هزّ نانا كثيرا. لم تكن لديها أدنى فكرة عن حقيقة المشكلة التي آلمت بيا والتي يمكن أن تكون السبب خلف صحتها المنهكة.

- علينا أن نتحدث عن الموضوع مع بِن وبيا، أكدت نانا متجاهلة موضوع الشبح في الوقت نفسه الذي لم تستطع أن تأخذ موقفا تجاهه.

- ألا يمكنكِ الحديث معهما؟ اقترحت ماريا ما.

- ألا يجب أن تنتظري حتى الانتهاء من الفصل الدراسي قبل الانتقال؟

- لقد حزمت أغراضي. رفعت ماريا ما حقيبتها البلاستيك

التي جاءت بها من غامبيا.

- نذهب في الحال للتحدث مع بيا وبِن، قالت نانا بعزم.

- ليسا في البيت. أريد النوم هنا الليلة، قالت مارياما بصوت خجل ضعيف. لم يهون على نانا الرفض.

- هل يعلم كل من بِن وبيا أنكِ عندي؟

- إنهما في اجتماع في نيوكاسل وسيعودان في الغد، قالت مارياما.

رنّ موبايلها في الوقت نفسه. ذهبت إلى غرفة النوم. لم تستطع نانا أن تتحاشى سماع أجزاء متقطعة من مارياما بصوتها المنخفض: «... لا أستطيع... سأسأل».

- هل كل شيء على ما يرام؟ قالت نانا عندما رأت جبهة مارياما المعقودة.

- هناك عرس في القرية وأمي لا تملك نقودا لتعطي العروسين. والخالة روزي تريد شراء منضدة لتبيع خضراواتها عليها في السوق وتعيل الأطفال، تنهدت بصعوبة.

- لا يمكنكِ حلّ جميع مشاكلهم. عليكِ أن تهتمي بدروسكِ وألا تعملي كثيرا. وكأن نانا لم تكن تتحدث مع مارياما التي أقفلت برفض للاستماع.

- ولكن بإمكانكِ أنتِ ذلك، همست بصوت خفيض جدا اقتضى من نانا أن تجهد من أجل سماع ما قالته.

- هل طلبت منك الخالة روزي أن تسأليني من أجل تمويل شراء منضدة للبيع؟ رقّ صوت نانا عندما أدركت المحنة التي وُضِعت فيها مارياما.

- قولي لها إن عليها الاتصال بي بنفسها.

- ليس لديها غير خضراواتها لتعيش منها. من الضروري أن تتمكن من بيعها في السوق. زوجها كبير ومريض. إن لم يكن لديها منضدة تطاردها الشرطة، إنهم يطردونها كل يوم من السوق، دافعت مارياما عن الخالة روزي.

- أنا أود أيضا مساعدتها ولكن إمكانياتي ليست بلا حدود، قالت نانا. حملقت مارياما كأنها ترفض اعتقاد أن هناك نهاية لثروة نانا.

- وأمي، قالت بحذر وهي تود أن توضح موقف أمها المحرج.

- اسألي عن مقدار المبلغ الذي تريده لنحوله عبر «الويستيرن يونين»، سبقتها بالقول. تسللت كلمة «نحن» إلى قاموسها مسبقا وقبل أن يُحسم أمر انتقال مارياما عندها في هنري ديكنز كورت.

قضت نانا ليلة أرق بنوع من النشوة لحضور مارياما المخلّ بالنظام في يوم عادي من أيام الأسبوع. هذه الهدية غير المنتظرة جعلت من حياتها بديهية تحمل الروتين اليومي. استهلا صباحهما بسعادة مع البيض وشرائح اللحم والخبز المحمص ولكن قبل أن يرفعا السفرة حدثت مشادة بينهما. ألحّت نانا على أن تذهبا معا لبِن وبيا لتتحدثا بشأن الوضع الجديد معهما.

كانت مارياما عابسة وعنيدة ولم تجد ضرورة لوجودها هناك. حاولت نانا أن تجعلها تفهم أنه ليس من المعقول ألا تشارك في نقاش يدور حولها وحول رغبتها في الانتقال. ولكن كل الأسباب لم يكن لها تأثير في مارياما. رفضت أن تدوس عتبة بيت شارع بورتلاند.

- لا أستطيع، أشعر بالخجل، اشتكت بقولها.

- بِن وبيا حكيمان وسيتفهمان.

- لا، لا أعنيهمـا، أعني الروح. أخذت ماريياما ترتعد. حضنتها نانا.

- مـا هـذا الذي تقولينه. نظرت ماريامـا أمامها ولم تجد من الضروري شـرح تدخّل العالم غير المرئي في المرئي، والحدود غير الواضحة بين عالمي الإنس والجن.

- لـديّ أيضا محاضرة قبل الظهـر، تذكرت ماريياما وبهذا كان لديها عذر تكن له نانا احتراما أكبر من الروح الهائمة المسكينة.

- لذلـك الأولويـة بالطبـع. قالـت نانـا وقـد اختـارت أن تثق بكلامها.

- بإمكانك المجيء بعد ذلك. لم يكن لدى كل من بِن وبيا وقت قبل فترة ما بعد الظهر، واصلت.

- بعدها لديّ سـاعات عمل في «سـينزبيري» همسـت ماريياما بصوت خفيض جدا وغير واضح كأنها لم تقل شـيئا. تغلبت نانا على شكها. لِمَ يتعين على ماريياما أن تكذب عليها؟

- سـأتحدث بنفسي معهما، قالت حاسمة. لقد خسرتْ المعركة ثانية مع ماريياما.

- شـكرا نانا، أنتِ طيبة جدا، مثل أمـي، قالت بصوتها الرقيق وانحنت وأعطت لنانا قبلتين في الهواء.

نجحـت نانـا في عمل موعد مـع بيا قبل أن تتوجه إلى شـارع بورتلاند.

عدا استثناءات قليلة كانت هي التي تزورهما وليس العكس. كان ضغط العمل الكبير يحول دون ممارسـتهما للحياة الاجتماعية بشـكل فاعل. في المقابل كان بيتهما مفتوحا لها. كان مرحّبا بها

على الدوام للمرور بهم وزيارة مارياما. في الطريق إلى هناك وقبل أن تغادر هنري ديكنز كورت مرّت على الرصيف المقابل امرأة مسنة جافة تتكيء في سيرها على مشاية بعجلتين. كانت الحلي تتدلى منها، سوار وسلاسل تصلصل، قلادات وبروشات من الذهب مثل أنواط على ياقة المعطف. كأنها أفرغت صندوق مجوهراتها خوفا من اقتحام البيت وسرقة القطع التي ورثتها خلال تنزهها بمصاحبة ممرضتها السوداء التي كانت ترقب سيرها خطوة خطوة وتهمس في أذنها بسّر. رؤية هاتين المرأتين غير المتشابهتين اللتين تتمتم إحداهما للأخرى أفزعتها فأسرعت في سيرها كأن ذلك نذير شؤم.

فتحت بيا الباب لنانا قبل أن تلحق لتقرع الجرس كأنها وقفت خلف الباب تنتظر وصولها. كانت جميلة ناعمة وتشع كعادتها بهشاشة شفافة كانت نانا معجبة بها. ربما لأنها قد خُلقت من مواد صلبة. اقترحت بيا أن تتوجها إلى غرفة المعيشة حيث جهزت صينية الشاي. كانت وحدها في البيت مما سهل على نانا مساررتها.

- أين بِن؟

- تم استدعاؤه لاجتماع طاريء. الأمور تكاد تتعقد مع برنامج التلقيح لدينا. إطار الميزانية لم ينضبط. كان لصوت بيا اهتزاز طبيعي.

- أنا قلقة بشأن مارياما، واصلت بطريقتها المباشرة وأسلوبها الصريح. خاب أمل نانا لرغبتها هي في البدء أولا بالحديث. كانت قد تدربت في البيت على ما ستقوله لبيا. عليها أن تقول

كلماتها بطريقة لا تحزن بيا أو تجعلها تغضب من ماريا ما أو من كليهما. بِن وبيا صارا عائلتها وهي لا ترغب في خصامهما.

- إنها لا توجد في البيت عمليا. بِن يرى الوضع غير محتمل وأن عليها الانتقال من البيت. أنا لا أجد ما يقوله صحيحا برغم أنه لا يتمنى إلا الأفضل لها. كانت بيا تتحدث بشكل سريع حتى تقطعت أنفاسها.

- لقد تحدثت معها، قالت نانا وقد شعرت بارتياح لأن مشكلتهم مشتركة.

- إنها ليست على مايرام في لندن، تفتقد بلدها وتفتقد عائلتها. بيا كانت قلقة بشكل جدي بشأنها. لم تعرف نانا ما الذي عليها قوله. يبدو أن ماريا ما لم ترغب في أن تدلي بما يؤلمها. بأنها لم تكن على ما يرام في بيتهما.

جلستا كل مع أفكارها. لم تبد بيا معافاة. هل كانت البنت من أوغندا التي تطاردها؟ هل تحلّ لعنة على هذا البيت؟ لم تجرؤ نانا على السؤال عن سبب علتها. بيا وبرغم كونها كائنا لطيفا وواضحا كانت كأنها مغلّفة لا يمكن مسّها.

- نحن على وشك أن نختلف بشأن الموضوع هذا. لأول مرة في حياتنا معا، قالت بيا بحزن وهي تعود إلى الموضوع.

- ربما تكون ماريا ما أيضا مستعدة لتجربة شيء جديد، الانتقال إلى قسم داخلي مثلا، قالت نانا وهي ترمي بتعليقها.

- إنها غير ناضجة بعد لذلك. إنها بحاجة إلى حماية ريثما تستقر تماما، عقبت بيا بحدة.

- ولكن لماذا لا توجد في البيت مطلقا؟

- لأننـا مريـان فاشـلان. عضّت بيا شـفتها. احتـارت نانا في اختيار كلماتها.

- لقـد احتضنتمـا ماريامـا، منحتماهـا المسـكن والطعـام وأعفيتماهـا مـن الواجبات لتنصـرف إلى دراسـتها. ما الذي في وسعكما فعله أكثر من ذلك؟ قالت نانا محتجة.

- الوقت الذي لدينا لها قليل جدا.

- أليست هي من ليس لديه الوقت لكما؟ عقبت نانا.

- نانا، أنت لا تعلمين حجم معاناتي، انفجرت بيا بالبكاء.

- اهدئي بيا. تملكت نانا رغبة في حضن يدها وتمسيد شعرها لكنها حاولت أن تبقي رأسها باردا.

- عفوا، شهقت بيا، فقدتُ أعصابي.

- لا تعتـذري، قالـت نانـا متضايقـة. لم تكن لديهـا خبرة في التعامل مع المواقف العاطفية.

- أنـا بخيـر الآن. اعتدلت بيا في جلسـتها وصبّـت المزيد من الشاي.

- ربمـا وجـود ماريامـا، أعنـي بالإضافـة إلى ضغـط عملكما الكبير كان أمرا متطلبا، قالت نانا كمحاولة.

- كان ذلـك قرارنـا المحـض ووفق ما أذكـر كان ذلك هو مقترح بِـن. كنـا ننوي أن نحـرّض أنفسـنا، انظري إلى مـا وصلنا إليه.. تنهدت.

- على ماذا؟ تشجعت نانا في قولها. نظرت إليها بيا كأنها قد نسيت وجودها.

- الاشتياق الذي يجثم على القلب مثل قطعة ثلج... الأطفال

غير مسموح لنا إلا باستعارتهم. اعتدلت في جلستها على المقعد وتابعت:

- تصورنا أننا قد استفدنا من تجربتنا. كانت بيا شاحبة، بيضاء تقريبا في بدلتها الصفراء. لم تعرف نانا ما الذي تقوله.

- أرجوك، ناوليني من فضلك حقيبتي. أمسكت بصدرها وأخذت تلهث. ناولتها نانا الحقيبة السوداء.

- هل يمكنني عمل شيء؟ تمتمت نانا.

- لا، شكرا، لو كان بإمكانك فقط أن تبقي قليلا، لا يمكنني البقاء وحدي. قالت والتقطت زجاجة الحبوب من الحقيبة.

- لن أتحرك من مكاني، أكدت لها نانا.

- يجب أن تحصل ماريا ما على فرصة عندنا. من المبكر الاستسلام. لقد اعتادت بيا أن تحصل على ما تريد.

- أعتقد أنها قد تطورت. إنها تتدبر أمرها وحدها بشكل جيد. إنجليزيتها قد تحسنت كثيرا، صار لديها عدد أكبر من المفردات، حاولت نانا من زاوية إيجابية.

- ينقصها تنويع أفضل في التعبير، قالت بيا بتدقيق.

- ما مقدار ما يمكن أن يتعلمه المرء خلال خمسة أشهر؟ قالت نانا مدافعة عن ماريا ما وقد استاءت لكونها لم تعتن باختيار ملابسها وغادرت البيت بالجينز الديزل القديم لا غير.

- أنا لا ألوم ماريا ما، نحن الذين فشلنا.

- أنتما تضعان شروطا عالية لنفسيكما.

- لقد وعدتُ نفسي ألا أستسلم، قالت بيا.

- كنت قد فكرت أن من الأفضل لماريا ما أن تقيم معكما لتتعلم

العادات البريطانية ولتندمج بشكل صحيح.

- كان ذلك تفكيرا جميلا منكِ نانا. ولكننا لم نصلح لذلك. كم من الإحباطات يمكن للمرء أن يحتمل؟ خرجت بيا ثانية عن طورها.

- لا تتمنى مارياما غير أن تقف على قدميها، قالت نانا مواسية.

- ستبقى مارياما حاليا هنا بغض النظر عما يقوله بِن. صبره قليل جدا مع الناس.

- ولكن ألا تستمعان إلى رأي مارياما حول الموقف؟ سألت نانا بحذر من دون أن تبوح بشيء.

- أظن أنها مشغولة بالاستمتاع بحياتها، قالت بيا مع طرقة صغيرة في صوتها.

- ما المشكلة تحديدا بينكم عدا عدم وجودها كثيرا في البيت؟

- أشياء صغيرة تصير كبيرة وتخلق مشاكل سخيفة بيني وبين بِن أكثر من بيننا وبين مارياما. تنقل أشياء دائما من غرفتها وتتركها هنا وهناك في كل مكان. أشياء تزعج نومها وتجتاح أحلامها كما تقول. تستخدم الحمّام كمحل صلاة وتغلق على نفسها داخله ساعات طوال، هي تزعم أن الحمام هو الغرفة الوحيدة تجاه مكة.

- إنها لا تصلي عندي بقدر معرفتي. داخلت نانا بقولها.

- لم نعد نشعر بأننا في بيتنا، أمر سخيف جدا، أشعر بالخجل. ويتكرر ذات النمط كأن مارياما هي نسخة من...

- ممنْ؟ قاطعتها نانا.

- شــيء علينــا أن نعتــاد العيش معــه. لا يريد بــن أن يتركها، الطفلة الجاحدة، تدمّر حياتها كما يقول. ولكن الأمر ليس بهذه السـهولة بالنسـبة إليّ. عذرا نانا. في مـرات قادمة، الحديث عن ذلك مؤلم جدا. ألمحت بيا إلى أنها تعبة وتود أن ترتاح. برنامجها المقحـم قـد ألقـى بظلالـه على نانـا التي لـم تسـتطع أن تنجز مهمتها عدا آراء غامضة لم يكن لبيا مجال لتفقهها.

- هل سيخفف عنكم إن انتقلت مارياما لفترة عندي؟ اقترحت نانا بحذر. لا يبدو أن بيا قد سـمعتها. كررت السـؤال بهمس. لم تـأت بيـا برد فعل كذلك لكنها ظلت جالسـة في مكانها في وضع جامد.

- بيا، هل قلت شيئا خاطئا؟ قالت نانا بعجز.

- أنتِ تسـتغلين تعاسـتنا. لم أكن أتوقع ذلك منكِ. أدارت بيا رأسها ببطء.

- لا أفهم...

- تريديـن الاسـتحواذ علـى ماريامـا. كانـت بيا مـن الواضح منتكسة.

- أود المسـاعدة، هـذا كل مـا في الأمـر. لعنت نانا نفسـها لأن خوفها من البشر يتحكم فيها إلى درجة أنها لم تتمكن في الحال من قول الحقيقة كما هي، أن مارياما ترغب في الانتقال عندها.

- ماريـاما...

- ما بها؟ قالت بيا بغضب.

- اقترح أن نجتمع نحن الأربعة لنحل المشكلة بينكما وماريـاما.

- ليس لبِن وقت لهذا.

اضطـرت نانـا إلى قـول الحقيقة. بيـا، ماريـاما جـاءت عندي بالأمس وأخبرتني في رغبتها في الانتقال عندي. ارتجف صوتها.

- لِمَ لم تقولي ذلك منذ البداية؟ كنا وفّرنا الكثير من الوقت. كانت بيا تنظر إليها مثل حيوان غريب.

- إن كانـت هـذه رغبتهـا فنحن لـن نمنعها. قد أتمّـت الثامنة عشرة كما أعرف، واصلت بموضوعية.

- يمكنهـا أيضا أن تنتقل إلى قسـم داخلي ربما، قالت نانا في محاولة يائسة من أجل أن تصلح الأمر وتتهادن معها.

- سيكون ذلك مكلفا بالنسبة إليكِ.

- أنا مستعدة لأهبها القميص الذي عليّ.

- أنتِ إنسانة خيرة نانا. استعادت بيا رباطة جأشها.

- ستنتقل في العطلة الصيفية بعد انتهاء الفصل الدراسي، قالت نانا بانتحارية وهي تعلم تمام العلم أن ماريـاما تود الانتقال في الحال.

- لربمـا نلحـق أن نلحم الشـظايا، قالت بيـا للغرابة من دون حزن. أقرّت نانا بهدوء أنها لا تفهم البشـر ولكن عليها أن تكتفي بالإعجاب بهم من على مبعدة.

كانـت ماريـامـا تحزم حقيبتها في شـارع بورتلاند. لقد وافقت علـى مضـض على المبيت عنـد بيا التي لم تشـأ أن تبقى وحيدة. عاتبتها بيا عند العشـاء لأنهـا قصدت نانا وأخبرتها برغبتها في الانتقـال مـن دون قـول كلمـة لها أو لـبنٍ. لم يكن فـي ذلك وفاء ولا عـدلٌ، قالـت لها بقنـاع وجه مشـوه أفزع ماريـاما وكشـف عن كون بيا كانت متلونة كإنسـانة ساحرة (لا يجب أن تفكر هكذا في

لنـدن لكنهـا فعلت). تحت مظهر بيا المشـرق كان هناك مدّ وجزر خطيريـن. غالبـا ما أنذرتها روزي بشـأن سـيطرة القمر على المد والجزر والتناوب بين سـكون الانسحاب وصعود الماء المندفع الذي لا يفلت منه أحد.

كانـت بيـا تتبدل خلال ثـوان من جَزْر مسـالم إلى تسـونامي ينهض مثل جدار شـاهق وينزل منهارا عليها. دافعت ماريـاما عن نفسـها بقولهـا إن نانا كانـت أمها التوباب ولـذا فقد لجأت إليها أولا. ولكن نانا تكون قد أساءت فهمها إن اعتقدت أن القرار بشأن أين ترغب في البقاء قد حُسِـمَ. الأمر يقتضي الكثير من الأفكار والتفكير لاتخاذ قرار حاسم جدا.

شـعرت ماريامـا بالإهانة لاتهـام بيا لها باللاوفـاء وأدركت في الحـال أنها اقترفت خطأ فظيعا بشـأن «الأم التوباب» الطفولية. لم تكن بيا تطيق سـماع الكلمة «أم» في بيتها بسـبب تلك البنت الأوغنديـة التـي تركتها في غيمة مـن اللعنات. حاولـت ماريـاما أن توضـح لبيـا أن عليهـا أن تتحلى بالصبر. سـتعود البنت حالما تستجمع الشجاعة وتستوعب الأمر. لن تخذلهما. إنهما عائلتها. ألـم تعلم بيـا أن الأفريقيين مخلصون لعوائلهـم إلى درجة جلد أنفسهم؟ لقنتها ماريـاما ذلك بنبرة حادة.

نـزل ذهـن بيا مـن الأعالـي العاصفة وعـاد إلى الجـزر ثانية، أرادت أن تعلـم فيمـا لـو كانت ماريـاما تعتني بنفسـها جيدا. لقد أصبح من الخطورة جدا المشي وحيدة في شوارع لندن بعد حلول الظلام. عليها أن تحرص دائما على مرافقة أحد الزملاء أو أحد مـن العائلة عندمـا تخرج للمدينة مسـاء. كانـت ماريـاما ممتنة

لرعايتها ولكن ألم يكن عند بيا غير تكرار قلقها وقلق نانا عندما تكون هي وسط محنة وفي حاجة إلى رأي ومشورة؟ بدأت تشك فيما لو كانوا بالفعل يرونها كما هي، شابة تنشد موطئ قدم في عالم غريب.

- دعينا نتحدث مارياما، قالت بيا كأنها قد قرأت أفكارها. وقفتا، إحداهما أمام الأخرى، في الصالة. كان السكون يعمّ البيت. كان لدى بِن ندوة ليومين في برايتون.

أخذت بيا يدها وقالت بصوتها المعتم الجميل إنهما كبيرتان ورشيدتان وإنها منذ البداية شكت فيما لو ستكون بصحتها المنهكة وذهنها الحساس رفيقة مناسبة لمارياما.

- أجل، أكدت لها مارياما. شعرت بأن بيا في حاجة إليها وكانت مستعدة لأن تضع نفسها جانبا. كان ذلك ما تعلمته كنصيحة أولى عند الخالة روزي، كل شيء يأخذ الأولوية دونها.

- لا يمكن لنا إلا أن نحبك، ابتسمت بيا.

- ولكن لمَ نقف هنا، دعينا نجلس على الأريكة، تابعت بابتهاج. جلست مارياما مرغمة على طرف الأريكة. لم يكن لديها الكثير من الوقت للرواح والمجيء. كان لديها موعد مع صديقتها بينتا من أجل مراجعة منهج الامتحان. كانت دراسة بينتا ممولة من قبل عائلتها في بلدها. والدها موظف في السفارة الغامبية في داكار. كانت تشعر بالوحدة في القسم الداخلي وضغطت على مارياما من أجل أن تنتقل عندها لتدعم إحداهما الأخرى. كانت المسافة الاجتماعية ستحول دون تخالطهما في بلدهما. ولكن والدة بينتا كانت معجبة

لأنها وجدت لها صديقة تتحدث الـ «ولووف» ولن تنسى بذلك لغتها. لم تكن راضية عن بينتا أثناء تحدثهما عبر الهاتف عندما كانت بدلا من أن تبحث عن الكلمات كانت تحول إلى التحدث بالإنجليزية. «بكسبكِ العالم ستخسرين روحك» كانت مقولتها الدائمة. لم تكن تعلم أن الصديقتين كانتا تتحدثان في الغالب الإنجليزية مع بعضهما.

- عفوا، ولكن ليس لدي الكثير من الوقت الآن، قالت ماريياما بينما نظرتها موجهة إلى الموبايل.

- سنختصر. أنتِ تودين الانتقال. برأيي يجب أن نسمع رأي بن في الموضوع. هذا قرار لا تتخذينه وحدكِ. علينا أن نقوم به معا، قالت بيا. فهمت ماريياما الأمر في كونها علاوة على ضرورة استماعها إلى النصح عليها أيضا أن تحصل على إذن في الانتقال. وربما أساءت فهم بيا فلم تستمع كل منهما جيدا للأخرى.

انزعجت فجأة وشعرت بالغضب من نفسها لأنها وضعت نفسها في هذا الموقف الشائك. لم يكن ليحدث ذلك في بلدها حيث لن تملك حينها هناك غير أن تكتم غيظها وتحتمل. كان إرباكا كبيرا ذاك الذي وجدت نفسها فيه، والذي جعلها تتدمر مثل الدخن بسحق النساء له بالهاون. كان رأسها يطرق طرقا. لم يكن في مقدورها اتخاذ أي قرار. خيل إليها أن كل القرارات خاطئة. وكل ما ستقدم على فعله سيتسبب في تعاسة أناس آخرين. لقد دخلت في عاصفة صحراء أثارتها بنفسها. والآن لا يمكن لها أن ترى حتى يدها في الظلمة. افتقدت أطر العائلة

الثابتة والقوانين الموضوعة التي يجب اتباعها من دون نقاش، كانت متشوقة فجأة إلى بيتها.

- مارياما، ألا تشعرين بالراحة عندنا؟ هل هناك من خطأ من جانبنا؟ وضعت بيا يدها على ذراعها.

- إنها البنت الأوغندية، طارت الكلمات من فمها. لم تستطع أن تكبت الضغط الداخلي. شحبت بيا مثل جثة وأمسكت برقبتها.

- إنها في الغرفة مساء، همست مارياما بفزع.

- دعينا نتحدث، كررت بيا. تنبهت مارياما إلى أن هناك لقاء لها مع بينتا عندما تلقت رسالة قصيرة أخرى عبر موبايلها.

- جاءت جانيت من كامبالا من شمال أوغندا حيث الأطفال يختطفون من قبل مجاميع المتمردين. الأولاد يصيرون جنودا أو عمالا عبيدا، والبنات يغتصبن وبعدها يصرن زوجات للجنود. جانيت هي نتيجة لاغتصاب جماعي لأمها التي كانت في الخامسة عشرة. تلك المسكينة لا تريد أن تعرف عنها شيئا وتركتها في مكتب «أوكسفام». جانيت كانت ابنتنا لاثني عشر عاما.

- ولكنها مازالت ابنتكما. ولكنها غير موجودة هنا الآن. اعترضت مارياما بشدة.

- إنه خيارها، قالت بيا باستسلام.

- سأساعدك في العثور عليها، قالت مارياما بحماسة ونسيت للحظة موعدها مع بينتا.

- هي لا تريدنا.

- لماذا؟

- لا تقول شيئا. لا تريد التحدث معنا. ليس في وسعي غير أن أؤكد أننا لم نفلح. خرجت بيا عن طورها ثانية.

- آمل أن نكون قد تعلمنا شيئا، وتنهدت.

- لعل كل الخبرات محض أوهام. الناس تقترف ذات الأخطاء ثانية وثالثة، ضحكت بيا بتهكم من نفسها. تغير مزاجها وخشيت مارياما أن يتجمع المد والجزر إلى تسونامي ثانية.

- لابد أنها بحاجة لأن تجد طريقها، قالت مارياما كأن البنت التعيسة كانت هي نفسها.

- لم يكن القصد أن أثقل عليك بمشاكلنا، قالت بيا بجمود، برفض تقريبا. لم تفهم مارياما إشارات بيا وشعرت بالإساءة لدفعها خارج حزنها. ندمت لأنها اقتنعت بالمبيت عندها الليلة. كان عليها ألا تلغي موعدها مع بينتا. لم يكن عليها أن تبقى في بيت تحتله روح البنت.

جلست بيا في زاوية الأريكة تحملق بنظرة فارغة مثل زومبي. لم تكن لتشعر بمارياما إن غادرت غرفة المعيشة وتسللت خارجة إلى الباب الرئيسي. لم تستطع النهوض من مكانها. لقد تسمرت في مكانها على المقعد. هل سحرتها الروح؟ اجتاحها شعور بالضيق ونال العرق منها. كانت وحدها تماما مع الروح. تراه من خلف كتفها الأيمن. فصلت نفسها عن المقعد وأوقدت كل المصابيح حتى سبحت الصالة في الضوء. انتفضت بيا بصرخة.

- ماذا أصابك؟ بدت كأنها رأت شبحا.

- إنها الظلمة، تأتأت مارياما.

- لا يمكنني احتمال الضوء القوي. أصاب بيا ضيق في

التنفس. ارتعد جسد ماریاما وخجلت من كشفها لتقبلها موضوع الأرواح. ذلك لا يمت إلى لندن بصلة. ولكنها كانت على يقين من وجود جانيت في البيت. فبمجرد أن يحل المساء حتى تأتي بحثا عن الطعام ولكن لم يكن في مقدورها مساعدتها. لا أحد غير بِن وبيا في مقدوره ذلك. إنهما مَن تريد جانيت الاتصال به. لم تكن غير تلك التي رأتها وأوصلت رسالتها إليهما.

أطفأت بيا كل المصابيح ثانية إلا واحدا عند الأريكة. هبطت الظلمة الناعمة على الأثاث وصفوف الكتب، على تمثال الخصب الأفريقي وأقنعة المحاربين. أدركت ماریاما فجأة أنها ستشاطر جانيت مصيرها إن بقيت طويلا في هذا البيت والتي حكم عليها بالدوران حوله. إنها لن تجد لها موطئ قدم في مكان ما إطلاقا.

- لقد أحببتكِ كثيرا، قالت بيا ولم تمسك نفسها عن احتضانها. تجمدت ماریاما في مكانها. ولكن بيا لم تلحظ عدم ارتياحها. كانت منشغلة بإخفاء هزيمتها هي وبِن والذي كان أفضل بكثير منها في كبتها.

- لقد استقبلتماني ومنحتماني الرعاية. بادلتها ماریاما مشاعرها المتفجرة.

- دعينا نتحدث، كررت بيا للمرة الثالثة. كانت ماریاما مرهقة جدا لانفعالات هذا المساء ولكنها جلست بأدب قرب بيا.

- لا بأس إن قررت الانتقال للعيش عند نانا ولكن عديني أن تفكري جيدا في ذلك.

- لا أدري ما الذي أريده، أنا في حاجة إلى فرصة، إلى وقت مستقطع، قالت ماریاما بعصبية. لما تمت إعادة بناء الانسجام

بينهما عاد الشك مجددا.

- لا داعي كذلك لأن تستعجلي، أكدت لها بيا. أجل، كان لديها سبب لم تجرؤ على ذكره بصوت عال.

كانت بيا حساسة جدا لسماع شيء بخصوص الأرواح ودخولها وخروجها الغريب. وكان من الخطورة أيضا الحديث عنها بعد حلول الظلام.

- أرجو أن تحتملي مزاجي. لم يفترض فيّ أن أعاتبكِ. من الطبيعي أن تسري إلى نانا بما لديك. إنها راعيتك الأولى، قالت بيا لتصالحها. شعرت مارياما بالفرح بعد أن حلّ السلم بين الطرفين الراعيين لها.

- لا بأس بيا. نحن جميعا نخطئ. قالت متسامحة. اعتاد الرجل الكبير أن يقول لها ذلك عندما تشكو له الخالة روزي لشدتها وتفرقتها في التعامل بينها وبين مادلين. لقد مرّ زمن طويل منذ أن خطر ببالها. هو الوحيد من بين أفراد العائلة الذي لم يتصل في كل الأوقات ليطالبها بإرسال نقود أو بإقناع راعيتها الغنية كي تساعدهم في عوزهم. الجميع حمّلها تأنيب الضمير. كيف يمكن لها أن تعيش هذه الوفرة من دون أن تتقاسمها مع عائلتها؟ كل صلواتها انحصرت حول ذلك السؤال. ولكنها لم تحصل على جواب.

- أن نبري الزوايا الحادة يقتضي منا الوقت والصبر وأن نتصالح معا، قالت بيا. هزت مارياما رأسها تجاوبا من دون أن تفقه ما كانت بيا تقصده. كان من الصعب فهم بيا.

- يمكننا الانسحاب الآن، ألا تتصوري ذلك. أطفأت بيا الضوء

الوحيد وتلمست طريقها وسط الظلمة إلى الباب حيث أوقدت ضوء السلم.

- تصبحين على خير حبيبتي، قالت وأسرعت بالنزول إلى العمل الذي كان في انتظارها.

- تصبحين على خير، همست ماریاما ويدها على فمها خشية أن توقظ الروح. تسللت إلى غرفتها ورقدت لتنام تاركة المصباح مضيئا معتصرة الموبايل في يدها.

قامت نانا بتذكير بن وبيا لفترة طويلة من أجل حصولها على توضيح بشأن وضع سكن ماریاما غير الثابت لكنهما كانا في خضم إدارة برنامج التلقيح في الكونغو ولم يكن لديهما وقت للاهتمام بـ «القضايا المنزلية».

- نحن ندفن أنفسنا في العمل بأيدينا لنخسرها، قالت بيا بنوع من الاعتذار. خاب أمل نانا بأصدقائها على الرغم من أنها هي بالذات من يتعين عليه تفهم أن العمل يأتي أولا. ولكنها ابتعدت كثيرا عن الشرط الأقصى الذي يفرضه ضغط العمل. كان «الشأن المنزلي» تحديدا الذي يشغلها أولا وأخيرا بعد أن لجأت ماریاما إليها في «هنري ديكنز سكوير».

في آخر جلسات التدريب واجهها جاكوب بحقيقة ارتباطها الكبير ببيا وبن. وقد بدأت هي في التفكير في مدى استحقاقه الأجر المخيف الذي يتعاطاه مقابل ذلك. وقد بدأ هانس يظهر محله في وعيها. شعرت في أغرب الأوقات فجأة بقربه الذي يذكرها بما تنازلت عنه. كانت قد وضعت على الفور خططا. لو تستطيع فقط أن تتغلب على زهوها

وتتصل به وتخبره بأنها ندمت على رفضها له وأنها مستعدة الآن للمحاولة مجددا. في البدء كأصدقاء وربما لاحقا في علاقة من على مبعدة مثل الكثير من ضمن حلقتهم من الحيوانات العاملة.

- هل اتبعتِ نصيحتي؟ قال جاكوب مستهلا بنغمته التحقيقية.

- أية نصيحة؟

- بأن ترتبطي بشيء ذي معنى.

- لقد اتخذت لي عشيقا. مدير مكتب التوظيف في فرع روار لندن. بإمكانه أن يعيدني للحظيرة بكبسة زر. بدت نانا أكثر إعجابا مما تصورت.

- هل سيفعل هذا حقا؟

- ذلك يعتمد على مدى تقديره لي.

- تلعبين بمخاطرة.

- أنا مقامرة. اهتز صوت نانا.

- بالنسبة إليّ فالأمر يبدو أنك تتصرفين من باب اليأس.

- أعرف ما أفعل. لا أستطيع أن أخذل مارياما في منتصف الطريق، قالت نانا بحدة. هي لا تريد أن تقيم عند بِن وبيا، تريد الانتقال للسكن عندي.

- وما قولك في أنها ستسكن معك؟

- ليس هناك من شيء أتمناه بقدر أن تكون عندي. ولكن ربما لن يكون هذا مثاليا بالنسبة إليها. ستستفيد أكثر من بقائها مع بيا وبِن.

- هل اعتدادك بنفسك قليل لتظني أنه من المحزن أن «تكتفي» بك؟ قال جاكوب محرضا.

- إنه استنتاج متطرف.

- هل أنت متهيئة لتحمل مسؤوليتها يوميا؟ أليس من المريح أن تكون على مبعدة منك تزورك في نهاية الأسبوع؟ تحدث جاكوب بنبرة كأنها مواجهة حاسمة بين زوجين منفصلين.

- أنت تبسّط الأشياء يا جاكوب. لم تبد نانا مقتنعة تماما. بقي جاكوب منتظرا.

- كانت المصادفة أن تدخل مارياما في حياتي. لقد عرفت إنسانة هي أهم بالنسبة إليّ من نفسي. كانت طفلة عندما التقينا على الساحل. الآن هي امرأة شابة، قالت نانا بصوت يشوبه لوم للنفس غريب.

- عليك وحدك أن تقرري إن كنت تودين تحمل مسؤوليتها يوما بيوم.

- عليّ أن أناقش الموضوع مع بيا وبِن أولا.

- ليس هما من يقرر ذلك.

- نحن فريق، دافعت نانا.

- ولكنك أنتِ مديرة الفريق، قال جاكوب. احتارت نانا. هو لم يعطها مقابل ما دفعته له.

- أنا أعرف بما يخص عمل الفريق وإدارة الفريق أكثر مما تعرفه أنت، قالت نانا بحدة.

- أنتِ مَن تلجأ إليها مارياما في حل مشاكلها، لذا فلن تتركي القرار حينها لبِن وبيا.

- ربما سيكون حلا وسطا أن تنتقل إلى قسم داخلي في الفصل الدراسي المقبل؟ حاولت نانا بقولها.

- قولي لي هل أنتِ خائفة منها؟

- أنا لا أدفع لك شقاء عمري من أجل أن تهينني، قالت نانا.

- واجبي هو أن أدلّك الطريق، أكد جاكوب.

- حسـنا، قالت نانا وسيطرت على نفسها، لم أكن يوما خائفة من شـيء. عندما كنت طفلة كنت «الولد الذي لا يمكن إخافته». كنـت أقـود دراجتـي عبـر الغابة آخـر المسـاء. لقد تسـلقت أعلى الأشجار إلى قممها. قفزت من على ارتفاع عشرة أمتار من القفاز. لاحقا مارست القفز بالأربطة المطاطية وحصدت الجوائز.

- كل هواياتك الرياضية لا تمنع من كونك تخافين من الناس الذين يفزعونك، قال جاكوب.

- لست خائفة منك... أنت الوحيد الذي لا أخاف منه، أضافت نانا بضعف.

- ولكن هل أنتِ خائفة من ماريانا؟

- أنا لا أحب استنتاجاتكَ.

- عليكِ أن تكوني صادقة مع نفسكِ.

- أنا أخشى الناس، همست.

- ما الذي فعلوه ضدكِ؟

- لا شـيء. مجرد أنني لسـت على طول الموجة نفسـها معهم. لا أعرف ما الذي سـأفعله بنفسـي. إن تقربوا مني انصفقتُ مثل بيت من ورق اللعب.

- كيف يكون ذلك وأنت مديرة فريق في روار؟

- يكون أدائي في أفضل حالاته بما له علاقة بالعمل.

- الا تحاولي أن تري نفسك كإنسانة عادية خارج مجال العمل، شدّد جاكوب من نبرة صوته.

- أنا لست طبيعية خارجا.

- إذن هي نفسكِ التي تخشينها؟

- أنت تقلب الأشياء رأسا على عقب.

- أنا أسأل وأنت تجدين الأجوبة، قال جاكوب بشعور بالإهانة.

- عذرا إن أزعجتكَ، أسرعت نانا بالقول.

- ما الذي ستفعلينه مع مارياما؟

- سأواصل التفكير بالقسم الداخلي. وسأتفق مع بيا وبِن بشأن المكان الذي ستقيم فيه حتى ذلك الوقت.

- حسنا، حظا سعيدا. قاطعها جاكوب. هذا الوقت الثمين قد انتهى. وقد تركت لحالها ثانية.

كانت نانا تستمتع بشراء الكثير في تسوقها وتقديم أشهى المأكولات. لكن مارياما تأكل مثل عصفور وتصنف وتركن معظم ما في صحنها جانبا. على نانا ألا تعد لها الكثير من الطعام وألا تملأ صحنها، تلومها مارياما. من الأفضل أن تفكر في الأطفال. قالت مارياما من دون تحديد أدق أي أطفال. خشيت نانا غضبها فتركت لها تولي أمر قائمة المشتريات. تحاشت النظر إلى البضائع الكمالية في قسم أصناف الطعام الشهية في تيسكو واستغنت عن الكافيار وكبد البط. كان الأمر كأن مارياما قد عاشت معها مسبقا، كأن روحها قد ملأت الهواء الذي كانت تتنفسه، وأنها الآن قد تجسدت في هيئة الكائن الحي. عندما كانت نانا تغادر تيسكو

بأكياس التسوق كان من واجبها أن تضع باوندين في قدح بيردي البلاستيكي. لقد تقبلت وجودها لكنها ترفض أن توصل إليها سلام مارياما كما تطلب منها.

اقترحت نانا دعوة بينتا للعشاء. كانت تقيم في القسم الداخلي «نيدا» في «كنجس كروس» وهو ما جعل الموضوع مهما بالنسبة إلى خطط نانا المستقبلية لمارياما. ولكن مارياما لم ترحب بالفكرة إطلاقا، ما جعل نانا تفهمه كنقد غير مباشر لها.

- ولكنك دعوتِ أصدقاءك في بيت بيا وبِن، قالت نانا مجروحة.

- لا تضغطي عليّ، لدي كثير من الواجبات، قالت مارياما وتجنبت أن تخبرها بأن بينتا لا تود زيارتها لا هي ولا بيا وبِن.

- دراستكِ أولا، تراجعت نانا.

- كانت تقف في خط مائل خلف مقعدها تنظر إلى ضفائرها المصففة التي تحسنت بعد المعالجة ذات التكلفة عالية الثمن للشعر المتضرر. رغبت نانا في تمسيد تلك الضفائر الرفيعة العديدة. لكنها أحجمت ولم تشأ الإزعاج.

سقط نظرها على شاشة الكمبيوتر التي كانت مفتوحة حيث موقع منتدى الغامبيين البريطانيين، «ممارسة الحب قبل الزواج». أمسكت نانا أنفاسها وهي تنزل سريعا بنظرها أسفل الصفحة. «إن كنت ستمارس الحب مع كل صديق أو صديقة لك. كم من الناس ستمارس الحب معهم؟». «لا أنصح إطلاقا بالحب ما قبل الزواج. ذلك يبدو أكثر منطقيا». «حسنا، إن ترك لي الخيار للاختيار بين عذراء وغير عذراء سأختار الشخص الذي يحبني ويحترمني أكثر». «الحب قبل الزواج أو العكس لا يهم،

المهم: لا تفعلها قبل الـ ١٨، وإن فعلتها تأكد من أنك تفعلها بـ «طريقة مأمونة» وما تبقى هو محض هراء».

شعرت مارياما بنظرة نانا إلى رقبتها واستدارت بفزة.

- لا أحب أن تتجسسي عليّ، قالت وأسرعت بغلق الكمبيوتر.

- لم أستطع تجنب رؤية ما كان على الشاشة، اعتذرت لها نانا وظلت واقفة في مكانها بشعور جامد غريب في جسدها.

- كان علينا أن نتحدث في الموضوع، تابعت بارتباك ولم تعلم ما الذي تفعله معها. لم تجب مارياما.

سرت رعدة غير محسوسة عبر ظهرها الضيق.

- هل لديكِ حبيب؟ كان بإمكان نانا أن تسمع في اللحظة خطأ ما قالته. تخفّت مارياما خلف صمتها. برأس فارغ تماما أخذت نانا تمسد شعرها.

- ليس حبيبا... ولكن هناك أحدا أفكر فيه، قالت مارياما عندما سحبت نانا يدها أخيرا.

- جيد، أليس كذلك؟ لم تشعر نانا بأنها متمكنة وقادرة على تولي الموقف.

- لا، ليس جيدا، ذلك يوزعني، حسمت مارياما.

- ألا تحبينه؟

- ربما... الأمر يحتاج للوقت ليتطور.

- تحدثي مع خالتكِ في أبتون بارك، قالت نانا ممتنة لوجود خالة يمكن أن تتولى الأمر. هزت مارياما رأسها نفيا.

- كم مر من الوقت منذ أن تعرفتِ عليه؟

- لقد التقيته مرة واحدة... لا مرتين...

- إذن لا حاجة بعد للتفكير فيما يأتي.

- ماذا لو ضغط عليّ؟ قالت مارياما مترددة وقد بدت بعيدة.

- ألـن تتحدثي مع خالتك؟ خشـيت نانـا أن تقترف خطأ وأن تنصحهـا بشـيء يتعارض مـع تقاليـد عائلتها. لـم تأخذ طوال عمرها موقفا من الحب كأمر للنقاش على مستوى أخلاقي.

- أفضل أن أبقيها خارج الموضوع.

- بإمكانها أن ترشـدك وتسـاعدك بشكل أفضل في اتخاذ قرار صحيح.

- إنها تتبع التقاليد فقط. لم تصل حقيقة بعد إلى بريطانيا على الرغم من أنها تعيش هنا منذ عشرين عاما.

- ولكنها تعرف ما هو الأحسن لك.

- أنت تتفهمين موقفي بشكل أفضل.

- هل تحدثتِ مع بيا وبِن؟ كانت نانا تخشى ألا تتدبر أمر دعم مارياما الذي تحتاجه.

- أنـا أعيـش عنـدك لـذا فأنتِ من أتحـدث معها حـول ذلك. تمنت مارياما لو كانت نانا هي كل من بِن وبيا، لو كانت تسـتطيع أن تقسـم نفسـها وتصير اثنين. لا وجـود لامـرأه مـن دون رجـل، لا في هذه الحياة ولا في الأخرى.

- القرارات الكبيرة يجب أن تُتخذ على أسـاس جيد. نصحتها نانا من منطلق عالم التجربة الوحيد الذي لديها.

- هل يمكنني الوثوق به؟

- لا يمكـن الوثـوق بشـيء فـي هـذا العالـم. ليسـت هنـاك استثمارات مضمونة مستقبلا.

- الله، قالت مارياما.

- ماذا؟

- يمكن الوثوق بالله.

- أجل أجل، هو.

- بينتا تخشى الملحدين. تراهم مجانين وغير معول عليهم، فلتت الكلمات منها.

- هل تعني ذلك حقا؟ ضحكت نانا وتذكرت فجأة أنها قد بلغت الخامسة والأربعين.

- إنها تخشى الناس الذين لا يؤمنون بالله، قالت مارياما بجدية وأصرت من أجل أن تفهم نانا أهمية الموضوع.

- لا تجرؤ أن تزورني مادمت أسكن عند بريطانيين غير مؤمنين.

- أنت لا تخشين الملحدين أليس كذلك؟ أرادت نانا أن تحضنها لكنها سحبت نفسها بعيدا.

- ليس أنتِ، قالت متملصة.

- ولا داعي لتخافي. أنا غير خطرة بالمرة، طمأنتها. لم يشغلها موضوع وجود الله بشكل كبير.

- ولكن بِن وبيا ملحدان، قال بِن. كان لمارياما جبهة معقودة قلقة.

- مادام أنه قالها بنفسه فذلك صحيح. هذا ليس بموضوع نتحدث بشأنه.

- لا أفهم، قالت مارياما مرتبكة.

- لا، عليك التفكير أكثر من ذلك. أنا فخورة بكِ. قالت نانا لتدير الموضوع إلى جهة أخرى.

- لمَ أنتِ فخورة بي... فأنا لا أتدبر أموري، قالت مارياما غاضبة بينما كانت دموعها تجري على وجهها. رأت نانا أن بشرتها كانت فاتحة جدا ... هل كانت تستخدم كريم تبييض البشرة الخطر الذي يسبب السرطان؟

- ولكن حبيبتي، وضعت نانا يدها على كتفها.

- طبعا تتدبرين أمورك، كانت نانا ذاتها من الطالبات النخبويات ولا يمكن لها أن تتصور شيئا آخر.

- سأساعدك في واجباتك. اقترحت نانا عليها متحمسة.

- أفضّل أن تذهبي معي إلى الطبيب. اعتدت أن يرافقني أحد ما من العائلة.

- هل أنت حامل؟ طارت الكلمة من فم نانا.

- أنا طاهرة، أجابت غير متأثرة من سؤالها المحرج.

- ما بك؟ قالت نانا بشعور بالتقصير تجاهها.

- لا أستطيع التنفس، ترتفع درجة حرارتي وأشعر بدوار. كل شيء يدور. قلبي غير هادىء بالمرة. لا أستطيع النوم. أحتاج إلى مهدئات.

- هل الحالة جدية؟ قاطعتها نانا قلقة.

- كل صديقاتي يتعاطين شيئا ما ليقاوموا الضغط. فتحت مارياما الكمبيوتر باستعراض وانتظرت من نانا أن تتركها لحالها لتكمل واجبها حول المرادفات الإنجليزية.

- سأحجز لك عند الطبيب وستحصلين على وصفة، قالت نانا وظلت واقفة في مكانها عند الباب. ركزت مارياما على الشاشة وتركتها واقفة.

- يجب أن تكوني على لياقة عالية عندما تبدأ الامتحانات.

علينا أن نقرر أي طريق ستختارين في توجهك في الدراسة.

- عفوا نانا أفضل ألا أتحدث عن هذا قبل انتهاء الامتحانات، قالت ماريا ما من دون أن تستدير.

- من الجائز أنكِ قد حلمتِ بدراسة ما، طب، قانون، علوم سياسية، حاولت نانا بقولها أن تشجعها. لم تجبها ماريا ما.

- لم لا تنظرين إليّ عندما نتحدث معا؟ أرادت نانا أن تعرف.

- ليس من الأدب أن أرفع عيني في عين شخص أكبر مني، قالت ماريا ما بعناد وهي توليها ظهرها. فغرت نانا فاها ولكن الكلمات خانتها. ذهبت إلى الصالة وأدارت التلفزيون وخفضت الصوت لئلا تؤثر في تركيز ماريا ما.

بدأتا بممارسة رياضة الركض معا في متنزه هولاند بارك الذي تحبه نانا لحدائقه اليابانية، الأوبرا في الهواء الطلق والمظلات الأنيقة والطواويس. كانتا منسجمتين بقامتيهما الطويلتين. تبدوان تقريبا مثل صديقتين في عمر متقارب. كانتا تركضان كل يوم أحد في الطريق نفسه بعد الظهر عبر ساحات التنس وحول ملعب الكريكيت انحدارا إلى أماكن لعب الأطفال متابعتين إلى ممرات الغابة صوب المدخل قرب أفنيو هولاند بارك. كانت ماريا ما هي الأسرع والتي ترفع من أداء نانا.

- نانا عليك بالمزيد من التمرين، ذلك مفيد لك.

- لا أستطيع التحدث في الوقت نفسه، لهثت نانا وجهدت من أجل اللحاق بإيقاع ماريا ما. كانتا مثل طيرين جنبا إلى جنب بحركة متزامنة. ينتقل الوعي من الرأس إلى الجسد إلى الأقدام

التي تحملهما مثل أجنحة. تخلّفت نانا وتقلصت عضلات ساقيها. وقفت لتستريح وترتخي عند جذع شجرة بلوط قديم وعر. عاندت نانا آلامها وتابعت بإيقاع أبطأ من دون أمل باللحاق بمارياما.

كانت تستمتع بأن تتبعها من على مسافة، تستمتع بتأمل أسلوبها الأنيق الحاسم بالركض.

انتابها تيار فجائي من شعور بالفرح.

– الدماغ يكبر عندما نركض. رياضة الركض تولد خلايا دماغية، قالت مارياما عندما جلستا في الجو الممطر تحت مظلة أحد مقاهي الأفنيو لترتاحا بعد جولة الركض.

– يبدو أني بحاجة إلى لياقة أفضل وذكاء أكبر، قالت نانا بتهكم من ذاتها.

– لا أعرف شيئا عنك نانا، قالت مارياما بصوتها الأنعم.

– ليس هناك الكثير لتعرفيه، لا تحب نانا أن يتحول الاهتمام صوبها.

– ماذا عن حياتك العاطفية؟ سألت مارياما بضحكة مكبوتة.

– لم يكن هناك وقت للحب في حياتي وفي المقابل فقد حالفني الحظ في اللعب.

– ألهذا السبب لست متزوجة؟

– لم أجد الشخص المناسب، ولكن إحصائيا يمكن أن يحدث هذا في أي وقت. تحاشت نانا ذكر هانس الذي يؤلمها الحديث عنه.

– هل تؤمنين بالإحصاء؟ مازحتها مارياما.

- إن كنت أؤمن بشيء فأنا أؤمن بأن المصادفة تسيّرنا.

- أين عائلتكِ؟ تابعت مارياما ببراءة.

- إنها قصة قصيرة. أنا وحيدة والديّ وقد انفصلا عندما كنتُ في عمرك.. بعد امتحانات الثانوية مباشرة.

- ماذا عن بقية العائلة؟

- ليس لي تواصل معهم.

- ليس من الصحي أن تكوني وحيدة. عقدت مارياما حاجبيها.

- عندي أنت، هذا هو الأهم، قالت نانا وقد شعرت بأنها فازت بالجائزة الكبرى.

- نانا نانا. هزّت مارياما رأسها.

- في صحتك وصحة مستقبلكِ، رفعت نانا كأسها. صلصلتا بالكأسين ورشفتا عصير البرتقال.

- أريد أن أصير ممرضة مثل الخالة أمينة، قالت مارياما باندفاع.

- هناك حاجة كبيرة لهم. كتمت نانا خيبة صغيرة.

- ولكن قد تغيرين رأيكِ حين استلامكِ النتيجة، واصلت نانا.

- أريد أن أعود لأساعد الأطفال المرضى.

- ستكسبين أكثر بكثير إن بقيتِ في بريطانيا.

- أريد أن أخدم بلدي، قالت بتصميم. لم تعرف نانا كيف تتعامل مع مثاليتها.

- هذا فيما لو اجتزتُ الامتحانات، تنهدت.

- ألم تعينكِ الحبوب؟

- في البداية.

- خذي المزيد إذن حتى تنتهي فترة الامتحانات.

- أنت تريدين لي الخير نانا، ركزت مارياما على صحن الفطور المتأخر.

- أنا هنا من أجل ذلك عزيزتي، قالت نانا مبتهجة.

- أمي تريد صورتكِ، لكي تتخيل مكاني، قالت مارياما من دون أن تنظر عاليا.

- بالتأكيد، قالت نانا وهي تعلم أنها لا ترغب في أن توضع صورتها في كوخ في قرية ما مظلمة محقونة بالسحر الأسود وفنون السحرة. لماذا تفكر بطريقة بدائية جدا؟ هل كان هو تأنيب ضميرها لأنها لم تكن سعيدة كفاية بإقامة مارياما عندها وعدم مقدرتها على الارتخاء بحضورها؟ الانتقال جعل التركيز يكون على الجانب الاقتصادي. لقد صرفت أياما في تحريك أوراقها ثم إجراء حسابات لتعرف كم من السنين ستكون قادرة على العيش بالمستوى الحالي بهذا الرأسمال مع مصاريف مارياما ضمنا. والحسابات قد أفزعتها. في الوقت نفسه فقد اختفى أملها في أن توصلها علاقتها العابرة مع باتريك إلى نتيجة.

- هلا أرسلنا لأمك صورتنا ونحن معا؟ اقترحت نانا.

- نعم، ولكن وحدكِ أيضا، أصرّت مارياما، روزي فقط من رآكِ.

- إن كان ذلك يسعد أمكِ فلن يحدث شيء إن حصلت على صورة، تراجعت نانا وتركتها تنال مبتغاها.

الصورة المثالية قد كسرت بصياح وضجيج آخر الشارع. كانت بيردي التي دخلت في مشادة مع بعض زملائها. دفعوها وصاحوا بها، شيء مثل «غراب البين». همّت مارياما بالنهوض لتساعدها ولكن نانا أمسكت بها.

- يمكن لتدخلك أن يكون خطرا، قالت لها، وامتثلت ماريا ما وجلست لتريح نانا. أنقذت بيردي نفسها من دون خدوش وجلست مجددا في مكانها على المنصة.

- لحظة، ركضت ماريا ما إليها ووضعت بضعة نقود في قدحها البلاستيكي. رفعت بيردي يدها كشكر لها وعزفت مقطوعة بالهارمونيكا بفمها. كان على نانا أن تسيطر على نفسها كي لا تذهب وتوبخ تلك المرأه لأنها أفسدت الأجواء الجميلة تماما.

طلّت الخالة أمينة في يوم سبت بعد الظهر في هنري ديكنز كورت مع قدر من المينا كبير جدا انبعثت منه رائحة طعام ماريا ما المفضل، قطع دجاج في صوص زيت النخيل منقوع بالبصل والليمون والثوم والفلفل الحار. لم تستطع أن تدل كنغستون وحدها. لذا كان على أحد أولاد عمومتها أن يوصلها بسيارته، فكرت ماريا ما وخنقت المفاجأة التي لم تكن في محلها بابتسامة مشرقة بينما كانت تشعر بالأرض تميد وهي تحت قدميها. لم يكن لديها وقت بالمرة لتضيف الخالة أمينة. كان عليها أن تنهي واجبين صعبين يجب تسليمهما يوم الإثنين. وللسبب ذاته غالبا ما كانت ترفض دعوات العائلة لنهاية الأسبوع.

لم تصدق أمينة أن لديها هذا الكم من الواجبات كل أسبوع وقد جاءت لتعرف ما الذي يقع خلف مناورات تهربها. وإن كان ذلك حقا صحيحا مع كل هذه الدروس فلمَ لا تأتي بكمبيوترها معها إلى أبتون بارك وتنهي واجباتها هناك في حضن العائلة؟

- نحن قلقون عليك، قالت أمينة برأس مائل وشفة عليا ممطوطة كشفت عن جسر من الذهب للسن الأمامي الأيمن.

حاولت مارياما أن تجعلها تفهم أنها لا تملك وقتا للزيارة كل أسبوع لما كان عليها أن تهتم بدراستها وعملها والإنجليز (والتي كانت العائلة على انشغال كبير بأمورها ما يحول دون اهتمامها بهما). لم تقل ذلك بصوت عال ولكن ما خفّف من تأنيب ضميرها أن أمينة والعم كانا بالقدر نفسه من الانشغال مثلها ولم يجدا الوقت ليهتما بها. أوضحت لها سبب رفضها للزيارات الأسبوعية بإحالتها الحذرة إلى حاجتها إلى هدوء لتجتاز كورس Advanced English وfoundation في خمس مواد لنهاية الفصل الدراسي لكي تتمكن من الدخول إلى الجامعة وتتمكن بهذا من تمديد فيزتها الدراسية.

حالما سمعت أمينة الكلمة المكروهة والمفزعة «فيزا» صمتت وسألت عن المطبخ لكي تضع القدر على الفرن. لم تذكر مضيفي مارياما اللذين لا تعرف اسميهما. أن تقيم مارياما في عنوانين مختلفين كان وحده فوضى غير مفهومة لديها. شعرت مارياما بأنها ملزمة بأن تريها الشقة لأن ذلك هو ما كانت الخالة تتوقعه منها. راحت أمينة تجول في البيت بحرية تامة كأنها كانت تعرف كل قطعة فيه وتفصيلة. طريقتها بتفحص الخزف الصيني غالي الثمن والشمعدانات وأباريق الشاي جعلت جلد مارياما يقشعر رعبا. لقد حرصت طوال الوقت على أن تحوطها لخوفها الكبير من أن تأتي على إلحاق ضرر بالعفش المؤجر الذي كانت نانا مسؤولة عنه.

أخيرا أجلستها على مقعد في المطبخ عند المائدة حيث قدمت لها شاي المساء مع كل ما يتبعه. حددت أمينة نقاط شكواها

ولامتها لأنها لم تخصص وقتا كافيا للعائلة ولهذا فقد تحالفت مع زوجة أخيها روزي التي وبّختها عبر الهاتف ولم تفهم ما الذي ألمّ بمارياما في لندن. ابنتها الصغيرة التي ربتها من أجل أن ترعى وتطيع أفراد العائلة الكبار. هل يعقل أن لديها واجبات دراسية بهذا الحجم؟ كررت أمينة بصوت روزي العالي الرفيع. كان فوق استيعابها أن تفهم وضع مارياما المضغوط بالواجبات التحريرية. على الرغم من أن أولادها يدرسون أيضا وسيتخرجون مهندسين لم تقبل أن يكون وقت مارياما المخصص للعائلة محدودا.

- سآتي لزيارتكم في الأسبوع القادم، وعدت مارياما دائخة من زيارة خالتها المفاجئة. مجيء أمينة بنفسها إلى كنغستون شكّل ضغطا عليها. هي لا تريد المجازفة بمجيء أمينة إلى هنا كل يوم سبت بعد الظهر ومع مأكولاتها الشهية لأنها لا تثق بحصولها على طعام جيد عند الإنجليز.

- كل العطلة الأسبوعية؟ حققت أمينة معها مستمتعة بكل قضمة من قطعة معجنات الـ «سْكون» مع المربى والكاسترد كريم.

صبّت مارياما لها المزيد من الشاي (المرة الخامسة) لتلينها وتؤكد لها أنها ستكون سعيدة بابتعادها قليلا عن الدراسة وارتخائها في شقة العائلة المزدحمة الضاجة بستائرها السميكة ذات الثنيات والكشاكش المسدلة دوما في الصالة الكبيرة والأرائك الجلدية والثريات بحرص على عدم دخول ضوء النهار وأنها تعشق السهر منتصف الليل معها أمام الشاشة المسطحة الضخمة التي كانت تعمل (غالبا من دون صوت) بمسلسلات

ميلودرامية نيجيرية الإنتاج، وأن ترى المشاكل العائلية المضخمة تحل في النهاية السعيدة لقصص الحب بينما تقرش رقائق البطاطا الحلوة المعمولة في البيت.

كانت أمينة مستمتعة بالخدمة وظلت جالسة في مكانها أطول فترة مما تصورت. وبعد كوب شاي إضافي بالحليب والسكر أرسلت رسالة قصيرة لابنها الذي أوصلها عبر لندن إلى هنا تخبره بأنها جاهزة للمغادرة. شدّدت على مارياما كي تتذكر أن تأتي بالقدر معها في الأسبوع المقبل إذ يصعب عليها الاستغناء عنه. لدى أمينة ثمانية قدور متشابهة ولكن مارياما لم تظهر علمها بذلك ووعدتها بأن تأتي بالقدر معها. سُمِعَ صوت منبه سيارة عال من شارع سيردار فأسرعتا بفضّ الجلسة.

- لم لمْ يدخل عمر؟ سألت مارياما وهي ترافق أمينة عبر ممرات المنطقة الخضراء بين العمارات السكنية.

- لا يريد إزعاجنا، قالت بشكل مبهم ولوّحت لابنها في السيارة ليسلّم على ابنة عمه ولكي يفتح لها باب السيارة أيضا. دخلت مارياما بعد أن غابت السيارة عن نظرها تماما. الوداع جعلها حزينة. والشقة بدت غريبة ومتروكة بعد زيارة أمينة. علمت في البدء أن العائلة موجودة إن احتاجتها لتقدم لها النصح والمشورة وكان ذلك بمنزلة دعم لها ولكن ما يترقبونه منها والشروط المفروضة عليها صارت حملا ثقيلا. كانوا يطالبون بالكثير من وقتها الثمين.

كانت واعية بشكل دائم للوقت في لندن، الوقت كالسيف يطاردها مثل ظل متوعد، كل ثانية في الدقيقة محسوبة،

الساعات، الأيام، الأسابيع والشهور. المكان الوحيد حيث الوقت يسكن كان عند الصلاة. ولكن قد بلغ بها الحال حدا لم تكن فيه قادرة على التركيز لخمس دقائق أثناء أداء الصلاة.

صحت من نومها منتصف الليل بخفقان في القلب وتشوش في نظرها تبعه صداع حاد. خشيت أن يكون قد أصابها شيء خطير. أن يكون «مربوط» (*) قد ألقى بالسحر عليها.

كانت تظن أن الشعور بأنها ستكون كما لو كانت في بلدها في لندن أمر مفروغ منه، كما سمعت في حلمها عن لندن. ولكنها اكتشفت أنها لم تكن هي التي كانت في بلدها حيث الأطفال كانوا من ملكية العائلة ولا عليها إلا أن تطيع. كان لديها هناك توازن في داخلها وكانت تعرف من هي. كانت تعرف القوانين وتعلم متى تجاوزتها ومتى ستنال العقوبة العادلة من الله أو الخالة روزي. رأسمالها الأكبر كان سمعتها. كانت دوما على استعداد لمساعدة الآخرين، وإخوتها الصغار بالرعاية، على الأخص مادلين التي كانت تتعرض دائما لمشاكل، والأطفال في التكنات عند محل تجميع القمامة. كانت فخورة لأنها حازت احترام الرجل الكبير لها. كان يمكنها أن تلحظ إنصاته لها على الرغم من أنها كانت أصغر سنا منه بكثير وأن لكلماتها تأثيرا فيه عندما كانت تترجاه ليجلب المزيد من الكاسافا واليام للأطفال لكي لا يتشاجروا من أجل الطعام. كان يدفع لها أجرا قليلا تسلمه للخالة روزي. روزي المسكينة قد تغيرت بعد أن فقدت عملها في البنك. صارت مُرة ولاذعة وانتظرت أن تعوضها مارياما ما خسرته من دخلها.

(*) المربوط هو إمام القرية، خليط بين الإمام ودكتور السحر الذي يشفي ويلقي اللعنات.. إلخ، الكثير من القرى في غامبيا تختلط فيها التقاليد والمعتقدات بالدين الإسلامي الذي يعتقونه.

فـي لنـدن حـدث تغيير غير محسـوس لهـا. قد تم اسـتظهار ماريامـا أخـرى نتيجة لإطلاق العنان والاسـتقلالية الأكبر. إنها تحن إلى نسـيان نفسها والكفّ عن التفكير فيما كانت عليه، وأي الخطـوات عليها أن تتخذ. وهل ما تفعله الآن هو الصحيح. لقد تعبـت كثيرا مـن مارياما لندن التي كانت واعية للوقت دائما وهو يسير أسرع وأسرع وها هو الامتحان المخيف سيحل على رأسها.

لم تعش في الوقت الحالي. لم تكن محاطة بالوقت مثل طير أو سـمكة في محيطها. كانت منفصلة عنه بشـكل غريب يعبرها مثل سـرعة شـيطان شـرير. تمنت لـو أن الزمن يتوقـف للحظة لتتمكن من التوقف ورؤية ما حولها وأن تترك النظرة تغطس في أشجار القرم الكثيفة بمحاذاة النهر وأن تجد لها طريقا ووجهة.

اتخذت مارياما من حبس نفسها في غرفتها بعد ساعة طويلة مـن الاسـتحمام عادة لهـا. كأنها لن تنظف كفايـة، وكأنها تود لو تفـرك وتزيـل وسـخ العالم عن جسـدها. من بـاب غرفتها المغلق انتشر سكون عميق في بقية الشقة ما أثار أعصاب نانا.

- مـا الـذي تفعلينه في الداخل؟ خشـيت أن تكوني قد ألقيتِ بنفسـك من الشـباك. لم تستطع أن تحجم عن قول ذلك عندما ظهـرت ماريامـا متأخرة أخيرا لتناول العشـاء الذي حفظته لها نانا دافئا.

- الحمام يهدئني، خفضت مارياما بصرها.

- أفضل من حبوب الأعصاب.

- بحاجة إلى أن يتوقف الوقت. جلسـت مارياما عند الطاولة تنظر في الصحن الخالي أمامها.

- يجب أن تأكلي شيئا. لقد نحفتِ، قالت نانا ولم تتقرب من سرّ الصلوات. رأت ماريياما تشبه عارضات الأزياء على المنصات المصابات بالأنوريكسيا ولكنها لم تجرؤ أن تقولها بصوت عال خوفا من غضب ماريياما. نهضت ماريياما مرغمة وراحت ورفعت غطاء القدر ولم تشته أن تأكل ما رأت. بدلا من ذلك وضعت الماء على النار لتعد شايا.

- ألا تحبين أكلي؟ بإشارة مناكفة لقدر أمينة الذي لم يُسلم بعد إلى أبتون بارك. لقد استمتعت بطبق أمينة دجاج «ياسا» وتسلّت بوصف ماريياما لزيارتها وقد شعرت ولو لوهلة بأنها من العائلة.

- لستُ جائعة، تمتمت ماريياما. الآن فهمتُ تحذيرات أمها. «اخشي ما تتمنينه. سيصير عدوك عندما يتحقق». منذ كانت طفلة كانت تدعو الله كي يكون هناك طعام كاف للأطفال والنساء بعد أن يأخذ الرجال نصيبهم. لديها الآن ليس فقط الطعام بل كل شيء بفيض ولكن الجوع خانها.

- أنا قلقة بشأنكِ، ما الذي يؤذيكِ؟

- لا شيء. رفعت ماريياما كتفيها. لم تستطع أن تقول لنانا إنها تخشى ألا ترقى إلى كل التوقعات بشأنها ولديها رغبة كبيرة في ترك كلية Southwark.

- كيف الحال مع الدراسة؟ تحركت نانا في حقل الألغام.

- الحبوب تؤدي مفعولها، قالت متملصة لا ترغب في أن تكشف لنانا أنها ومن أجل أن تكون في الجانب الأكثر أمانا ترجّت أمها أن تقصد الإمام وتجعله يصلّي من أجلها ويعمل لها

تميمة ترتديها بحبل من الجلد حول خصرها. يقتضي الأمر وسائط قوية إن أرادت الحصول على فرصة لاجتياز امتحانها ولكن لا الصلاة ولا التعاويذ قد عادت عليها بعد بتأثير إيجابي بما يخص مستوى درجاتها.

- أنت لا تقولين شيئا قط.

- لقد درستِ وتعلمين كيف هو الحال.

- كورس إنجليزي متقدم وتأهيل ليس تماما مثل ماستر في الاقتصاد. قاطعت نانا نفسها وشعرت بأنها قد أخطأت بقولها. ولكن مارياما ابتسمت فقط وأعدّت لها كوب شاي وإبريقا لنانا وانسحبت إلى غرفتها لتقيّم وضعها. لقد اكتشفت أنها لم تكن قلقة بشأن عائلتها كما كانت قلقة بشأن امتحاناتها. امتحانها يشغلها تماما. لا تفكر ليل نهار في غيره. وكأن القريب والبعيد تبادلا الأمكنة. تساءلت فيما لو كانت قد تضررت وصارت بريطانية بداخلها بسبب إقامتها عند الإنجليز.

أليس من المحتمل أن تكون سعيدة تماما من دون أن يتعين عليها دفع سعر لذلك؟

أتت مارياما على كل ما في الزجاجة من حبوب ووبخت نانا لأنها لم تحرص على شراء علبة أكبر ولم تصر على الحصول على وصفة طبيب جديدة لها. ولتسلم نانا فقد أعطتها ما لديها. لقد تركت لمارياما أن تنال مبتغاها دوما وتقرر نظام البيت المشترك. لم تلحظ أنها تغيرت وأن تواضعها اللطيف كان يتفجر مرارا إلى غيظ. لديها ما يكفي لمحاربة الخوف الذي يقضّ مضجعها لفكرة أن صورتين لها موضوعتان في الواجهة عند الأم، مفتوحتان

بلا دفاع ضد القوى الشريرة. فاجأها أنها ستكون ضحية لهذا النوع من التصورات البدائية. أنها كانت تحت سيطرة مشاعرها ولم تستطع أن توقف هذا الجنون الفظيع العدّاء.

لِمَ لَمْ تنتبه قبل الآن إلى أن العديد من المحاسبات والبائعات في المحلات في شارع هولاند بارك كانوا من السود؟ وأن ذات المنظر يقابلها عندما تذهب إلى السيتي، حيث كانت تجلس مرات عديدة خلال الأسبوع عند النافذة في المقهى عالي السقف مقابل مبنى روار في شارع باسينغال ترقب الداخل والخارج على أمل عبثي في أن ترى باتريك يأتي عبر الباب الدوّار ويظل واقفا ينظر عاليا تجاه قطعة المربع الصغيرة من السماء التي تسمو فوق ساحة المرمر، حيث سيمنحها ذلك فرصة أن تترك البار وتعبر الشارع قطريا كأنما بالمصادفة تجلس عند النافورة وحينها لن تستطيع نظرته أن تتجنب المرور بها.

بحوث نانا كما أطلقت على جولاتها إلى السيتي، أريكها حشد من الناس السود ببدلاتهم المخططة ومحفظاتهم. كان البهو في مبنى سيتي هول مملوءا بالسود في كل مكان، تحت أشجار النخيل، عند نضد الاستقبال، في الطريق من وإلى المصعد. لِمَ لم تلحظ قبل ذلك أن السود قد اجتاحوا لندن؟ تدفقوا أمواجا جارفة وغمروا الجزر البريطانية. لم رأت هذه القامات السود بالوجوه الصقيلة وعظمة الوجنات العالية في كل مكان؟ هل كانت مريضة؟ هل قمعت السود في صورة الشارع ولم تود رؤيتهم؟ تذكرت أن ماريا ما قد استغربت في البدء لعدد السود الكبير في لندن، ولكن نانا لم تأخذها على محمل الجد وقالت إن ذلك كان من باب التمني.

هـل كان الخوف من أن تحط الصـور عند أم ماريـاما في أيدي الناس الخطأ الذي استظهر هذا السرب من السود أنيقي الملبس وجعلهـا تــرى رؤى؟ منطقهـا كان يقـول لهـا (ولكـن المنطـق لم يكـن لـه وزن) إن لنـدن حاليا كانت مضيفة ولابد لقمة سياسـية أو مؤتمـر عالمـي كان تمثيـل أفريقيا فيه عاليـا. من خلال المظهر والملبـس ينبغي أن يكونوا من جنوب أفريقيـا، هؤلاء الذين كانت تعرفهم أثناء اجتماعاتها في فرع روار جوهانسـبيرغ. كانت تشعر بارتياح بصحبة زملائها من جنوب أفريقيا مسـتمتعة بأسـلوبهم الأنيـق، اعتدادهم من خلال بلاغتهم وتعاليهم العفوي. وعندما اسـترجعت التفاصيل تذكرت علاقة قصيرة كانت لها مع أحدهم من وسطاء جوهانسبيرغ التجاريين الشرسين من الشباب.

لم تكن حشود السود في المدينة فقط التي داهمتها في داخلها وعتّمـت علـى ذهنهـا. كانـت هنري ديكنـز كورت محتلـة من قبل العوائـل السـود وبقية صغيـرة من البريطانيـين البيض المتعبين اجتماعيـا، متقاعدين محنيي الظهر ينبشـون فـي القمامة من أجـل بقايـا الطعـام والقناني الفارغة. شـباب يحملون سـكاكين فـي أذرعهم وشـعرهم ذاك الراسـتفاري. لم تـع إلا الآن وجودهم الكثيف في الفناءات بين المجمعات السـكنية للدخل المحدود ذات الطوابق المنخفضـة. كانوا هناك طوال اليوم يركلون بهوس علب البيـرة الفارغـة التي تصيب أي شـيء كان بقرقعة تثير الأعصاب وتفسد عليها فرحتها بوجود ماريـاما عندها في البيت.

اجتاحها السـود حتى في أحلامهـا. كان هناك حلم بالأخص أو يكاد يكون كابوسـا يتكرر. كانوا في سـيارة الفندق الجيب التي

توقفت في مكان موحل أمام بنايتين إسمنتيتين متطاولتين. كانت العيادة الخارجية مزدحمة في الداخل بنساء وأطفال بطول الممر الضيق. وقفوا مثل سردين محشور في علبة، وقد جلس على الأرض من كان لا يستطيع الوقوف على قدميه لمرضه. أدخلوا مجموعة السواح في صالة المستشفى التي كان هناك فيها بالكاد ثلاثة أسرّة جلست عليها أو استلقت فوقها نساء حوامل وأمهات ولدن للتو يحملن أطفالهن الرضّع على أذرعهن. كن يرتدين ملابسهن اليومية المزركشة وقد أشرقن كزينة زهور للمبنى الإسمنتي الشاحب.

كان السكون والسلام يعمّ والأجواء رائعة. بنت حامل فاجأها المخاض فاستلقت بوجه مشدود بانتظار مساعدة تخلصها. شابتان انصب كل اهتمامهما على الوليدين اللذين انفصلا عن جسديهما قبل قليل. كان وقع المشهد على نانا عارما ما جعلها تجلس على أقرب سرير.

ابتسمت المرأه التي كانت على السرير لها وأشارت إلى الطفل الرضيع. استحسنت نانا الطفل الجميل. شرعت المرأه بالحديث مطولا بلغة قومها. وكأنها تسابيح توقفت فجأة مثل انقطاع تيار كهربائي. ناولتها الطفل بملامح جدية. لم تعرف إن كانت تجرؤ على قبول حركة المرأه، إن كانت تصلح لحمل طفل غريب. لم تحمل طفلا من قبل بين يديها، وكانت خائفة لئلا تأتي على اقتراف خطأ بسبب ارتباكها الدائم ولكنها تغلبت على ذلك واستقبلت الطفل باللفة.

كان في غاية الصغر، في غاية الهشاشة والحساسية. أصغر

وأهش وأكثر نعومة بكثير من دمى الطفولة التي كانت لديها. دمية سوداء حية، طفلة صغيرة في القماط. تحدثت الأم إعجابا بلغتها الملحّنة وأرتها كيف دعمت الظهر والرأس الذي سقط فجأة إلى الخلف وإلى الجانب.

لم تكن واثقة بأنها يمكن أن تحتمل الحياة والموت بين يديها فأعادت الطفل إلى أمه التي حيتها برأسها وهي تتكلم مبتسمة لها وراضية.

بوداع سريع (لم تستطع أن تترك جمع السياح ينتظر فترة أطول) ناولت نانا الأم ربطة نقود، ولكن رفضت الأم أن تأخذها شاكرة وقالت بهزة رأس:

- أعطيها للمستشفى، أعطيها للمستشفى، كررت، hospital .no money

ألقت نانا النقود في حقيبتها ووعدتها بحركة جسدها ولغة الأصابع أن تفعل كما قالت. نامت البنت الصغيرة بأمان عند صدر أمها. شعرت نانا بزهوها الأمومي وهو يسري في جسدها. تساءلت إن كانت هي الأم الشابة على السرير ويضرب من الجنون أوهمت نفسها بأنها المرأه البيضاء الغريبة. كانت نانا تستيقظ من نومها كل ليلة في المكان نفسه في الحلم وهي في فوضى غائمة من دون أن تعلم أين مكانها ومَن هي.

خوف نانا تسلل في غفلة إلى الشقة، إلى الجدران، على طوال ألواح الخشب وفوق في السقوف. لقد انحبست في الخوف وتصورت أن مارياما ومنذ البدء كان لديها مخطط لكي توقعها في مصيدة.

مع الوقت أقنعت نفسها بأن مارياما كانت شريكة مع الأم التي كانت تحرك الخيوط من هناك. وأنهما بخطة مشتركة منهما تريدان ومع الصور التي أرسلت أن تلقيا اللعنة عليها حتى تمرض وتموت.

خجلت نانا من نوبات الخوف وعاشت حياة مزدوجة، واحدة مع الخوف وأخرى مع مارياما. بدأت تشعر بعدم ارتياح بصحبتها وتتصرف بشكل غريب وبتشنج حالما تظهر. كانت قد غلّفت نفسها بخوفها إلى درجة لم تشعر فيها بالتغير الذي طرأ على مارياما. وكلما اشتدّ رد فعلها لضغط الامتحانات وأنانية نانا كبر الشك في داخل نانا بأن شيطانا قد سكن بيتها.

ومن أجل أن تحصن نفسها ضد فنونِ سحرِ قارةٍ بأكملها مجتمعة في قامة مارياما النحيلة وشخصها القوي شرعت بممارسة الركض بشكل مكثف وبأقصى حد من أجل الحصول على بنية جسدية بروح اليونانيين القدماء «العقل السليم في الجسم السليم». كان الأمر في البداية من أجل أن تبتعد عن الخوف وتستعيد السيطرة على نفسها وجسدها، وأن تجعل تلك العضلات المتمردة تعرف من هو الآمر الناهي. ضغطت على نفسها إلى أبعد حد وطورت وقتها يوما بعد يوم. كانت ساقاها تركضان منها منفصلتين عن رغبتها. لم تكن هي التي تركض ولكن كائنا آخر غير معروف تكشّفت قوته تدريجيا فيها. كانت ستجاري إيقاع مارياما لو كانت تحضيرات الامتحانات قد أبقت لها وقتا للتمرين. بدأت نانا في التفكير في المشاركة في ماراثون نيويورك الذي طالما حلمت به لولا منصبها الوظيفي كمديرة

في روار الذي لم يكن يمنحها الوقت لتفعل شيئا حياله. عندما تنهي مارياما امتحاناتها ستقترح عليها أن تتدربا معا للماراثون السنة المقبلة وتجد مسافات أبعد مما يسمح به هولاند بارك.

كانت نانا توشك على عقد رباط حذاء الركض بينما كانت متهيئة ذهنيا لتمرين اليوم. دخلت مارياما مسرعة عبر المدخل وقد أوشكت أن تقلبها. حملقتا في وجهَي بعضهما مفزوعتين مثل جسدين غريبين كلٌ من كوكب مختلف. ضحكت مارياما من الموقف الأحمق. شعرت نانا بعدم ارتياح جسدي لأنها خرجت من تركيزها وتمنت لو كانت قد غادرت البيت قبل مجيء مارياما.

حالما سمعت ضحكة مارياما المعروفة تراءت تلك الصور المشؤومة عند الأم أمامها وانهالت الأسئلة على مارياما. أين تحتفظ أمكِ بالصور؟ هل هي معروضة أم مخبأة في جارور؟ ما الذي فعلته بها؟ هل تأخذها معها عندما تخرج من البيت؟ كانت تسأل بشكل مرضي.

- إنها فخورة جدا بها، تريها للجميع في القرية، أكدت لها مارياما متقبلة بصبر استجوابها.

- ليصيبها أحد بعين الحسد. ضحكت مارياما لمحاولتها التفكير على الطريقة الأفريقية.

- أريد أن ترجعها لي، ألحّت نانا بهستيرية. وماتت ضحكة مارياما.

- لا يمكن أن تكوني جدية نانا، قالت لها. كانت قد تحسنت وصارت تعمل بتركيز أفضل وتدبرت أمرها بالقليل من النوم بعد أن بدأت بتناول الـ «ريتالين» الذي اشتراه صديق لها عبر النت.

- حتى إن لم تفهمي عليكِ أن تتقبلي حقيقة أن ذلك مهم،

مهم جدا بالنسبة إليّ. أصرّت نانا.

- ألا تثقي بنا؟

- أثق بكما ولكني لا أعرف كل القرية.

- لا، أنتِ لا تثقين بنا، قاطعتها مارياما. كانت متحدة بأمها والقرية، في الجانب الذي هم عليه.

- لا أريد غير استرجاع هذه الصور.

- إنها إهانة لأمي.

- بخلاف ذلك لن يهدأ لي بال.

- لا يمكنني أن أفعل هذا بأمي.

- أنا لا أطلب منك غير هذا مارياما. خرجت نانا إلى الشرفة لتستنشق هواء نقيا. تبعتها مارياما.

- سأطلب من أمي أن تحذر من أجل الصور كي لا يحدث لها شيء. هدأت مارياما ثانية. لم تكن نانا مرتاحة لوقوف مارياما من خلفها تكاد تدفع بها صوب السياج. دفعتها جانبا ودخلت المطبخ ثانية.

- أشعر بوحدة مع أفكاري، تمتمت نانا ونظرت أمامها.

- ولكني هنا عندكِ. ألم تشعري بذلك نهائيا؟ تقربت مارياما ثانية منها ما جعل نانا تشعر بالتهديد.

- أم أني غير موجودة بالمرة؟ قالت مجروحة.

- أنا في طريقي إلى المتنزه. لم تستطع نانا أن تحتمل قربها الجسدي الذي فرضته عليها.

- سآتي معكِ. لم يكن لدى مارياما الوقت لجولة ركض ولكن نانا كانت بحاجة لها.

- دعيني. تحاشت نانا مارياما وكانت تظن أنها رأت ظلا خلف كتفها.

- هل صحبتي سيئة لهذا الحد؟ وقفت مارياما أمام الباب.

- أنتِ تسيئين فهمي. لهثت نانا.

- أنتِ لا ترينني كما أرى أنا نفسي. خطت مارياما جانبا وتركتها تعبر.

- نحن مثل الأواني المستطرقة، قالت نانا وتناولت جاكتتها المطرية وفتحت الباب. وقفت مارياما جامدة في مكانها ونظرت إلى نفسها في المرآة فوق الصوان ثم ألقت بكل ما فيها من قوة بالتمثال البرونزي من على رف القفازات على وجهها بالمرآة. سمعت نانا ذلك الصوت الخيالي، تشظي زجاج المرآة فأسرعت لتدخل ثانية.

- أنا آسفة نانا، ولولت مارياما وراحت تلمّ الشظايا بحركة وهيجان. لقد جرحت أصابعها وسال الدم. نزلت بقع كبيرة من الدم على الأرضية. أقعدتها نانا على الكرسي في المطبخ حيث الأرضية أسهل تنظيفا ولن يؤثر القليل من الدم فيها. لفّت حول أصابعها النازفة ورق الكلينيكس وأخبرتها أنها ستتولى جمع الشظايا ولا عليها إلا أن تبقي يديها ساكنتين لكي يتوقف الدم. عليها أن تفهم أن الشقة مؤجرة ويتعين تسليمها كما تم تسلمها.

نظرت إليها مارياما نظرة غائمة من مكان بعيد ولم تشعر بأنها كانت قريبة منها. تركتها نانا تجلس هي وأصابعها المتشنجة وراحت لتكنس السجادة عند المدخل. عليها أن تسرع بإيجاد شركة تنظيف سجاد وأن تأتي بِن وبيا من أجل أن يعترفا

أن عليهمـا أن يقررا مكان إقامة مارياما ريثما يجدون لها مكانا في قسـم داخلي. لم يكن من الصحي ألا تعرف إنسـانة شابة إلى أي مـكان تنتمـي. يجـب أن ترتاح فـي إقامتها عندهـم وأن تكون فرحة وسعيدة وإلا فلا قيمة لكل تعبهم.

وقفت نانا في الطابور عند أحد الحاسبات في تيسكو. كان أمامها امـرأة سـوداء ضخمة بثياب حفل مبهرجة ومـن خلفها رجل طويل نحيـف ببدلة بيج متهدلة. كانت أنفاسـه السـود قريبـة جدا منها. تحرك الموبايل في جيب سترتها. لقد نسيت موعدها مع جاكوب.

- عـذرا جاكـوب، الخـط ليـس واضحـا هنـا. وأنـا محاصـرة بالشياطين، قالت كما لو كانت ظاهرة يومية. خطت خارج الطابور ودفعت السلة بقدمها إلى الأمام وتحركت بسرعة صوب المدخل.

- شياطين؟ فكر جاكوب في نبرتها الخفيفة.

- أنا أرى سودا من حولي في كل مكان، تابعت.

- لا أعتقـد أن هـذا غريب في لندن المزدحمـة بالمهاجرين من المستعمرات القديمة، قال جاكوب كأنه يقولها لمريض.

- لـم يكـن الأمـر هكـذا فـي البدايـة، والآن هم فـي كل مكان، اشتكت نانا.

- كيف الحال مع مارياما؟ أراد جاكوب أن يعودا إلى الموضوع.

- إنهـا واحـدة منهـم. وصلـت نانـا فـي مشـيها إلـى البـاب الأتوماتيكي ووقفت تنظر أسفل إلى بيردي وعشها. كانت تجلس كعادتهـا فـي مكانهـا على الدرج الإسـمنتي تحـرس مدخل قصر الاستهلاك.

- واحدة ممنْ؟

- الشياطين.

- مـا الذي حدث منذ آخر جلسـة؟ قـال جاكوب غير راضٍ عن تطور زبونته هذا، بالأحرى النقص في التطور.

- إنه غزو. بدأت نانا تتعرق تحت ملابسها.

- مـن الطبيعـي أن ما نركّز عليه حاليا نراه في كل مكان. إنها ماريامـا مـن تريـن. لقد تمكنـت منك. سـيختلف الأمـر عندما تصير جزءا من حياتك.

- إنها تخفي نفسها عني، تخفي وجهها خلف قناع.

- لابد أنها مثل كل الشباب الذين يحمون حياتهم الخاصة.

- إنها تتجسس عليّ من خلف القناع. أسرّت له نانا.

- أيـن المـرأه ذات المنصـب الوظيفـي والتعليـم العالـي فيمـا تقولينه.

- أنا لم أعد نفسي.

- ما الذي حدث لكِ؟

- لقد أرسلت مارياما بعض صوري إلى أمها هناك.

- وما المشكلة؟ قال تعبا.

- أخشى أن يقوم أحد ما بعمل سحر ضدي.

- من الذي له مصلحة في هذا ولماذا؟

- أنت لا تعرف كم هم فقراء هناك.

- أنتِ راعية مارياما، لا أحد سيجرؤ على إصابتك بضرر.

- إنها تقتحمني بنظرها وتعلم ما أفكر فيه.

- لِمَ تؤمنين بهذا الهراء؟ قال جاكوب مقاطعا.

- لا، لا أفعل، قالت بغضب.

- ما الذي تتحدثين عنه إذن؟ شعر جاكوب بأنه يضيع وقته.

- لقد حصل لي شـيء... لا أستطيع... الناس الذين تزاحموا في الخروج من السوبرماركت أتوا على دفعها بأكياس تسوقهم.

- طبيعـي أن يحدث شـيء. لقـد غيرت حياتـكِ جذريا. ولكن كفي عن تسميته بالسحر.

- لا سيطرة لي على شيء.

- يجب أن تتحلي بالصبر. لم يتم بناء روما في يوم واحد.

- ماريانا غريبة عني جدا.

- ولكن هذا لا يعني أن تجعلي منها شيطانا.

- لماذا أفعل هذا؟ قاطعته.

- لكي تفهمي لماذا.

- أفهم ماذا؟

- أنك فقدت السيطرة.

- من حولي ضجيج عارم، أنا مضطرة إلى التوقف. غرق صوت نانا في الضوضاء.

- سـأفكر فيما قلته وأعمل به، قالت نانا بأدب وهي تسأل نفسها إن كانـت بالفعـل في حاجة إليه بعد الآن، وإن كانت جلسـات تدريبه قـد أخذت مداهـا وانتهت. وضعت الموبايل في جيب سـترتها وعادت إلـى الطابور الذي صار خلال ذلك أطول بكثير. اشـتاقت فجأة إلى هانس، إلى مراعاته ونظرته المتوازنة، تفهمه لخصوصيتها ونصائحه الحـذرة التي لـم يتجاوز فيها الحـد إطلاقا. ولكنها لم تسـمع منه منذ انتقالها إلى لندن وهي لم تستطع أن تعود زاحفة إليه.

اتفقت نانا مع بيا بشـأن المرور بهما في اسـتراحة الظهيرة

بين الساعة الثانية عشرة والثانية. كان هذا هو الوقت الوحيد الذي كان كلاهما يستريح فيه. كانت الشركة قد تفجّرت في الفترة التي أقامت مارياما فيها عندهم. كان في حسابهم أن العمل الاستشاري للوحدة الأوروبية ومنظمات المساعدات الإنسانية سيقل مع الأزمة الاقتصادية ولكن الأمر كان على العكس مع B&B للاستشارات. أصرّت بيا أن يتحدثوا هم الثلاثة معا في تقديرهم للموقف، «مشروع مارياما»، كما حدّد بِن بطريقته التهكمية في جدول أعمال اجتماع الظهر. كان رأيه أن السيدات يمكن أن يجدن حلا من دونه ولكنه ضحى بنفسه فهو لا يملك لا الوقت ولا يقوى على تلك «الشؤون المنزلية» منتصف إعداده لتقرير تقييم صعب لقسم التنمية العالمية «DFID» الذي كان من أهم الشركاء لـ B&B للاستشارات.

- النقطة الأولى: كان من المفترض أن تكون مارياما قد خفّفت علينا يومنا. النقطة الثانية: أن تكون مع بيا لتؤانسها عندما أكون بعيدا. بدأ بِن الحديث بفعالية كأنه اجتماع عمل.

- لدينا نزيلة قد بدأت الدراسة وليس مساعدة عائلة. علينا أن نكون على بينة من هذا. قاطعته بيا.

- النقطة الأخيرة كسيدة مرافقة لبيا قد تم العمل بها جزئيا، واصل بِن متجاهلا ملاحظة بيا.

- أنا أحبها كثيرا. إنها ذكية. ذكرت بيا، والذكاء كان أعلى درجة في مقياسها.

- نحتاج نحن ومارياما إلى فرصة استراحة من بعضنا. قال

بِن بشكل قاطع. لم تتصور نانا أن الأمور كانت بهذه الدرجة من السوء.

- كما تعرفين أننا مختلفان بِن وأنا. إن أخذت ماريياما قرارها بالإقامة عندنا رغم هذا فمن رأيي أن نمنح الأمر فرصة. لقد اعتادت على إيقاعنا. وسيكون من الأفضل لها أن تركز مائة بالمائة على امتحاناتها بدلا من الانتقال وسط الوضع هذا كله. أكدت بيا. بدا الأمر كأن الأدوار تبادلت. كان بِن هو المؤيد لاحتضان ماريياما قبل، بينما أبدت بيا تحفظها.

- الكثير من الوردية في هذا. حرك بِن ذراعيه يأسا من الموقف.

- أنتَ تتصرف مثل طفل مدلل من تلك الفترة التي كان لديك فيها مربية وخدم. خرجت بيا عن طورها.

- لا داعي لأن ندخل في الخاص، قال بِن بعصبية في المقابل.

- ماريياما ليست خادمتنا، صرخت بيا بصوت غراب مبحوح.

- أرجوك، لدينا ضيفة. حاول بِن أن يهدئها.

- نانا طرف في القضية. لها الحق في معرفة وضعنا هنا، عارضته بيا. هزّ بِن رأسه. كان قد نحف وبدا منهكا جدا.

- ما قول ماريياما؟ قالت نانا.

- لقد تحدثت معها. ترددت بيا.

- هل قبلتْ عرضكِ... عرضكما بالعودة للإقامة معكما؟

- دعيني خارج الموضوع. أبقى بِن يده مرفوعة مستنكرا.

- ولكن لا فائدة إن لم تتفقا. لم تكن نانا مطمئنة إلى الوضع.

- بِن حبيبي، حالما تنتهي من تقرير الكونغو ستتحسن الأمور. ناشدت بيا فيه الأنا الراسخة القديمة. ولكن لم تبق من طاقة.

تملّـك نانا تأنيـب ضمير لأنهـا فرضت على الودودين مسـؤولية لـم يكونا قادريـن على تحملها علاوة على ضغـط العمل الكبير. كانت نيتها حسـنة. لكـي تمنح ماريااما الشـروط المثلى لإقامتها في لندن. في ضوء نكسـتها بدا كل من بِن وبيا على سيطرة تامة من حياتهما.

- ألن يكون من الأفضل للجميع أن تنتقل ماريااما بشكل دائم عندي؟ كان من الصعب على نانا ألا تعيش ماريااما معها.

- فـي رأيـي يجب أن ندع ماريااما بسـلام لتجتاز امتحانها من دون التفكير بقلقلة الانتقال، أكدت بيا.

- ولكنها مستقرة عندي الآن.

- ولكـن أن تتكيـف ذهنيـا، قاطعتهـا بيـا وألحّت فـي تحقيق مبتغاها.

- بِن هل أنتَ موافق على أن تبقى ماريااما عندكما حتى تنتهي من امتحاناتها؟ كانت نانا تأمل ولا تأمل بموافقته على ذلك.

- لا يعجبنـي هـذا النقاش. نهض من مكانـه بحركة مفاجئة حتى انزلق الكرسي على أرضية المطبخ.

- نحـن نتحدث عن ماريااما كأنها رزمة متعبة يجب أن ننقلها إلـى المـكان الأكثـر راحة لنا، واصـل وهو في طريقـه للخروج من المطبخ.

- ولكننا نناقش تحديدا ما هو الأفضل لها، علقت نانا.

- أنا أنسحب وأترك الرزمة لكما.

- هل خذلتكما؟ حاولت نانا أن تمسك به.

- بـل العكس، نحـن اللذان خذلنا أنفسـنا بأنفسـنا. أخذ بِن

يمشي جيئة وذهابا في المطبخ.

- ما قصدكَ؟ كشف الذات من قبل بِن أفقد بيا عقلها.

- لم يكن علينا بعد هذه الخبرة الطويلة في أفريقيا أن نقع في مصيدة «عبء الرجل الأبيض».

- ربما أقمنا هناك فترة أكثر مما يجب. أوشكت بيا أن تفقد صوتها.

- لا أشعر بأن مارياما عبء، بل العكس إنها هدية الحياة لي، انفجرت نانا مطلقة العنان لمشاعرها.

- تجعلين الأمر يبدو وحشيا، قال بسخط.

- ما هذا الذي تقوله بِن، أنت لستَ بوعيك، أكاد لا أعرفكَ، قالت بيا مفزوعة. غادر بِن المطبخ قبل أن تكمل كلامها.

- ما الذي قلته لكي يغضب هكذا؟ قالت نانا بحزن.

- أنكِ قلتِ ما تشعرين به مباشرة. حاولت بيا أن تضع انفعالها الذي سببه رد فعل بِن القوي جانبا.

- كيف يمكن لشعوري أن يكون مهينا؟ تناولت نانا قطعة جبن بأصابعها. كانت بحاجة لأن تضع شيئا في فمها.

- ليس للمشاعر حق دائما، إنها تمثل الأكثر بدائية فينا. كانت بيا إنسانة تقودها مشاعرها لذا فقد أدركت مقدار ما يمكن أن يصيب المرء من عطب.

- المشاعر القوية هي من قوى الطبيعة التي من الممكن أن تسبب الموت والدمار، واصلت بحرص شديد على الموضوعية.

- لا فهم لي بهذا. قالت نانا بعجز.

- أعتذر لأن بِن فقد زمام أمره. مزاجه مثل انفجار بركان. في

فتـرات متباعـدة ولكن في المقابـل عنيف جدا، قالـت محاولة أن تسوي الأمر.

- بن مثالي يطالب بالمستحيل، إما كل شيء أو لا شيء.

- اعتقـدت أني فعلت شـيئا لماريامـا، أني سـاعدتها إلى الأمام، قالت نانا بصوت ضعيف مفرغ من المشاعر.

- إنـه بِـن الـذي كان علـى خطأ. هـو يحكم على الأشـياء من منطلق مثاليته ولكن هذا هو ما أحبه فيه، إنه لا يقبل المساومة. تجمعـت الدموع في عيني بيا كأن اختناقـات بِن بتقرير التقييم لقسم التنمية العالمية قد آلمتها.

- دعينـا نتناول شـايا أخضر بالزنجبيل، قالـت بفرح. تذبذب مزاجهـا أقلق نانا. تجربة اليوم في شـارع بورتلاند جعلتها تفهم السبب وراء عدم شعور ماريامـا بالراحة في بيت حيث الهواء يموج بالتوتر والأعصاب منهكة.

- لـن تذهبي قبـل أن يهدأ بِن، لا صبر لديـه مع الناس بالمرة. عليهـم أن يكونـوا كاملين يرقون إلى مثالياته. من حسـن الحظ أني كذلك. ضحكت بيا ضحكة ناعمة مثل مَن خدع القدر.

- بِن يعجب جدا بالناس عندما يقابلهم أول مرة. ولكنه يصاب بخيبـة كبـرى عندما لا يصـدق انطباعه الأول بعدهـا، قالت بيا ثانيـة بموضوعية غطّت على حساسـيتها. وضعـت نانا كل اثنين معا: هي وماريامـا فشلتا. أصابت جسدها رعدة.

وكأن تيار ريح باردة قد اقتحم المطبخ.

- ولكن بِن طيب وحساس، تساءلت وفكرت بالثقة التي أولاها إياها بالاسـتعانة بها كمستشـارة اقتصادية ووضـع إدارة اقتصاد

B&B بين يديها.

- بصحة صداقتنا عزيزتي، رفعت بيا كوب الشاي وقرعتا كوبيهما من الخزف الصيني الرقيق. نهضت بيا من مكانها وفتحت باب الحديقة الخلفية التي كانت حديقة زينة من دون أثاث، شيء رائع للتأمل فيه وليس مكانا للجلوس. أمسكت نانا بذراع بيا واقترحت عليها أن تتمشيا وتتدفآ تحت الشمس.

استدعوا مارياما حالما عادت من القسم الداخلي نيدا حيث أخذتها صديقتها بينتا في جولة فيه. بعدها كان يتعين عليها أخذ قرار بشأنه مع نانا. كانت تعرف جيدا أن نانا ستفعل كل شيء من أجلها وتحقق أبسط أمنياتها. لم تفهم سر (أو ما الذي منحها في المقابل) سخائها لما كانت غير مؤمنة بالله. ولكن لم يكن من اللائق سؤالها حول السبب في كرمها الطاغي.

دخلت مارياما المطبخ وشعرت في اللحظة بأن شيئا ما قد أمسك بها بقوة غير مرئية وعلمت أنها قد ضاعت ولا خيار لها. قيدتها الروح في البيت في شارع بورتلاند. ما كان يجب أن تتبع محاولات نانا لإقناعها، بل أن تحترم القوى العليا. جلست عند المائدة وبقايا طعام الظهر أمامها لكنها لم تستطع بلع ولو لقمة واحدة. في لندن كانت هي التي تعتمد على الآخرين ومساعدتهم. في لندن ليس لديها لا سمعتها الحسنة ولا الاحترام الذي كانت تناله هناك على الرغم من أنها كانت في تلك الفترة مجرد طفلة وفي طريقها لأن تصير كبيرة.

انهمكت في تنظيف السفرة ووضع الصحون والأقداح والملاعق والشوكات في غسالة الصحون. عندما دخلت كل من نانا وبيا من

الحديقة كأن المطبخ قد نفِخ فيه.

- ما أحلى هذا، قالت بيا إعجابا. رفعت ماريا ما كتفيها. هي لا تحب أن يمدحها أحد مثل الأطفال. عدا ذلك فقد كانت تتوقع أن الموضوع سيكون بينها وبين نانا فقط. لا تشعر بالارتياح عندما تكون أقلية. كانت تحبهما، كل بطريقة مختلفة وتفضل أن تكون معهما كلٌ على حدة. لم تكن تتخيل أن امرأتين بيضاوتين يمكن أن تكونا مختلفتين بهذه الدرجة.

- لا أريد أن أقيم في القسم الداخلي لبيتنا.

- لماذا؟ انكسرت نانا فجأة.

- غالٍ جدا. ناولتها ماريا ما الأوراق.

- لا عليك التفكير في هذا. قالت نانا. شعرت بيا بنفسها فائضة عن الحاجة فراحت تسقي النباتات في الأصص بالماء من مزهرية كان فيها ورد. كان بيتها يحوي كل النواقص الغريبة التي تتفق مع ما يقال عن إنسان روحاني منعزل. جلست نانا مقابل ماريا ما التي جعلها الحضور متوترة ومتضايقة مثل امرأة عاشقة بحضور حبيبها.

- ولكني أفكر فيه، قالت ماريا ما بتصميم لا يقبل النقاش. لا تريد أن تضاعف دين الامتنان أو تحرض القدر حتى موعد الامتحانات.

- أنا أريد العيش هنا إن سمحا لي بِن وبيا، قالت وهي تشعر بالروح تنفخ في رقبتها. الروح لا تريد أن تفلتها ثانية حالما خطت عتبة الباب في شارع بورتلاند. نظرت إلى بيا التي أولتها ظهرها تلتقط أوراقا يابسة من الجيرانيوم. كانت لديها عادة أن

تتكلم مع نباتاتها.

- حبيبتي؟ قالت وهي تستدير بتعبير معتدل منشغل بوجهها.

- أريد العيش معكما هنا إن أردتماني، كررت بهدوء. آلم نانا أن ترى تلك الخصوصية والألفة بينهما. كان عليها السيطرة على نفسها لئلا تلقي بصحن الفاكهة في وجههما.

كانت تظن أن رغبة مارياما في الانتقال عندها أمر مفروغ منه أو في انتقالها إلى القسم الداخلي الذي ستدفع قسطه لها وبهذا ستكون في كل الأحوال تحت جنحها. كانت مستعدة تماما لتسلّم المهمة من بيا وبِن وبدأت تحلم بأيام سعيدة مع مارياما مثل تقارير المجلات من «البيت السعيد».

- اعتقدت... قالت بارتباك. أوضحت مارياما بصبر أنها ستنتظر قبل انتقالها حتى انتهاء الامتحانات. لا أحد يعلم ما الذي يجلبه المستقبل، بانتظارنا عتمة سوداء، أضافت بغموض.

- طبعا ستبقين هنا، هو قصدنا منذ البداية، قالت بيا سعيدة.

نهضت نانا من مكانها تنوي الذهاب للبيت لتستوعب نكستها.

- كلتانا لم تفلح بيا، كما فهمتُ حول طفلتك المتبناة من أوغندا التي بحتِ لي عنها في الحديقة. كانت نانا قد شعرت بالإطراء حينها لثقة بيا بها ولكن لا قيمة لها الآن مادام أنها فازت بمارياما.

- لن يتغير شيء نانا، واستها مارياما كأنها تعلم ما يلم بها.

- لا أخفي أن الأفضل لمارياما هو أن تبقى هنا وتنهي امتحاناتها، قالت بيا.

ظلت نانا في مكانها حائرة لا تنوي على شيء كأنها لم

تعثر على الباب. الكعبان الرفيعان انحفرا في عمودها الفقري وصعدا إلى رأسها من الخلف. كان عليها أن تجلس ثانية. شعرت فجأة بماريااما تمسّد شعرها. كان عالما بالمقلوب. من المفترض أن يمسّد الكبار رؤوس الصغار، فكرت وهي توشك على البكاء.

توجهت في اليوم التالي ثانية إلى شارع باسينغال. دخلت في سيتي بلاس هاوس وأعطت اسمها في الاستقبال. لم يكن لديها أية توقعات من زيارتها الارتجالية لباتريك. لم تره منذ اللقاء الأول والوحيد في شقته الاستوديو.

كانت تشعر بضيق ولديها شعور قوي بأنها أخطأت بنزوتها مع أحد أكبر رجال روار سلطة. كلما كبرت سلطتهم صعب أن يُعوّل عليهم، هذا ما علمتها التجارب. ربما لا يريد لها أن تكون معهم داخل الشركة خشية حدوث متاعب مع عشيقة منبوذة. لمجرد خطأ بسيط يضيع الإنسان.

كان رأسها مثل كثيب نمل مملوء بالمخاوف عندما صعد بها المصعد إلى أعلى. لو كان الأمر عائدا إليها لأنهت العلاقة العابرة اليوم. إنها لا تريد أن تختطف الرجل ولكنها تريد حصرا الحصول على الوظيفة التي أمّلَها بها. كان تعبيرا عن الشؤم واليأس أنها سلّمت نفسها له وكانت مستعدة للتراجع إن كان قد أراد ذلك.

خطت في الطابق الثامن في الموزع عند المصعد حيث الأرائك توزعت للاستراحة والانتظار. مشت صوب ممر المكاتب إلى مكتب باتريك. كان يجلس على حافة طاولة مكتبه يتحدث في الموبايل

ولـم يحرك سـاكنا وهي تدخـل عبر الباب. بحركـة خفيفة طلب منها الجلوس عند طاولة الاجتماعات. تحدث طويلا في الهاتف حتى ظنت أنه نسي وجودها. كانت توشك على النهوض والمغادرة قبل أن يغلق الخـط ويتـقدم ليصـافحها بشـكل رسـمي كأنهما لم يلمس أحدهما الآخر من قبل.

- أعتذر لأني في طريقي إلى اجتماع ولكن يمكننا التحدث في المصعد، قال لها بفتور. أدركت نانا على الفور أنها ارتكبت حماقة كبرى. وعت لحقيقة أنها منذ زمن طويل لم تكن هي نفسها التي ليـس في رأسـها غير شـيء واحد فقط هو العمـل والواجبات في فريق العملاء وتركيزها الصافي المعرّف الذي يولد نظاما صارما في العمل.

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟ سأل باتريك بحيادية.

- أأ... آمل ألا تكون...

- سـأتصل بك متى يكون هناك منفذٌ في هذا الحقل، أبعدها بقوله عن طريقه وضغط على زر الطابق الأرضي والمخرج.

وقـف أمـام المـرآة بهيئـةٍ كـي تتمكن مـن خلالها رؤيـة الرجل الناجح الذي كان عليه.

- أنا لا آمل أن تكون علاقتنا...

- علاقتنـا؟ رفع باتريك حاجبيه. قد نزل المصعد إلى الطابق الأرضـي بشـفطة واحدة. توجه مباشـرة إلى الاسـتقبال ليحجز تاكسيا. أسرعت نانا خلفه.

- فـي آخـر مرة عندمـا ... ذكرتَ أن اختصاصـي ينطبق جيدا على مواصفات هذا المجال. لم تُكن نانا له أي شعور ولكن موقعه

ذا السلطة جعلها تتصرف مثل دجاجة مريضة.

- الأمور في تبدل مستمر. لا أحد يعرف. راقب باتريك التاكسي الذي وصل المدخل الرئيسي غائبا عنها. ركضت نانا تتبعه إلى الشارع. جلس منزلقا في المقعد الخلفي للتاكسي، حياها برأسه سريعا. ظلت واقفة في مكانها وهي تنظر بضياع إلى خيوط أشعة النافورة الرفيعة.

بدأت في ذات الليلة باللعب عبر النت. كانت ماريا ما قد أتت إلى الشقة وحزمت أشياءها وتركت رسالة صغيرة تقول إنها ستتصل مع توقيع «مشتاقة لك. م». تناولت نانا الورقة بخطها المخربش وطوتها ووضعتها في حقيبتها للذكرى. حياتها في انحدار. آن الأوان لرحلة السماء. فتحت موقع gamblenet.com ودخلت إلى كازينو رشمور الذي يعطي أعلى مكافآت. كانت قد دخلت هذا الموقع بضع مرات لتتطلع ولكن من دون أن تلعب. اختبأت في السرير مع اللاب توب في حضنها وقدح من الشراب وكيس من الشيبس على الطاولة بجانب السرير. بمؤونتها الباذخة من السوبر ماركت انطلقت داخلة كهف النت الآمن متابعة إلى بهو اللعب الافتراضي. هذا اللعب لا يعطيها الحيوية كما لو كانت في الكازينو ولكن الشاشة في المقابل ابتلعتها تماما حتى ما عادت لها علاقة بالعالم الواقعي. كانت تقامر لتفوز وهذا كان يتطلب منها تركيزا مختلفا عما لو لعبت بمبلغ ما عشوائيا. عليها أن تردم بعض الحفر في حسابها الاقتصادي. خسارتها ببيعها الشقة التي فقدت عدة ملايين من قيمتها والراتب الشهري مع العلاوات المختلفة التي لم تعد تنزل في حسابها.

المصاريف الجارية العديدة التي قلّصت يوما بعد يوم من حجم توفيرها وستصل في يوم ما إلى السالب.

لم تعد تأمل بالحصول على عمل في روار فرع لندن. مارياما ربطتها بلندن وقطعتها عن بقية أرجاء المعمورة لتعمل حيث توجد فروع روار. افتقادها لحرية التنقل هذه كانت معوقا. كان من غير المعتاد وبشكل غريب أن تكون مرتبطة بشيء خارج روار، أن تقبض عليها مشاعر لاتزال مجهولة تجاه شخص آخر. ما هذا القرب الغامض الذي شعرت به تجاه طفلة من قارة لم تعرف عنها إلا القليل؟ ما هذه المشاعر التي لم تكن أوهاما ومثاليات ولكن كانت واقعا اقتضى أن تقوم بفعل والذي كان التغيير الراديكالي في حياتها للعام الماضي إثباتا عليه.

التبدل في الشاشة يوضح أنها كانت داخلة في اللعب. كان بإمكانها البدء الآن لو أرادت، أكدت لنفسها. اقتصادها يحتاج اليوم أو غدا إلى تزويد، إن احتفظت بالمستوى المعيشي ذاته بالإضافة إلى تمويل دراسة مارياما. لا تطمح بشيء في المقابل إطلاقا. كان عليها أن تتقبل حاليا أن مارياما اختارت البقاء عند بيا وبِن. شعرت بالأمان لأنها ليس لديها ما تفقده. الأفضل لها أن تجد نفسها في قاع البئر. إن كان من شيء قد علمتها الحياة إياه فهو التنازل. كان عليها أن تذهب إلى دير، فكرت بنوع من الهياج وهي تنتظر نتيجة الجولة الأولى. بدأت اللعب على الخفيف بمائتي دولار على الفردي.

غمرها الشعور بالأبدية الذي تكاد تميزه جيدا، منحه إياها

النت وجعلها أكثر جسارة عندما فازت بضعف ما راهنت عليه.

تدعّمت ثقتها بنفسها بجولتها مع مبلغ النقود الافتراضي. المجرّد كان محيطها هي. كانت وفي وقتها في روار تستمتع بدورانها على النت، تشتري وتبيع الأسهم وبكبسة زر تنقل المبلغ ذا الثمانية أصفار من محل إلى آخر. الآن هو رصيدها الخاص الذي تقامر به، مستقبلها ومستقبل ماريانا.

كان لدى بيا وبِن ونانا اجتماع طارئ عندما اتضح أن ماريانا لم تكن في أبتون بارك كما أخبرتهم. قد مرّت بضعة أيام منذ بداية الأسبوع قبل أن يكتشفوا أن هناك شيئا ما في الأمر فاتصلوا بالخالة والعم اللذين التقوهما في المرة الأولى. قامت الخالة باستدعاء بينتا التي كانت آخر من رآها مساء الخميس حيث افترقتا أمام محطة شارع ليفربول. كانت بينتا قلقة بشأن ماريانا التي لم ترد على اتصالاتها فاتصلت بالخالة أمينة وسألت عنها. كانت قيامة كبرى عندما علمت العائلة والإنجليزيان ونانا أن ماريانا لم تكن عند أي منهم في العطلة الأسبوعية ولم تكن كذلك في Southwark أول أيام الأسبوع.

اجتمعوا حول الطاولة يشربون الشاي، اثنان من أبناء العم (خرجا منذ الصباح للبحث عن ماريانا وحتى المساء)، أمينة وسولاي وبينتا (التي جلست بين الولدين على قطعة الصوف الجلدية البيضاء)، بيا وبِن (برغم أنه لا وقت لديه) ونانا التي جلست على حافة مقعد كبير. كان الصمت مطبقا تماما في الصالون المعتم بينما كانت أمينة تصبّ الشاي. وقد أديرت وجهة التلفزيون بعيدا عن الأريكة. كان يعمل من دون صوت لذا لم

يـر أحـد غير الضـوء الذي ينبعث من الشاشـة ويضرب السـتارة الثقيلـة. جلسـت أمينـة علـى ذراع الأريكة عند سـولاي مع كوب شايها. تنحنح بِن وكسر الصمت.

- لابـد أن هناك تفسـيرا طبيعيا لغيابها. قـال وراحت نظرته تنزلق من واحد إلى آخر.

- أتوقـع أنكم قمتم بإبلاغ الشـرطة. ناولته أمينة وصل تبليغ بافتقـاد ماريـاما بتاريخ اليـوم. لقد قضت أمينة نصف يومها في مركز الشرطة حيث تم كتابة تقرير عن القضية. سلّم الوصل إلى نانـا بـدوره. تداخلت الكلمـات أمام عينيها. ولم تسـتطع فهمها. ذلـك لـم يكن ضروريـا. أمر ما يمكـن أن يكون قد حـدث لماريـاما وفشلها كان يكفي. لم يكن هناك من داع لتثبيته على ورقة.

كانـت بينتـا الشـخص الرئيسـي فـي الاجتمـاع وكاسـتهلال للموضـوع طُلـب منها أن تحدثهم عن المسـاء الـذي خرجتا فيه معـا لجامع البـدر للقاء مجموعة الدراسـة في منظمة الشـباب الإسـلامي الغامبي. قالـت إن ماريـاما بدت عصبيـة وحزينة منذ أول اللقاء. ووضعها ازداد سـوءا عندما وقفتا عند موقف الباص وقد رأت شـيئا ما. لم تكن بينتا على علم ما هو بالتحديد لكنها مازحتهـا بقولها إن شـبحا ما مـر بها. كان لدى بينتا شـعور بأن ماريـامـا لديها اتصال ما بالعالـم اللامرئي. تصرفت في الجامع بشـكل غريب. نامت أثناء تدريـس القرآن كأنها تود الاختفاء من كل شـيء. لكنها أصرّت على المجيء معنا لتناول الشاي في المركز الثقافـي الـذي يقدمه بعد الدرس. كانت قد اشـتاقت إلى شـاي أتايـا مع الكثير من السـكر كما في بلدنا هناك، كما قالت. أسـوأ

ما حدث أنها بدأت بمناقشة أحد الشبان الملتحين الملمّين بالقرآن وقد تشاجرت معه وصاحت: لماذا أنا هنا؟ ما الذي أفعله هنا؟ أدرس الإسلام؟

أوضحت بينتا أن مارياما لم تكن تود الانضمام إلى المجموعة في البدء وأنها قد أخذت وقتا طويلا من أجل أن تقتنع. لكنها كانت كالمسحورة في ذلك المساء. سألتها بينتا عما إذا كان قد حصل شيء ما ولكن مارياما اكتفت بالقول إنها مجهدة ومنهكة بسبب التهيئة للامتحانات التي تقلقها كثيرا، بشكل مرضي تقريبا برأي بينتا.

- قلتِ إنها كانت حزينة. ألم تعرفي السبب؟ سألت بيا باستدارة صوب بينتا.

- لا أعرف، إن كان قد حصل شيء أم لأنها مجرد الامتحانات التي قد قربت.

- ألم تذكرنا قط؟ تابعت بيا. كان جلدها يشف، بلون النعناع الأخضر تقريبا. فكرت نانا أن اختفاء مارياما كان قد أثار مرض بيا.

- أجل... لا. لمارياما رأيها في كل شيء. بدت بينتا متضايقة من السؤال.

- هي لا يمكن التحكم فيها، أضاف بِن وهو ينظر إلى ساعته.

- جيد أنك فكرت هكذا، نظرت إليه بيا بعناد.

- أنت تفهم أنها ضربة قوية لنا. قالت بيا كأنها كانت في غيبوبة.

جلس أولاد العم وبينتا بضيق على الأريكة ولم يعرفوا أين

يذهبون ببصرهم.

الجو كان مثقلا بانعدام الثقة بين الموجودين. لم تستطع أمينة أن تمسك دموعها، تجففها باستمرار بمنديلها. كانت ترتدي عقدا مذهبا حول عنقها والكثير من الأساور الرفيعة في يدها والتي كانت تصلصل لأقل حركة. شعرت نانا بالخجل أمام العائلة وودت لو تنهض من مقعدها نحو الباب وتختفي مثل مارياما.

- هل تعرف أم مارياما...؟ سألت موجهة كلامها إلى الخالة والعم.

- يجب أن ننتظر حتى نتأكد من الأمر. قلب أختي ضعيف، قال سولاي بهدوء. هز أولاد العم رأسيهما مؤيدين وهما ينظران إلى حذائيهما.

بدأت أمينة مجددا بنهنهتها.

- معقول جدا. تحرك بِن قلقا في مكانه على الكرسي.

- إنها تتصل في الأغلب في العطل الأسبوعية لتراقب مارياما. عقبت بينتا بشد عصبي في إحدى عينيها.

- لنوجز الموقف، الشرطة الآن طرف في الموضوع وإن لم يستجد شيء فعلينا أن نمنحهم وقتا ليقوموا بواجبهم، أكد بِن وهو يدير الحديث ثانية.

- وأنتما، هل ستستمران في البحث؟ نظرت بيا إلى أولاد العم.

- لنترك هذا للشرطة، قال بِن مقاطعا. انسحبت بيا وهي تشعر بالإهانة. انفصلت نانا عن الجميع. لم تكن هي بل أخرى تلك التي تجلس على حافة المقعد في صالة العائلة. مثل هذه

الحوادث تحدث للآخرين ولكن ليس لها.

- رجوت أولادي البحث عن مارياما في كل مكان كانوا معها فيه، السينما، الديسكو والمقاهي. علينا أن نواصل وألا نستسلم. ألا نيأس، قال سولاي بوقار محزن.

في اللحظة ذاتها رنّ موبايل أمينة. تناولته وتوجهت إلى الجانب الآخر من الصالة الثانية. تحدثت بصوت خفيض باك. ظلت جالسة عند مائدة الطعام على الكرسي العالي الظهر ورأسها بين يديها. لمعت باروكتها الجامدة الملساء تحت ضوء السقف. نظرت نانا إلى القامة المتحجرة التي أشعرتها بأنها طائر النحس الذي اقتحم الناس البريئة وجلب لهم الحزن. كيف يمكن لها أن تصلح الأمور ثانية؟ لم يكن لديها غير النقود لتعطيها. وفي ذلك قصور كبير. نهضت ومشت إلى أمينة عند المائدة. أمسكت أمينة بيدها.

- ابنتنا العزيزة. كان علينا أن نعتني بها بشكل أفضل. خذلناها، تنهدت أمينة.

- إنه ذنبي.

- لا، ليس ذنبك، ليس بوسعنا إلا أن نصلي. نصلي ونبحث في كل زاوية من المدينة الملعونة. أفلتت يد نانا.

- أنت إنسانة طيبة، واصلت ونظرت إليها كأنها تريد أن تطبع في ذهنها كل حركة في وجهها، كل خط ودرجة لون في بشرتها. كانت كأنها تسمع مارياما. ذات النعومة حول النواة الصلبة. مثل لحم الفاكهة حول البذرة. معها كان الأمر على العكس. صلبة في الخارج ورخوة من الداخل.

نهضت أمينة وعادت إلى المجموعة. تبعتها نانا أكثر صفاء وهدوءا.

- هل كانت أم مارياما؟ سألت بيا حالما دخلتا الصالة الأولى.

- إيثيل اتصلت طوال العطلة الأسبوعية من دون أن تحصل على جواب من مارياما. أمينة حرّكت أحد الولدين من مكانه وجلست إلى جانب بينتا.

- تريد التحدث مع الإنجليز، قالت. وجهت أمينة حديثها حصرا إلى العم من دون النظر إلى الباقين.

مر ببال نانا أمر الصور التي كانت بحوزة الأم والتي نسيت أمرها خلال الفترة الأخيرة. لدى الأم الآن سبب وجيه للانتقام ولدى نانا سبب مقنع لتشعر بالخوف. ولكن الخوف قد ولى. كانت على العكس مستعدة لانتقام الأم. يكاد يكون ذلك خلاصا لها.

- نحن نحمل الإثم الأكبر، سمعت بيا تقول، مارياما مسؤوليتنا مادامت تقيم تحت سقفنا.

- ونحن سنقوم بالطبع بكل ما في وسعنا من أجل أن نجدها في حالة جيدة، انضم بِن إلى الجوق بقوله بأسلوب رنّان لا يشبهه.

- إنها عندي في أيام العطلة الأسبوعية، عارضت نانا.

- ولكننا كنا في تلك العطلة الأسبوعية المؤسفة مسؤولين عنها، صحح بِن.

- أريد أن أتحمل الجزء الخاص بي من المسؤولية، أصرّت نانا. لم تشعر يوما بالاختلاف بينها وبينهما كما اليوم.

- بالطبع، أكّدت بيا. إنها لا تطيق الصدع الذي حدث مفضلة أن تقسم الذنب بينهما بالتساوي.

- نحن جميعا مستاءون نانا، واصلت بعتب. لم تعد نانا قادرة على ربط نفسها بأصدقائها الطيبين. صارا كائنين غريبين عنها.

- علينا إذن أن نكون أوفياء لبعضنا، قالت نانا بشعور مزعج من عدم وجود مستلم لما قالته.

- سيعمل كل منا ما في وسعه لتحقيق النهاية السعيدة، قالت بيا ببرود.

- بالطبع، أجابت نانا بضعف.

- أنا مضطر للذهاب الآن، لا أود إزعاجكم، سأمر بمركز الشرطة لاحقا وأتأكد من سير العمل في القضية. نهض بن من مكانه وصافح الخالة والعم. صعقت مغادرته بيا لكنها أجبرت نفسها على البقاء في مكانها. أشفقت نانا عليها واستغربت الحال الذي آل إليه الاثنان بوجهيهما الآخرين. اقترحت على بيا أن ينهيا الزيارة ويعودا معا إلى هولاند بارك. ودعتا العائلة وبوعود متبادلة بالتواصل مع بعضهم البعض.

كانت نانا مستغرقة جدا على النت في لاس فيغاس عندما هاتفها جاكوب وفق الاتفاق. كانت شبكة الإنترنت هي مرساتها في خضم هذا الفراغ المريك الذي تركته ماريما. حاولت خلالها أن تتدبر أمورها وأن تظهر القليل من الطاقة. ولكن الطريق مازال طويلا إن تعين عليها أن تأمل بسد ولو بعض من خسارتها كما كان هدفها. كانت تعيش وتتنفس في النت ولم تعد لديها حاجة إلى جاكوب. ولكنها لم تلغ الموعد ونسيت أن تقول له إنها ألغت المبلغ الشهري الثابت الذي كان يحول إليه.

- أنا في اجتماع مهم، قالت.

- ليس أنا من تخدعين. كان جاكوب قد تعب من تذرعاتها فرفع الكلفة معها.

- أوكي، مشغولة على النت، قالت الحقيقة.

- عليك الخروج منه إن كنت تريدين إكمال حياتك.

- لا أريد المواصلة، ماريانا اختفت، قاطعته.

- مستحيل...

- من فضلك، هو ما أقوله لك، قالت نانا بالحق التعس الذي تملكه لكي تكون صعبة لا تطاق.

- عذرا، ولكن هذا أمر لا يعقل، قال وقد روعه حقا ما سمع.

- لا تسألني عن شيء. كل شيء فوضى.

- سيكون بذلك من الصعب أن... قال جاكوب بحذر.

- لم أفقد شيئا في حياتي يوما غير عملي. لقد حصلت على صديقة وكنت على درجة من الأنانية حين جلبتها إلى لندن.

- ماذا عن صديقيك؟

- كنا نتصور أننا نسيطر على أمر إقامة ماريانا في العطلة الأسبوعية.

- هل يمكنني المساعدة في شيء؟

- لا أحتمل الحديث عن ذلك.

- وتجلسين الآن وتلعبين في النت، قال جاكوب. لم تجبه نانا إذ شعرت بتعديه عليها.

- وما الذي يفعله صديقاك؟ حاول عن طريق آخر.

- لقد استأجرا مخبرا خاصا شرع في البحث عنها في

الجامعة. آخر مرة شاهدوا فيها مارياما كان مساء يوم الجمعة في مقهى الطلبة. لم يكن لها بعدها أثر. شعرت نانا بأن الحادثة تكبر كلما تحدثت عنها.

- هل بإمكاني المساعدة، يعني ...

- لقد كنت داعما مخلصا لي، لولاك لما تمكنت من تنفيذ انتقالي.

- إنه عملي. عمد جاكوب على ألا يقول أكثر من ذلك.

- الصداقة المدفوع أجرها أكثر من صداقة، إنها الصداقة المثلى، أمينة وثابتة لا تتغير، قاطعته بجوابها وقد تركها تقول ما لديها.

- لعلك تفهم بهذا أني لن أستطيع أن أواصل معك. لقد حدث شيء غير عادل... تعس جدا... أنا لا أستطيع الحديث عنه.

- هل أفهم من كلامك أننا... أنكِ تتوقفين هنا؟ قال جاكوب بحيادية.

- أود الاحتفاظ باحتمالية العودة إن احتجت إليك.

- ولكن ليس من المؤكد أنك ستجدين مكانا. لقد أغلقت باب التسجيل.

- اللعنة، أنت لست بصديق، صاحت نانا بالموبايل فقطع جاكوب الاتصال.

فجأة لم يكن هناك من أحد على الطرف الآخر. أصابها رعب من الانقطاع المفاجيء فأسرعت بإرسال رسالة قصيرة إليه تعتذر فيها عن انفعالها الشديد. أعادت بعدها انتباهها ثانية إلى الشاشة حيث أوقفت اللعبة مؤقتا. لم تستطع لأول مرة أن

تركّز وتركت اللاب توب يطفيء ضوءه. ولولت قليلا أمام الشاشة السوداء. كيف سيمكنها التخلي عن صديق ومساعد، الوحيد الذي يقلق بشأنها عندما يستحق الأمر؟ أرسلت له رسالة أخرى ووعدت بمضاعفة مكافأته إن منحها فرصة أخرى. كانت تعرف في محل ما أن السباق انتهى. لقد تمادت جدا وضربت حدوده.

تناولت نانا الموبايل الذي كان بجانب اللاب توب بيد مرتجفة وأخذت وقتا قبل أن تضغط الزر لتجيب. اختفاء ماريااما قد وضعها في حالة إنذار نفسية. في كل مرة يرن الهاتف يرتعد جسدها بأكمله، ويصعب عليها التركيز على المحادثة التي تدور حول أشياء أخرى غير ماريااما.

– هلو، قالت بخوف. كان مجرد صفير فارغ مثل صدى لا شيء.

– هلو، هلو، كررت وهي تسمع أصواتا منفعلة بعيدة ونشيجا ضعيفا. خفق قلبها هلعا.

– نانا؟ بدا صوت الخالة روزي.

– متى ترجع لنا ماريامتنا؟ واصلت.

– آسفة روزي أنا جد آسفة. نعمل ما نستطيعه لنعثر عليها.

– أنا واثقة بأنها تخفي نفسها في مكان ما، قالت روزي.

– هل تعرفين شيئا لا نعرفه؟

– أنا أعرف ماريااما، قالت روزي بثقة.

– أين يمكن أن تخفي نفسها ولماذا؟ قالت نانا كأنها تتحدث مع حكيم.

– عندما تورط نفسها في مشكلة ما تختفي دوما، هكذا كانت منذ كانت صغيرة، قالت من دون أدنى شك في صوتها.

- أية مشكلة؟

- وكيف لي أن أعرف؟ أنت التي يجب أن تعرف مشاكلها. كان عليك أن تهتمي بها.

- هل أخبرتكِ أن لديها مشاكل؟ كانت نانا تدور بلا استقرار في الشقة والموبايل في أذنها.

- لا ولكني واثقة بأنها تخبيء نفسها، قالت روزي بإيجاز.

- كيف حال أمها؟ سألت نانا بحذر وهي تخشى سماع الجواب.

- تعاني وتصلي طوال اليوم لأجل ابنتها. اسمعي، اسمعي معاناتها وصلواتها، قالت روزي بدرامية وأبعدت الموبايل إلى فضاء الغرفة الذي انطلق منه التأوه والولولة.

- هل تسمعينها؟ قالت بينما ابتعدت الأصوات مجددا وغامت.

- قولي لها إني أعاني أيضا. بلغيها اعتذاري الصادق لأني سببت لها الكثير من الحزن والألم، قولي لها إننا بالتأكيد سنجدها. آمنت نانا بوعدها تماما. مكالمة روزي أمدتها بشجاعة من جديد.

- هل لديكِ فكرة أين يمكن أن نبحث عنها؟

- الرجل الكبير يعرف ماريانا، إنه مرشدها، قالت روزي برسمية.

- إذن عليّ التحدث مع الرجل الكبير؟

- بالطبع.

- مر زمن منذ أن تحدثنا معا. ليس لديّ رقم هاتفه. خَفَت أمل نانا.

- هو يغير رقمه على الدوام. تثاءبت روزي بصوت عال.

- ما الذي أفعله إذن؟ قالت نانا.

- ومن أين لي أن أعرف؟ عليك أن تجديها. اسمعي. روزي أبعدت الموبايل مجددا عن أذنيها فارتفع صوت العويل ثانية واخترقها كأنه صادر من مكبرات صوت.

- أمها تعاني، قالت روزي كأنها تقدم مقطوعة موسيقية. اختنقت نانا بمشاعرها.

- هل بإمكانك الحصول على رقم الرجل الكبير؟ ترجتها نانا.

- تذكري أني أقيم بعيدا جدا عن سيرا كوندا، أرعى شغلي و«بسطة الفاكهة» لأبيع في السوق. بدت روزي راضية عن نفسها ونانا في المقابل ما دام أن النقود قد عادت بفائدة عليهم.

- علينا أن نؤمن بمعجزة إذن، قالت بيأس.

- مارياما ستظهر ثانية عاجلا أو آجلا. لقد ذهبت إلى المربوط.

- هل يعرف شيئا عنها؟ قالت نانا. الحادثة قد أبعدت تحفظها بخصوص الغيبيات.

- هو لا يعرف، هو يرى، أكدت روزي.

- ماذا يرى؟

- مارياما تخبيء نفسها في العتمة وهي على قيد الحياة. وقفة مصطنعة قصيرة لروزي.

- جديها، قالت وأغلقت الهاتف. المكالمة جعلت نانا تشعر بحدوث اختراق في البحث. منحتها قوة روزي العالية نوعا من ثقة طفولية بأن القوى الخيرة قد فازت ومن أجلها وهي ممتنة بمساعدة السحر الأسود.

أرادت نانـا أن تتصـل ببِن وبيـا لتخبرهما بمكالمـة روزي لكنها غيـرت رأيها وذهبـت بدلا من ذلك إليهما. تغاضـت هذه المرة عن احتمالية انشـغالهما بعملهما. ليس هناك من شـيء أكثر أهمية مـن أن تعود ماريامـا إليهم. مرّ وقت طويل قبـل أن يفتحا الباب لهـا. صعب عليهـا التعرف على بيا. ازدادت نحافة وشـحوبا أكثر ممـا هي عليه، ترتدي طبقات مـن قماش الحرير الرقيق من دون شيء تحتها.

- كيف حالكِ بيا؟ حضنتها نانا وتحسست خطوط هيكلها.

- ليس جيدا ولا سـيئا جدا، زقزقت ببهجة ولكن ما الذي أتى بكِ في هذا الوقت؟

- هـل يمكـن أن أدخل؟ كانـت نانا لاتزال علـى الرصيف تحت المطر.

- بالطبع، تفضلي، عذرا نانا. خطت بيا جانبا مفسـحة لنانا الطريق لتخطو إلى الداخل.

- عليكِ أن تعتني بنفسكِ، قالت نانا قلقة.

- أعـرف عزيزتي. لقد تركت العمل حتـى تعود ماريامـا ثانية، قالت بخفة كأن ماريامـا في سفرة فقط.

- هل يتدبر بِن الأمر وحده؟

- لقد قمنا بتعيين موظف.

- سـيتوافر لـكِ وقـت أكثـر إذن لتعتنـي بنفسـكِ. قالـت نانا متمنية أن يتوافر وقتها لها هي أيضا، تعني للبحث عن ماريامـا.

- ممكـن لكنـي ضجـرة وأغـار من الشـاب الوسـيم الـذي حلّ محلي. قالت سارحة قليلا.

- كيف تسير الأمور مع مخبركم؟ هل هناك من تقدم؟ لم تشأ نانا أن تستخدم الوقت في شيء غير مارياما.

- لم يصل إلى نتيجة. لقد فصلناه واستعنا بآخر، امرأة. ستكون مارياما بين يدين أمينتين معها، أكدت بيا.

- ولكن لا بد لنا من العثور عليها سريعا.

- الأمر خارج عن إرادتنا. أنا أثق بها، أعني ما هو البديل: هل ندور أنا وأنت في شوارع لندن بحثا عنها، نطرق أبواب الناس ونريهم صور مارياما؟ ناولتها بيا كوب شاي أعشاب فاترا. كانت الأجواء باردة ومغبرة في البيت غير المسكون تقريبا.

- أنا فكرت على العموم في البحث عنها.

- سيزيدك الأمر كآبة ليس إلا، قالت لها بيا رافضة.

- لا يهمني أمري البتة. لا أريد غير عودتها.

- نحن هواة. لن نتمكن من فعل شيء أفضل من مخبر محترف.

- ليس الأمر أما أو إنما، كلا الأمرين معا، قالت نانا وقد شعرت بالعجز لتراخي موقف بيا.

- لماذا أتيت نانا؟ صوبت بيا نظرة حادة إليها.

- لقد اتصلت روزي. إنها على ثقة بأن مارياما سيُعثر عليها وبخير. بدت نانا أكثر ثقة عما كانت عليه.

- كيف ذلك؟ انحنت بيا على كوب شايها تستنشقه.

- ذهبت إلى مربوط، قالت نانا. ضحكت بيا من ثقتها الطفولية.

- المعذرة نانا ولكن هل تريدين إخباري بأنك تؤمنين بهذا اللغو. لا مفعول لذلك إلا مع الأفريقيين.

- ماريامـا أفريقية وروزي أيضا.

- لا مشكلة عندي على العموم إن كان سيفعل فعله. قالت بيا بصبـر وأمدّت نانا بشـعور أنهـا كانت سـاذجة ومتخلفة ولا تميز البيض من السود.

- لنحـاول مـراجعة ما تعرفه كل منا: مَن تخالط ماريامـا، أين تتحرك، ونضع بعدها خطة مع العائلة، قالت نانا بمحاولة ثانية.

- المخبر الخاص هو ما يمكنني عمله، وهناك الشـرطة أيضا، قالت بيا منزعجة من إصرارها المرضي.

- ولكن لم يأت هذا بنتيجة، اشتكت نانا.

- سـيتابع بِـن الأمر بالتأكيـد. لديه معارفه فـي قمة الهرم... علاقات عائلية، قالت بيا. اسـتغربت نانا إزاء حجم المسـافة التي أبعدتها عنها.

- ولكن قولي لي بم تشـعرين إزاء اختفـاء ماريامـا؟ قالت نانا متعمدة تحريضها.

- بالطبع سـيئة، وسـيئة جـدا، أنا لا أسـتطيع النـوم، تأتيني كوابيـس، أنـت تعرفين بنفسـك كيف، قالت بفتور غريب. شـعرت نانا بأنهما تركاها في الموقف العصيب وحدها.

- لا يبدو أن ماريامـا تعني لك شيئا، قالت نانا بغضب.

- نانا أنت تجرحينني فعلا. شـاب خدي بيا الشاحبين احمرار خفيف.

- أنـت وبِـن تتـركان الأمـر لمخبـر خـاص. أنتمـا لا تشـعران بمسـؤولية شـخصية. قالـت نانـا منفعلة. لـم تنظر لهـا بيا ولم تجبها.

- لابد أن تعرفي شيئا يمكن الاستدلال به. تجمعت الدموع في عيني نانا. عطفت عليها بيا.

- لقد غادرنا صباح السبت مبكرا، كان البيت ساكنا. لم نسلّم عليها لاعتقادنا أنها نائمة في غرفتها. لقد أخبرتنا كما تعلمين بأنها ستقضي السبت والأحد عند عمها خلال وجودنا في نيو كاسل. أرجوك دعي تأنيب ضميرك لنفسكِ، كفي عن لومي ولوم بِن. تحدثت بيا بهدوء وعلى وتيرة واحدة.

- أنا في حاجة إليكما، إلى مساعدتكما ودعمكما.

- نقوم بكل ما هو ممكن إنسانيا من أجل العثور عليها، قالت بيا.

- أنتما نفضتما أيديكما، قالت نانا بهستيريا.

- لم تلحّين على إهانتنا؟ ما الذي فعلناه لكِ؟ تحدثت بيا معها مثل أمّ أسيء إليها.

- أنتما خذلتماني أنا ومارياما. شعرت نانا بالدموع وهي توشك أن تنهمر.

- بإمكانك أن تنتقلي للسكن عندنا، إن كان ذلك يساعدك. مقترح بيا شلّ لسان نانا.

- غرفة مارياما فارغة. اكتشفنا أنها قد أخذت كل ثيابها وأشيائها معها. لابد أنها قد وجدت عنوانا أفضل.

- ولكنها مازالت مختفية...

- فكري في الأمر عزيزتي. لا يصح أن تبقي وحيدة. أنت بحاجة إلى صحبة، قاطعتها بيا ووضعت يدها الباردة على نانا. كانت غريبة بالنسبة إليها مثل المرة الأولى التي التقتها في فندق جولدن باي في المطعم.

وقـف بِـن في ذات اللحظة عند بـاب المطبخ ومن خلفه رجل شـاب أسـمر البشـرة بمظهر أرسـتقراطي. بـدا بِن غيـر مرتاح لوجود نانا.

- هل هناك من خطة تآمر مع بيا؟ قال بِن بغموض.

- أرجوك بِن. حالة نانا سـيئة جدا بسبب اختفاء ماريـاما. كن لطيفا معها، قالت بيا بحزم.

- أنـا فـي طريقي إلى مركز الشـرطة لأرى إن كان قد اسـتجد شيء، ردّ على عجل.

- هـل يمكنـكِ الاهتمـام بألفاريـز، أن تعـدّي له غـداء؟ عذرا سأضطر لترككم. هبّ بِن عبر الباب.

- بالطبع حبيبي، صاحت بيا من خلفه.

- يبدو أن بِن لم يطق رؤيتي.، قالت نانا.

- بسبب عمله الكثير، أليس كذلك ألفاريز؟

- بلـى، إنـه يعمـل أكثر من الـلازم. كانت لكنـة ألفاريز جذابة ورموشـه كانـت طويلـة معقوفـة كأنهـا لمـن هـو أصغر من سـنه. اعتدلت بيا في جلستها بحركة نشطة.

- سأعدّ لك الطعام، قالت له بيا بنعومة.

- وأنـتِ قد تناولت غداءك أليـس كذلك نانا، واصلت بيا وهي تفتح الثلاجة.

- أجـل أجـل، كذبت نانا محرجة من سـوء ضيافتهـا الذي لا يشبهها نهائيا. كانت على درجة من الأدب سديدة الرأي دائما.

- أي شـراب تريـد؟ قالت بيـا ثانية لألفاريز الـذي أخذ يهيئ المائدة لاثنين.

- بيرة، قال بصوت ناعم مثير. نهضت نانا من مكانها.

- هل ستغادرين؟ قالت بيا وقد بدت أكثر من راضية عن قرارها.

- أجل... لا... أعتقد أني سأنتظر حتى عودة بِن من الشرطة لأرى إن كان هناك شيء جديد. جلست نانا مجددا.

- سيتأخر كثيرا. أنا سأتصل بك، قالت بيا بحماس متعجلة التخلص منها.

- أوكي، ذعنت نانا للأمر. نظر ألفاريز نظرة طويلة إلى بيا.

- أنت لا تحتاجين إلى أن أرافقكِ إلى الباب عزيزتي، قالت بيا منشغلة بإعداد الطعام. صعب على نانا الخروج من الباب.

- فكري في الأمر. أنت على العين والرأس إن فكرت في الانتقال عندنا. أنت بحاجة لمن يهتم بكِ. وضعت بيا صحنا بشرائح لسان على المائدة. استجمعت نانا أخيرا قواها لتغادر. في الطريق سمعت زقزقة بيا وضحكة ألفاريز الجهورية. انتابها شعور مخيف بأنهما قد شطبا ماريامـا.

أثناء مغادرة نانا تيسكو وضعت باوندين في قدح بيردي البلاستيك وقالت وهي تمر في طريقها إنها من ماريامـا. كانت بيردي منشغلة مع موبايلها ولم تستجب لها. كررت نانا بأعلى صوت من دون صياح بأن ذلك كان تحية من ماريامـا. نظرت بيردي أخيرا إلى أعلى واشتكت في الحال أمر عدم رؤيتها لها منذ مدة وتساءلت بامتعاض إن كانت ماريامـا قد صارت من الأكابر لا تخالط البسطاء. أخذت نانا نفسا طويلا وقالت لها إن ماريامـا اختفت وأنها تريد تحديدا سؤالها، إن كانت قد تحدثت معها في الأسبوع الأخير وإن لم يكن فمتى كانت آخر

مرة رأتها فيها. كان على بيردي أولا أن توقد سيجارة لها وبعدها تأخذ استراحة طويلة للتفكير. ثم هزّت رأسها نفيا.

لم ترها منذ مدة. كم يعني؟ أرادت نانا أن تعرف. هزّت بيردي رأسها ثانية واعتذرت لأن إحساسها بالوقت غير دقيق تماما. الأيام تتداخل بعضها في بعض، أوضحت لها، عندما لا يكون للمرء بيت يفقد السيطرة على الوقت. سألتها نانا بنفاد صبر إن كانت تذكر المرة الأخيرة التي رأت فيها ماريام. كيف كان حالها؟ وما الذي تحدثتا عنه؟ وكان على بيردي أن تفكر ثانية جيدا، دعت نانا لأن تجلس على المنصة بجانبها. جلست نانا على مسافة مناسبة تراقب بتحفظ محاورتها الجديدة بالجينز المدهن والحذاء المسحوق والقميص الذي كان يحمل لوغو جامعة كامبردج تحت الجاكتة الجلد.

تقوقعت بيردي في مكانها في تأمل عميق ولم تشعر بالعيون الفضولية التي بحلقت فيها وفي المرافقة الراقية التي جالستها. كانت نانا وعلى العكس متضايقة من الموقف، وقد شعرت بأنها كانت تستعرض نفسها ومصيبتها معا. بدأت تتململ في مكانها ومسّت بيردي بحذر لترى إن كانت صاحية.

- لا يجب أن ننسى ماريام، قالت بيردي بدوار كأن أحدا أيقظها من النوم.

- نحن لا نعرف شيئا عن بعضنا جميعا. واصلت.

- حاولي أن تتذكري. كيف كان حالها آخر مرة رأيتيها؟ مشت نانا إلى الأمام بحذر لئلا تبتعد عنها.

- إنها روح معذبة، مجهدة أكثر من اللازم. بدت بيردي قلقة.

- ثقي بريك، قلتُ لها، انظري لي، قلت، أنا مثل طيور في حقل، لا أعاني من ضائقة.

- ما الذي كان يعذّبها؟ سألت نانا.

- دائما هناك شيء ما يؤلمها ويعذبها. أن يرموها على سبيل المثال خارج بريطانيا. إنها كما تعرفين ليست واحدة منا. بدأت بيردي بلملمة أشيائها.

- لربما أسأتِ الفهم، قالت نانا متأثرة.

- أنا لا أسيء فهم الناس، قالت بعصبية وأخذت رشفة من قدح القهوة تحت الغطاء الذي أخفت محتوياته.

- أوراق ماريا صحيحة ولديها إقامة وعنوان ثابت، قالت نانا بهدوء خوفا من إثارتها أكثر من ذلك.

- ربما إذن امتحان ما يقضّ مضجعها، قالت بيردي مفترضة أن تكون هي في محلها على سبيل المثال.

- كما فهمتُ منها أن الأمور كانت تسير على ما يرام في الدراسة، قالت نانا رافضة وكبتت ما قالته بيننا عن كوابيس امتحاناتها وعن حبوب الأعصاب التي كان عليها أن تزودها بها.

- لربما لديها حمى الامتحانات كما للآخرين في هذا الوقت القبيح من الخريف حيث الفائزون يفوزون والخاسرون يخسرون. أوقدت بيردي سيجارة بيدين مرتجفتين.

- ألم تريها مرة بصحبة أحد؟ سألت نانا لتجعلها تواصل. مطّت بيردي شفتيها.

- لقد جاءت لتوديعي... لا أذكر متى... قبل أن تأتي لي بغرض ما اشترته لي من محل «بوت». لابد أن يكون قبل ذلك،

لا، لا تزعجيني بالتوقيتات. كل شيء عائم بداخلي. أمسكت بيردي برأسها.

- رجل أسود؟ شاب، كبير؟ سألت نانا منفعلة.

- كان أسودَ... طويل... لا، ليس طويلا... عليك أن تجديها، خنّت بيردي.

فكرت نانا فيما يكون في قدح القهوة.

- هذا ما تحاولين أنتِ مساعدتي في عمله. وضعتْ نانا يدها على ذراع بيردي التي سحبتها في الحال بحركة سريعة.

- مساعدتُك مهمة، هل تفهمينني بيردي، حاولت نانا أن تطمئنها، هل ذكرتْ شيئا عن صديق ما؟

- لا أدري إن كان صديقا. أخذت بيردي رشفة أخرى.

- ألم تذكر اسمه؟ لم تكن نانا واثقة بشأن الصديق الذي كان ربما من اختلاق بيردي.

- كان يعمل في الموسيقى، يمكن رؤية ذلك من أزرار أكمام القميص البائسة، خُذلت في أحلى وقت، حيث تتفتح كل أنواع الورد، « Mayball، Bank Holiday، Daffodils »(*). احذري شكسبير. راحت بيردي غاطة في هلوستها.

- ألا يمكنكِ أن تعطيني خيطا لأتبعه؟ تملكتْ نانا رغبة في هزّها.

- لا تبكي، ذات مرة كنت أنا أيضا مختفية وبلا أثر.

- اتصلي إن تذكرتِ شيئا. قاطعتها نانا وأعطتها بطاقتها.

- أهلا وسهلا بكِ دوما على مائدتي. بيردي فتحت ذراعيها وقد بدت حزينة جدا وهي محاطة بعفشها.

(*) أزهار النرجس الأصفر، عطلة عيد الفصح، حفل التخرج نهاية مايو.

كانت السماء الزرقاء ودفء الوقت بعد الظهر قد زادا من اشتياق نانا ومن آلام صدرها. زحمة السوق وقصدية الداخل إلى السوق وضعها على لائحة الاتهام. كانت قد أتت لهدف آخر غير البيع والشراء. كانت ترى على الدوام ومضات صغيرة من مارياما، في وجه ما، في حركة تبتعد، في ضحكة خائفة. كانت في كل مكان، خلف الفاكهة والخضراوات المصفوفة بطريقة فنية، في خردوات مكبرات الصوت عند بائعي الـ «سي دي» و«دي في دي» مع موسيقى البوب الأفريقية. كانت وسط الزحمة التي تقدمت ببطء في الممر الوسطي العريض في سوق دالستون. بقامتها المياسة بالجينز الضيق والقسم العلوي القصير. كانت تتقدمها دوما في سيرها بعشر خطوات ومهما سارعت في خطواتها أو جرت ستكون هناك تلك المسافة بينهما.

أوقفت متابعتها ومنحت نفسها الوقت لتتوقف عند كل منضدة للبيع في السوق من دون أن تتنبه إلى ما تراه. أهانت الباعة بوقوفها محتلة مكانا من دون شراء شيء.

اقتربت أخيرا من الزقاق الضيق والسوق السينغالي الغامبي المصغّر هناك. كانت مارياما تتسوق منه عندما كانت تريد أن تُفرح نانا بتقديم «طبق البنيشين» أو دجاج «ياسا» في مناسبات خاصة وتعلمها كيف تأكل بأصابعها. عند الزاوية من الزقاق كان هناك محل بصفوف من لفّات القماش المنقوش في النافذة. وعلى الجانب الآخر من السوق الصغير كان هناك محل سينيغامبي للصرافة والتحويل بأسعار عمولات منافسة ورسوم مخفضة. مشت ببطء بين سلال الكاسافا التي عرضوها خارجا.

نظـرت إلـى داخل المحل الطافح بالبضائع خفية. وقفت شـابتان عند الحاسـبة منشـغلتين بمناقشـة حـادة. سـرت أصواتهما في أمواج عبر الباب المفتوح. واصلت نانا من دون توقف ودخلت ممرا متقاطعا مع الزقاق قبل أن تستدير وتعود.

شـعرت وهي في داخل المحل المزدحـم رديء التهوية كأنها فيل كبيـر أخـرق. لا تـكاد تسـتدير حتى تقلـب علب مـواد محفوظة وأكيـاس أرز مـن علـى الأرفـف. دارت وهـي تطلـع علـى البضاعة المعروضــة باهتمام مصـطنع من دون شـعور بمـاهية ما أمامها. لم تسـتطع أن تسـتجمع شجاعتها لتسـأل المرأتين اللتين تابعتا أدنـى حركـة منهـا بحضورهمـا الصامت. فـي طريقهـا للخروج مـن الباب اسـتدارت فجأة والتقطت صـورة ماريام من حقيبتها وقدمتها لهما.

- هذه الشابة اعتادت أن تتبضع هنا. هل رأتها إحداكما أخيرا؟ قالت لاهثة. نظرتا إلى الصورة بفضول وهزتا رأسيهما نفيا.

- لقد اختفت. رفعت نانا الصورة ثانية لتراها الفتاتان.

كانـت إحداهمـا خشـنة القامة بوجه جميل تحت ربطة شـعر كبيـرة ملفوفـة بثبـات على رأسـها، وضعـت يدها علـى صدرها. الأصغر سنا قليلا نظرت متمعنة في الصورة.

- هل تعرفانها؟ قالت نانا. هزت كل منهما رأسـها نفيا. أعادت نانا الصورة. ظلت واقفة على أمل أن يتذكرا شيئا ما.

- كانت تحب سـمككم المجفف، حاولت وهي تشير إلى السمك المعبـأ الذي وضـع بصفوف بعضه فـوق بعض علـى النضد. مرة ثانية هزة رأس نفي وبدأ الإعراض.

- لابد أنكما تعرفانها، ألحت. صارت المرأتان فجأة عدائيتين.

- ومـن أنتِ حقيقة؟ قالت صاحبة ربطة الرأس بصوت قوي عال. ظلتا واقفتين مثل تمثالين متلاصقين مثل جبهة موحدة ضد نانا. كان وجهاهما فارغين من أي تعبير مثل مظلة طاقية ستجعلهما غير مرئيتين عن حكومات العالم وشرطة الأجانب. بخطـوة واحـدة تقدمتـا تجاهها، خطـوة واحدة فـي مواجهة صامتـة. هربـت نانا من السـوق المصغر وأسـرعت عبـر الزقاق مرورا بمناضد البيع حتى وصولها آمنة إلى شارع كنغزلاند.

استقلت تاكسـي لأقـرب محطة أنفـاق وتابعـت بعدها إلى إيسـت هام. لـم تقصد المكان منـذ رافقت ماريامـا إلى صالون «يوني سـكس هير أند بيوتي» عندما بدأت ماريامـا أول معالجة لشعرها المتضرر. حزنت نانا لذكرى أيامها الأولى مع ماريامـا. إنهـا انطباعـات قوية جـدا في ظل هـذه الحالة المتوتـرة التي كانت عليها. كانت ترى كل شـيء بوضوح حاد كأنها قد تعاطت مخـدرا. أناس مـن قوميـات مختلفة، محلات وسـوبرماركتات ببضائع مختلفة إكزوتيكية.

أثـارت الألوان الحـادة، الضوضاء والصـوت العالي عصبيتها، حيث كانت ترتدي الكثير من الملابس في هذا الجو المرعد الخانق بالرطوبـة لكنهـا تحملت وواصلت. انحشـر كعبها بـين بلاطات الرصيف وانكسر. حملت الحذاء بيدها وواصلت المشي حافية.

كان الصالـون يقـع فـي زاويـة بواجهـة زجاجيـة عريضـة. مقاعـد الصالـون صُفّت في صفوف أمام المرايـا. كان الصالون فارغـا ولم يكن هناك ظل لزبون. هناك مسـاعِدة حلاق شـابة

قصيرة بشعر أملس تقف أمام المرآة تتأمل وجهها. وقد جلست امرأة ضخمة عند الحاسبة تبحلق في الفضاء. الاسم المثبت بدبوس على الصدر يشير إلى أنها المديرة واسمها أيمي. اعتدلت في جلستها بحركة مرحبة وابتسمت عندما خطت نانا داخل الصالون يصاحبها قرع جرس الباب العالي. تابعت نانا مهمتها متناولة صورة ماريا ما من الحقيبة. انطفأت الابتسامة وانتشر التعب في وجهها.

- إنها زبونة عندكم، قالت نانا. جاءت المساعدة إليهما وأخذت تشاركهما النظر للصورة. كانت تضع حلقة في شفتها العليا. حلقة معدنية صغيرة صقيلة.

- حقا، قالت المديرة بحاجبين مرفوعين. كانت ترتدي بنطلونا أسود ضيقا مطاطا وكنزة بيضاء.

- شعرها جميل، تناولت المساعدة الصورة.

- من المفترض أنك أنتِ التي صففت شعرها فكما تقول هذه السيدة هي زبونتنا. وضعت أيمي نظارتها التي تدلت بسلسلة حول رقبتها أعلى أنفها.

- هل تريدين حجز موعد لها، دعيني أرى. تصفحت المفكرة إلى الأمام والخلف.

- لقد اختفت، قالت نانا. نظرت المساعدة بشك إليها. صففت إيمي المفكرة.

- لا يمكننا مساعدتك. لا علاقة لنا بالأمر. لقد صرتُ مواطنة بريطانية منذ خمس سنوات. ذلك يجعل السفر إلى الخارج أسهل بكثير.

جوازي على الدوام معي. قريبا من قلبي. وضعت أيمي يدها على قلبها.

- اعتقدتُ ... بحثتْ نانا عن كلمة. غامت الدنيا أمامها. دارت المرايا من حولها

ما جعلها تشعر بأنها تجلس في أرجوحة دوارة.

- ... ربما كانت هنا أخيرا.

- اسمعي لَيْدي. لا حق لك في المجيء هنا لتتهمينا...

- أنت أسأت فهمي. أنا هنا للبحث عن طفلتي الصغيرة.

- لا نريد سماع المزيد عن طفلتك الصغيرة. نهضت أيمي. المساعدة تشجعت.

- لقد كانت هنا.

- متى؟ أمسكت نانا أنفاسها.

- لا أدري، غيّرت المساعدة رأيها.

- لا بد أن اسمها لديكم في السجل.

- عذرا لدينا شغل. دفعت أيمي بصدرها إلى الأمام.

- إن سمعنا شيئا عنها... بادرت المساعدة بالقول.

- لا يمكننا مساعدتك. رفعت أيمي كتفيها. بدأت نانا تضجرها.

- لن آخذ المزيد من وقتكما. توجهت نانا إلى الباب.

- ما الذي حصل؟ قدماك تنزفان، قالت أيمي.

- انكسر كعب حذائي. ورفعت الحذاء.

- بإمكانك غسل قدميك، عرضت عليها المساعدة، ولكن نانا كانت تريد أن تواصل مشوارها.

- هـل لديكما مانع من وضع صورتهـا في النافذة لعل أحد يتعرف عليها؟ كانت تعرف من خلال ماريااما أن كلا من المديـرة والمساعدة من غامبيا.

- مـن حيث المبدأ فنحن لا نفعـل مثل هذا أبدا. لانت أيمي قليلا. لقد تركت قدما نانا النازفتان انطباعا بداخلها. لم تكن نانا تشعر بشيء.

- أنتِ لست بريطانية؟ قالت المديرة بوعي بلكنة أوكسفوردية مقلّدة.

- دنماركيــة، أوجـزت بضيــق. لـم يكـن لديها مـا تفعله في الصالـون. أعطتهـا بطاقتهـا في حال سـماعها «خبـر مفرح». بدت أيمي مهتمة بالبطاقة.

- أنت مديـرة أعمال إذن، قالت بطقة بلسانها.

- مالية؟ هل أنتِ متأكدة أنها بطاقتك؟ قالتها شكا في نانا.

- آمـل أن تعثـري عليهـا، قالـت المسـاعدة واعتـرت كتفيها العاريتــين رجفــة. كانــت ترتــدي جزءا علويا أســود مــع جينز ضيق أســود تحت صدرية العمل البني. كان اســمها المثبّت على صدرها عايدة. شـعـرت نانا بالدمــوع تهم بالنزول ثانية. عايدة تختلــف عــن ماريااما كثيرا جدا ولكن كان ذلك الشـباب اليانع هو المشــترك بينهما، فترة الرضاعــة وما قبل التفتح. ودّت نانا لـو احتضنتهــا. بـل أن تأخذهــا إلى البيــت وتتبناهــا. قاومت دموعهــا وهي تشـعـر بالحصى تحفر في كعبــي قدميها. غيّرت ثقلها من قدم إلى الأخرى وودت أن تشــكرهما للطفهما ولكن أيمي سبقتها.

- سنُبقي أعيننا مفتوحة. قالت أيمي متعاطفة مع نانا كأنها لم تصدّق قصتها ولكنها اعتبرتها إنسانة مسكينة تمر بأزمة نفسية.

- شكرا، إنه لطف منك. كان لديها شعور غريب بالأمان في صحبة هاتين المرأتين. كان يمكن أن تكونا أمّا وابنتها. كم تمنت لو كانت واحدة منهما تعمل في زاوية آمنة من لندن في صالون لطيف جميل يحب الزبائن المجيء إليه للدردشة والارتخاء.

بينما وقفت نانا سارحة مع أفكارها دخلت الزبونة الأولى. غيّرت أيمي تركيزها. من الغرفة الخلفية ظهرت مصففة الشعر طويلة القامة مرتدية صدرية بلون القهوة بالحليب بحواف وردية جاهزة لتغطي احتياجات الزبون. حضر المزيد من الزبائن وفي توقيت مناسب ظهرت اثنتان أخريان من المصففات.

وجدت نانا نفسها محاطة بمجموعة كبيرة من حولها لكنها تمكنت من التسلل بهدوء عبر الباب من دون أن ينتبه إليها أحد.

في نهاية هاي ستريت ساوث كان يقع «الأسد الأسود» ذو الطابوق باللون الأحمر الغامق، أبراج وقمم كنائس وحجر أسود وإعلانات ضوئية لكارلسبيرغ في النوافذ كأنها أخذت من قصص الأخوة غريم الخرافية. احتاجت نانا إلى شيء ما قوي تتدعم به فعبرت الشارع صوب البناية العجائبية التي يمكن أن تكون أيضا تركيبا يمت إلى إحدى روايات كافكا التي قرأتها بشغف أيام شبابها المبكر. في صعودها السلم الحجري العالي

في الطريق إلى المقهى تزحلقت وسقطت. لقد مشت بقدمين حافيتين تمسك بفردتي حذائها كل واحدة بيد، ولم تستطع أن تتشبث بسياج السلم الحديدي عندما زلقت قدمها. زلقت على بطنها فوق درجات السلم إلى الأسفل وانتهت على الرصيف بكعبي قدميها المتشققتين إلى أعلى.

ظلت باقية في مكانها ولم تكن لديها رغبة في النهوض. كانت تريد أن تتزحلق بعيدا عن حزنها وخجلها من عدم قدرتها على الاعتناء بمارياما وحفظها من الإصابة بأذى. ولكن كان عليها أن تؤمن بحدوث معجزة تعيد إليها بنتها ثانية. شعرت بأحد ينقر كتفها. صعب عليها رفع رأسها بوضعها الأخرق حيث وجهها بوجه بلاط الرصيف. تمكنت من النهوض أخيرا بالاستناد إلى كوعها. نظرت في وجه مشوه وممسوح. عدسات عينيها تحركت من مكانها في محجريها. كان هناك رجل طويل وسيم ببدلة رمادية اللون وبياقة صينية وحذاء مصبوغ لامع، انحنى عليها وحاول أن يساعدها للوقوف على قدميها ولكنها انخرطت وجلست على الأرض تفكر برعب في مظهرها.

سمعت صوتا يصيح «إسعاف» فخافت أن يخفوها بعيدا ويحولوا دون مواصلتها البحث عن مارياما التي كانت الطريق الوحيد الذي يجعلها تحتفظ بالأمل وبعقلها.

وقفت ببطء وترنحت قليلا قبل أن تجد توازنها بوقفة معتدلة. تركت حذاءها على الأرض لتتأكد من محتويات حقيبتها ثم انطلقت بخطوات ثقيلة وقدمين مهتزتين لتبتعد عن الرجل وهاتفه المحمول صوب محطة الأنفاق. جففت

وجهها بمنديل وسوت بيدها خصلات شعرها النافرة. كان المكان خاليا، والهواء من حولها باردا.

صعدت من محطة أنفاق أبتون بارك، منهكة تماما مرضوضة الجسم كأنها قد تعرضت إلى اعتداء. مشت بروح هائمة صعودا ونزولا عبر ساحة أبتون بارك بمحلاتها المتلاصقة ولغة أسمائها التي لم تتعرف عليها. لم يكن لديها أدنى فكرة عن أي بلد توجد فيه. لم تكن لا في بريطانيا ولا في مكان آخر على الخريطة. تيار البشر على كلا جانبي الشارع المزدحم جدا بالسيارات كان خليطا ملونا تماما لدرجة لا يعود فيها معنى لمعرفة البلد الذي جاءوا منه. وجدت نفسها في المستقبل حيث كل الجنسيات تذوب بعضها في بعض ضمن بشرية متعددة واحدة.

دارت في جولة داخل السوق المسقوف المظلم خلف المحطة. نظرة سريعة كشفت لها عن أغلبية الموجود، بائس وقديم: ساعات، مظلات، أدوات احتياط، جوارب، جميعها بسعر سحري: باوند واحد. فكرت نانا قليلا في ضرورة جلب شيء معها للخالة والعم في طريقها. دخلت في عمق السوق إلى محل ورد مقلقل ببضاعة تعسة. اختارت باقة قرنفل لا بأس بها.

كان عمر، ابن عم ماريانا الأكبر هو الذي فتح لها الباب. ابتسم متأثرا عندما رآها. وقفت أمينة من خلفه. كانت في البيت في الفترة بين دواميها الصباحي والمسائي. دفعت جسدها لتصير أمام عمر مقابل نانا عند الباب وبيدين إلى الجانبين قالت لها:

- ما الذي حصل لك؟ فتحت عينيها. هزت نانا رأسها. لم يصدر صوت منها. لقد جاءت لتسمع شيئا جديدا عن ماريااما وإن كانوا قد اتصلوا بالشرطة بعد آخر لقاء لها بهم هنا. ولكن لقاءها بالوجهين الحزينين المسكينين صدمها. أدخلتها أمينة إلى البيت.

- هل اعتدى أحدهم عليك؟ سألتها بقلق وقد أجلستها على مقعد في المدخل. طلبت من عمر أن يعد حوض الاستحمام لها.

- أرجوك قولي شيئا، قالت أمينة آمرة.

- ماريااما، قالت بهمس وناولتها باقة الورد. تناولت أمينة الورد الذي تدلّت رؤوسه.

- ألا نسمع جديدا هو خيرٌ من سماعنا للسيئ. نظرت أمينة أمامها وتنهدت.

- أمها تتصل بين كل ساعتين، واصلت.

- آسفة جدا، اعتذرت نانا ورفعت أمينة يدها بحركة صادة.

- إنه حقها. ماريااما طفلتها، قالت. جاء عمر ليخبرهما أن الحمّام جاهز. نظرت نانا بارتباك إلى أمينة.

- أنتَ بحاجة إلى ذلك، قالت مختصرة وساعدتها على الوقوف. عملها مبكرا بالتمريض مخزون بقبضتها الثابتة والرقيقة معا.

- تبدين في حال فظيع، أكدت لها بمباشرة.

- بإمكانكِ أن تستعيري ثيابي ولكنكِ نحيفة جدا وأنا يعني... ثخينة كما تعرفين. ضربت أمينة على بطنها. دخلتا الحمام. أجلستها ثانية على طاولة.

- هــذا لطف منك. شــعرت بدوار من هــذه الرعاية والحنان غير المتوقعين.

- احذري. فتحت أمينة صيدلية البيت التي كانت ملأى عن بكرة أبيها.

- هــذا لدهــن قدميكِ بعد الحمام. ناولتهــا زجاجة صغيرة ببلسم للقدم ووضعت نعلا خفيفا لها في الشاور.

- ليس بمقاسك ربما ولكن لكي تعودي به إلى البيت، قالت أمينة كأنها تحدث نفسها.

- اليوم يكون قد مر أســبوع منــذ ...مارياما... كانت نانا قد وضعت خارج الواقع وفي داخل حلم يدور في مكان مجهول بين أناس غرباء بتقاليدهم وعاداتهم التي لا تعرفها.

- ماذا عســاي أن أفعل؟ ماذا عســاي أن أفعل؟ قالت بصوت خفيض كأنه حسرة عميقة.

- خــذي وقتــكِ، أنا ســأكون بالتأكيــد قد ذهبــت إلى عملي عندمــا تنتهين. ســيعتني عمر بك. خرجت أميــنــة من الحمام بهدوء وأغلقت الباب.

نضت نانا ملابســها بســرعة. كانت أزرار سترتها قد انتزِعَتْ بســقوطها وتدحرجهــا من على الســلم. والتنــورة الضيقة قد انشــقت. تزحلقت في الماء الدافيء من دون أن تشعر بجسدها. كان الحمام فوضى، شــبيها بكهف من دون نافذة. كانت الأرواب معلقــة والمناشــف بعضهــا فوق بعض. والمشــجب يــكاد ينخلع مــن على الجدار. الصابون، معجون الأســنان والقطن وفرشــة الأظافر، إسفنجة الحمام ومبرد الأظافر، المقص والمشط كانت

في سلة مضفورة. النعل وسلة المهملات البلاستيكية وصفوف من ورق التواليت ملأت الأرضية. وجدت نفسها وسط يوم العائلة المزدحم ومع حاجات الأربعة النشطاء. لم تكن نانا على عجلة. كان عالمها خاليا. والفراغ جعلها بلا قرار. لم يكن هناك من سلام في داخلها فنهضت ونزلت من الحوض من دون أن تستمتع به. تناولت أقرب منشفة وجفّفت جسدها مسرعة. ضايقها أن تعود لترتدي ملابسها الوسخة ذاتها. جلست على مقعد التواليت تفكر فما ستفعله حين مغادرتها الحمام.

لم تدرك كم من الوقت مر منذ جلوسها حين طرق باب الحمام بحذر. ثم ألح في الطرق أكثر وأكثر.

لم تعِ شيئا إلا بعد سماعها عمر وهو يذكر اسمه. فتحتْ الباب قليلا.

- آسفة لأني شغلت الحمام.

- لا لا، خذي وقتك. أردت التأكد فقط من أنك بخير.

وجهها الجامد جعله يرجع إلى الخلف خطوات.

- هل يمكننا التحدث للحظة؟ خرجت من الحمام مثل حلزون ترك بيته.

- حول ماذا؟ قال عمر بشكل رافض. كان يتحدث بخلاف والديه بطريقة خالية من لكنة.

- هل لديك فكرة عما يكون قد ألمّ بمارياما؟ جلست نانا على ذات المقعد الذي جلست عليه قبل أسبوع. الصدمة قد طبعت أثرها في جسدها، مثل عبء كبير يثقله.

- لم تكن سعيدة بوجودها هنا. أدار عمر ماء مغليا في

كوبين بكيسي شاي.

- ما الذي أخطأنا بفعله؟

- عفوا، أعني بالطبع...

- هل لديك أدنى فكرة عما يكون قد حدث؟ كررت نانا. لم يجبها عمر.

- هل يمكن أن تكون قد هربت مع بوي فريند؟ قالت لتتحسس تفكيره.

- لا أعرف شيئا عن البوي فريند. اضطر عمر للقول مرغما ولم يقدم الشاي بمبادرة منه بل لأن أمه طلبت منه ذلك. لم تعرف نانا كيف تواصل أسئلتها التي بدا أن عمر يجهلها. جلس قلقا وبدا موزعا من دون أن يمسّ شايه.

- كانت متوترة جدا لشيء ما، بدأ بالقول كاسرا الصمت الذي فرض نفسه عليهما. تقدمت نانا بجذعها تجاهه.

- متوترة من ماذا؟

- لم تقل.

- هل رافقت بشكل أو بآخر أصحاب سوء في رأيك؟

- لم أكن حارسها. انسحب عمر مجددا إلى نفسه. لم تحب نانا أن يتحدث عمر في الماضي.

- ولكن ما رأيك؟

- لا رأي لي. نهض عمر من مكانه وأضاف فجأة:

- نحن جميعا قلقون.

- وأنا كذلك... وبيا وبِن.

- لا أحبهما، تمتم عمر. صعقها ما قاله.

- هل قالت مارياما شيئا عن بيا وبِن.

- القليل أجل... ولكن ليس الكثير.

- ما الذي قالته؟ قالت نانا مصدومة.

- لا أدري، قال عمر. كان هناك شـيء حول انغلاقه بلا صبر ما يذكرها بمارياما.

- ألم تشتكِ من شيء بخصوصنا؟

- آسـف، لـديّ موعـد. نظـر عمـر إلـى سـاعة موبايلـه. لم تستطع نانا أن تستجمع قواها لتغادر. كانت عائلة مارياما هي أملها الوحيد.

- سـأرافقكِ إلى الباب. تقدمها عمر إلى المدخل من دون أن يتأكـد من أنها تتبعه. رفع السلسـلة عن قفل الباب وفكّ باقي الأقفال وفتح الباب لها قبل أن تلحق لتصل المدخل.

- شـكرا للحمـام والشـاي، قالـت بتواضع شـديد يصل حد التوسـل تقريبا وتحاشـت النظر فـي المرآة الكبيـرة التي كانت بحجم القامة في المدخل.

- لا أستطيع مساعدتك، اعتذرَ لها.

- هـل عـادت ماريامـا إلـى غامبيـا؟ عرفت فـي اللحظة أن سـؤالها كان غبيـا. لقـد بـدت نانـا طـوال الفترة مـع ماريام وعائلتهـا كأنهـا كانت متخلفـة عقليا في تصرفاتها. أمسـكت بيد عمر طويلا.

- أمهـا تتصل طوال الوقت. قال عمر متحاشـيا وهو يسـحب يده. ظلت نانا واقفة عند السلم بعد أن أغلق الباب وراءها. نظرت إلى نعلها البلاستيكي الذي لا شكل له بلونه الأصفر الصارخ.

لم تعرف أين تتوجه. كل ما تعرفه هو أنها لا تريد أن تذهب إلى شقتها في هنري ديكنز كورت.

وقفت ماريامـا فـي الطابـور عند مدخل قسـم الدراسـات الشـرقية والأفريقية (سواس)، حيث يقوم رهبان هاري كريشنا حليقو الرأس بملابسهم البرتقالية بتقديم الحساء كل مساء للطلبة المحتاجين مجانا. لقد فقدت شهيتها في إقامتها عند المضيفـين الإنجليـز. كانـت تفضّل الاسـتلقاء على الحشـيش الأخضـر وتنصـت إلـى الأشـجار والطيـور والسـحالي، البحر والسـماء عنـد الشـاطئ وأن تتـرك العقـل ينام لكنهـا أجبرت نفسـها علـى الأكل لتحصل على طاقة لتتدبـر حالها من دون الكلية وخارج إطار القانون. ولكن مازالت الفيزا لم تنته مدتها بعد، مازال هناك ملجأ لها، مازالت هناك مهلة قصيرة.

كان وقتا مضطربا وبلا وزن، قوس قزح وورود منذ أن حزمت أشياءها وغادرت شارع بورتلاند والروح التي عقدت معها اتفاقا بـألا تتبعها بعد مغادرتها إلا فـي أحلامها. كانت تأمل أن تجد جانيـت قبل أن تظهـر الروح ثانية. لقد بحثـت عنها مع أولاد عمها في الدسكوات والبارات من دون نتيجة. اتفقوا في النهاية في أن جانيت لا تحب الآفرو- ميوزيك.

كان ذلـك خلال تلك الغارات فـي البحث عن جانيت عندما التقـت جيهران أحـد أصدقاء أولاد العـم. كان هناك عزف في ذلك المساء في «الغيوم العابرة» لفرقة «طعام الدود» من الكونغو المفضلـة لديها. (الخالة أمينة التي كانت في انتظارهم بروبها الوردي والتي تسـتقبلها بتحقيق حالما يخطون عتبة الباب لم

تطـق اسـم الفرقة هذه. كانت تعتبره كفـرا بحق الموتى). تقدم جيرهان ليسـألها عن سـبب عـدم رقصها ولِمَ لمْ تبد سـعيدة. حافظـت علـى هدوئهـا وقالـت إنهـا مجهدة بسـبب الدراسـة والعمل في سـينزبيري. قدّم لها شـرابا ولكنهـا فضلت الكولا. جلسا في صالة المعيشة وانضمّ أولاد العم إليهما.

كان جيهـران قد عاش في أمريكا ونجـح في عمله التجاري هناك. تمكن من تمويل دراسـته في جامعة لندن للقانون. كان يتحـدر مـن عائلة صياديـن، ولكن لـم يتبق هناك من سـمك ليصطـادوه عند سـاحل البحـر. والده علّمـه أن ينهض مبكرا ويعمـل بجـد وهو ما يريـد تعليمـه لأطفاله أيضـا. كان يريد العمـل فـي مجـال حقـوق الإنسـان عندمـا ينتهي من دراسـة الماجستير ويساعد الغامبيين الشباب الذين لم يكن لهم طريق رجعة إلى بلدهم ولا حياة في لندن. الذين يأتون إلى بريطانيا بعـد حصولهـم على فيزا زيـارة ويبقون بعـد انتهائها. لم يكن فـي مقدورهـم الحصول على عمل ولا من شـيء لهم ليفعلوه. يبـدأون بشـرب البيـرة منـذ الصبـاح بمجـرد أن يسـتيقظوا ويكملـون بالحشـيش والماريوانا. يجلسـون طيلـة اليوم مقابل sky channel ولا يغادرون إلا بحلول الظلام، فقط من أجل إثارة المشاكل. على الشباب أن يتعلموا من الأمريكيين، كما قال. أنهم مقاولون لحياتهم بأنفسهم، أنهم ولدوا أصحاب مشاريع. شعرت ماريياما بأمان غير معتاد بوجود جيهران. لم تسمع من قبل من يتحدث عن المقيمين اللاشرعيين هكذا من دون ازدراء. وجـود أولاد العم لم يحل دون أن تنشـأ بينهما عاطفة من أول

مــرة التقيا فيها في «الغيوم العابرة» والتي تطورت ســريعا إلى أكثر من ذلك.

لــم تفقد ماريامــا مظهرها الجامعي الأنيــق. لقد حرصت كثيــرا علــى أن تبقي ملابسـها نظيفــة مرتبة لكــي تنضم إلى طابــور الطلبة للحصول على حســاء مســتغلة عرض الطائفة السخي.

كانت هناك امرأة مشــردة بمظهر غجري جلســت عند جدار المكتبــة مــع ضبّــة من مجلــة المشــردين «The big issue» في حضنهــا. كانت لهــا عينان مغلقتان، ترتــدي طبقة ثخينة من البلــوزات والصديريــات المحيكــة وتنــورات بطويــات مضاعفــة مــن القمــاش. لم يظهر أنها كانت متحمســة لبيع حصتها من المجــلات. حرصــت ماريامــا علــى أن تبقى مســافة بينهما لئلا ينتهــي المطــاف فــي يوم ما بهــا ليحين دورها فــي الجلوس من الصبــاح حتى المســاء تحت المطــر الإنجليزي والعصــف لتبيع قدرها.

فكرت بحزن بخصوص لقائها الأخير مع مرشدها الدراسي. آلمهــا أن تخــذل الرجل المســالم الذي ســاعدها والــذي بذل كل جهــده مــن أجل مســاعدة طلابــه، وكان طوال الوقت مســتعدا للنصح والمشــورة إن صادفتهم مشــاكل مع واجباتهم الدراسية. لقد صرف وقتا إضافيا وطاقة من أجل تحســين لفظ ماريامــا الإنجليــزي. كانــت المجموعــة الصغيــرة بثقافتهــا الخاصــة ولكنتهــا والتي خالطتهــا ماريامــا أثناء عملها في ســينزبيري في غرفة الاستراحة الملأى بدخان السجائر قد قلّصت قاموس

مفرداتها وجرّت تلفظها إلى الاتجاه الخاطيء كما واجهها مستر تاونسيند به. كان أسهل على مارياما الانسجام مع تلك المجموعة في عملها من كلية Southwark. لم يتعين عليها التظاهر بشيء، كانت تتصرف أكثر على طبيعتها.

كان نسخة حية من مستر براون في كتاب الإنجليزي. بشعر مبعثر بني اللون بفَرْق شَعْر أبيض وذات السترة المزررة من التويد والجزمة برباطها ذي الخطوط المتوازية الدقيقة حول الكاحل. بتلك الجزمة الكبيرة كان كأنه عملاق في مكتب مزدحم صغير في الطابق الثالث خلف باب رقم ٢٩٢ وقد بدا شبه رجل متوحش من الغابة أكثر من كونه بروفيسورا. لقد صارحته مارياما بسؤالها له عن إمكان أخذ استراحة من الدراسة. كانت بحاجة إلى وقفة لجرّ النفس تمكنها من رؤية أكثر وضوحا لوضعها. الفرصة ستمنحها نظرة عامة شاملة وتجدد من حماستها في الدراسة لكي تكون أكثر تحصينا في إقدامها واجتيازها للامتحان.

اعتذر مستر تاونسيند عن عدم تمكنه من منح إجازة فيزا دراسية أو فرصة خلال الدراسة كما هو جار مع الطلبة البريطانيين وعلى الأخص في هذه المرحلة المبكرة من الدراسة. صفق ضبة الأوراق على المكتب أمامه ونصحها بأن تقاوم إن كانت تأمل في البقاء في بريطانيا. لم يؤملها بشيء ولكنه وعدها في المقابل أن يمدها بكل المساعدة التي تحتاجها. كان طلبها خارج ما يمكن القبول به، يحتاج إلى معجزة كما قال ليخفف عنها لكنه لم يكن ممن يؤمنون بالمعجزات.

في الطريق إلى البيت اتخذت قرارها من دون استشارة أحد. ولا حتى بينتا التي شاركتها في المقابل أفكارها وأحلامها. كان جيهران قد قال لها مقدما إنه سيدعمها بمجرد أن تكون على يقين من صواب القرار الذي تتخذه.

لم يلحظ أحد نانا وثيابها الرثة ونعلها البلاستيكي الذي تقرحت قدماها بسببه. في طابور الحساء كان الجميع سواسية أمام الله. وإن كانت نانا تعترف بإله الصدفة فقد حانت اللحظة التي ستركع فيها. أمامها في الطابور كان الكثير من السود الذين لم تنتبه لهم. كان جهاز حواسها يقف عند نقطة الصفر. وطاقتها قد استنفدت. كانت تحلّق في الهواء مثل بالون أفلته طفل شرير. لم تأكل شيئا طوال اليوم والقليل القليل في الأيام التي مرت. ولكن الجوع قد أشعرها بفراغ معدتها الذي أثار غثيانها عندما دخلت رائحة الخضار المبهرة أنفها. لقد اختُزلت إلى رقم في الطابور باحتياج أوحد: صحن ورقي بقطعة خضار مسلوقة تعوم في سائل تلألأ بحبات الدهن.

في المقدمة عند القدر الأسود للرهبان الذي تم نقله بواسطة عربة سحب كان قد وقف زوج يمسك كل منهما بصحنه. في اللحظة التي استدارا متوجهين في طريقهما لصعود السلّم تنبهت نانا إلى أنهما كانا من السود لأنها تقدّمت إلى الأمام بمحلّيْن ولم تعد في مؤخرة الطابور. لم تكن لتواصل انتباهها لهذين الاثنين لولا أنها سمعت ضحكة مكبوتة عندما تهاوى الصحن الورقي للحساء وسقط عند قدمها ثم اقتراب شاب

بشعر آفرو مقصوص تمتم «آسف»، انحنى للأسفل محاولا أن يغرف الخضراوات ليعيدها إلى الصحن بملعقة من البلاستيك التي تمنح مع الحساء.

تلطخت ساقا نانا قليلا لكنها لم تأبه للحادثة. ابتعد الشاب ثانية ورمى بالصحن في سلة المهملات وجلس على درجة السلّم إلى جانب صديقته التي أشركته في صحنها.

هنا تنبهت نانا لأول مرة إلى شيء تعرفه بخصوص هذه الشابة لكنها تصورت أنها قد جنّت أو أنها كانت ترى رؤى. كانت تريد الركض صوب السلّم ولكن جسدها كان كأنه من الرصاص، وقدميها ترفض أن تطيعها. رمشت بعينيها والرؤية ظلت أمامها لم تختف. بدت مارياما أمامها مثل واحدة من العجائب. ترددت. هناك ما جعلها تتراجع. اليقين والفرح بعثورها على ماريامـا بحالة جيدة هو كل ما تمنته لنفسها. كان رد فعلها الأول هو ألا تضيّعها عن نظرها ثانية وترضى بأنها على قيد الحياة وبخير(هكذا بدت على أية حال من على مبعدة)، وأن توصل الخبر السار إلى العائلة في أبتون بارك وأن تعلمهم أن بالإمكان العثور عليها في طابور هاري كريشنا للحساء عند سواس في اليوم التالي، في ذات الوقت وذات المكان.

نهض الاثنان وتحركا صوب شارع ماليت. خرجت نانا عن الطابور الذي قصر جدا وتبعتهما على مسافة. لم تجد أنها تستحق عودة ماريامـا بهذه السرعة ومازالت لم تجرؤ على تصديق عينيها بأن ماريامـا تسير حية ترزق أمامها، وأن ذلك

لم يكن مجرد خداع بصر. الشابان كانا يتمشيان بنسق إيقاع واحد منشغلين أحدهما بالآخر عن الانتباه إلى أن أحدا يتعقبهما. ودّع أحدهما الآخر عند ساحة يوستن واختفى الشاب في نزوله السلّم إلى محطة الأنفاق. ظلت ماريااما في مكانها تتأمله للحظات ثم لوّحت له وتحركت في الاتجاه الذي تقف فيه نانا. لم تستطع نانا أن تفعل شيئا غير أن تظل واقفة في مكانها منتظرة أن تقترب ماريااما وتراها. لكنها انسلّت إلى شارع الجامعة وأسرعت نانا تجري خلفها.

كي لا تختفي ثانية قبل أن تتأكد تماما أنها ماريااما وليس وهما ما رأته ركضت نانا وراءها وصاحت باسمها فاستدارت ماريااما. انفرج وجهها عن ابتسامة، كم بدت تشبه نفسها! وفي الوقت نفسه مختلفة! جمعت شعرها بمطاطة سوداء إلى الخلف مرفوعا عن جبهتها. بدا وجهها مشدودا أكثر ناحية فمها ونظرتها أخرى.

- أين كنت كل هذه المدة؟ طارت من فمها الكلمات.

- آسفة نانا لقد ضعت ولكني في طريقي لأن أجد نفسي مجددا. تلمست بارتباك السلسلة التي أهداها إياها جيهران.

- لم فعلتِ هذا بي؟ فوجئت نانا بحجم الغضب الذي غطى على الفرح بالعثور عليها بخير.

- أنا آسفة نانا. كان عليّ أن أترك ذاك البيت قبل أن تحتلني تلك الروح. صدقيني، لقد حاربت حقا وأنا مازلت أسعى للعثور على جانيت.

- أنت مدينة لي بتوضيح أفضل من هذا، قالت نانا ببرود

جامد لم تعرف أنها تنطوي عليه. لقد وجدت نفسها في جانب الظل.

- هي لا تريد إفلاتي مادمت بقيت في ذلك البيت. قالت لها مارياما ولكن نانا لم تكن ترى أو تسمع.

- بينتا قالت إنك رأيت شبحا في محطة شارع ليفربول، هل كانت هي؟

- لا، كان جيهران، حبيبي. انفرجت أسارير مارياما.

- لم لم تخبريني أن لديك حبيبا؟

- حدث ذلك سريعا. خفضت مارياما بصرها.

- إذن فانت لم تؤدي امتحاناتك ورحت تتسكعين مع أحدهم من الآفرو.

- لقد تركت الدراسة، قالت مارياما بصوت خفيض.

- ستقعين حقا في مشاكل.

- هو ما أنا فيه الآن. لقد تشددوا في مراقبة أمر الفيزا الدراسية للطلبة الأجانب.

- ماذا يعني تشددوا؟ لم تكن نانا تستطيع السيطرة على غضبها.

- إن لم يحضر الطالب للكلية سيتم طرده خارج بريطانيا.

- هل صرت مقيمة غير شرعية؟ لم تستطع نانا أن تنطقها. كل تعبها راح هباء. خططها الكبيرة مع مارياما كقصة ناجحة قد ضاعت.

- عندما تنتهي صلاحية الفيزا سيعتبرونني «overstay» مقيمة خارج الفترة المسموح بها.

- ولكن ذلك غير مشروع.

- أنا أعمل بساعات كاملة الآن في سينزبيري، قالت ماريا ما مدافعة عن نفسها.

- كان بإمكانكِ إذن البقاء في بلدك في هذه الحالة.

- ليس هناك من عمل، قالت ماريا ما بصعوبة.

- هل حقا ليس لديك هدف أكبر من هذا؟

- بعملي طوال اليوم أستطيع أن أرسل مبلغا أكبر إلى العائلة.

- هل يوظف سينزبيري مقيمين لا شرعيين؟

- لم أكن غير شرعية عندما وظفوني.

- أين كنتِ، منذ هربت من بيا وبِن؟ لقد تلبس الغضب نانا.

- جيهران يساعدني في الحصول على سكن هنا وهناك، قالت لتتحاشاها.

- لن يدوم الحال بإقامتك سرا في البلد. لا أمان. لا مساعدة تحصلين عليها إن حدث لك شيء أو مرضت.

- إنها حياتي الآن. بعدت ماريا ما بنظرها.

- من هو هذا الـ جيهران؟ ماذا يعمل؟

- يدرس الحقوق. إنه يعمل في مجال حقوق الإنسان ومساعد متطوع للشباب الغامبيين الذين علقوا في لندن بعد انتهاء فيزا زيارة. يقول إنها ليست حياة كريمة تلك التي يحيونها. ليس لديهم غير عمل المشاكل. إنه هدر في المصادر البشرية.

- لم لا يعودون إلى بلدهم؟ تكاد نانا تفقد صبرها.

- إنهم قد وقعوا في مصيدة. لا يريدون أن يجلبوا العار لعوائلهم. إنهم لا يستطيعون لا العودة ولا البقاء هنا. لا يستطيعون العودة من دون نجاح وثروة وفي بريطانيا، الطرق مسدودة بالنسبة إليهم.

- ما الذي يريده من سيصير محاميا مستقبلا من أصدقاء كهؤلاء؟

- يريد أن يعلمهم الكفاح من أجل البقاء مثل الأمريكيين. إنهم مقاولون لحياتهم، ولدوا أصحاب مشاريع. تحدثت مارياما بحرارة ولمعت عيناها.

- أنت أيضا لا شرعية مثل أصدقائه.

- ولكني أعمل بجد، أجابتها بثقة.

- عليك بالعودة إلى بن وبيا ولي وإلا ستضيعين، قالت نانا وهي تشعر بأنها لم تعد تطول مارياما.

- جيهران يعمل لدى محام وربما يستطيع مساعدتي.

- ما نوع هذا المحامي؟ قالت نانا بمرارة لتركها خارج الموضوع تماما.

- لديه شركة محاماة في بانيول وفرع لندن في دالستون. لقد تحدثت معه.

- من أين لك الإمكانية لتدفعي تكاليف محام.

- إنه يقدم استشارات حقوقية مجانية للمقيمين غير الشرعيين ويحاول أن يجعل موقفهم طبيعيا ولكن الفرص قليلة كما يقول.

- هل تريدين حقا أن تظلي مقيمة غير شرعية.

- أنا آسفة جدا نانا، سأبقى طيلة حياتي ممتنة لكل ما فعلته من أجلي. كان في البدء مجرد حلم وقد صار واقعا.

- أعتقد أنك تتمنين بداخلك العودة إلى بلدك. بإمكاني بكل سرور أن أشتري لك بطاقة عودة إلى بانيول.

- لا أستطيع العودة. العائلة معتمدة عليّ. ليس لديهم غير ما أرسله من نقود.

- عليك التفكير في نفسكِ. ما الذي سيحصل لك؟

قالت نانا. كان ذلك فوق استيعابها ألا تكون مارياما بحاجة إليها. هذا الاحتمال لم يكن له وجود في عالم تصورها.

- سأتدبر أمري. رفعت مارياما كتفيها، وإصرارها على تفاؤلها كان مهينا لنانا.

- إن عثرت الشرطة عليك ستطردين.

- لا يستطيعون العثور على الجميع... إحصائيا، قالت مارياما بإشارة مازحة لإيمان نانا بالإحصاء والمصادفة.

- وليس لي خيار.

- أكاد لا أعرفك مارياما.

- لندن قد طورتني.

- أجل في الاتجاه الخاطيء. كان الهدف أن تحصلي على دراسة.

- عذرا نانا، قالت بشعور بالذنب، لقد أخذ جسدي ما يحتمل من المعلومات. تعليم، تعليم، تعليم، تشبعت أكثر مما يجب ولم يكن لديّ وقت لهضم ذلك. الوقت صار عدوي.

- لا أفهم.

- عفوا، كررت مارياما، رأسي توقف عن العمل، جسدي تمرد، كنت بحاجة لأتنفس وأتحسس العالم من حولي. كان عليّ الخروج إلى الضوء ثانية، أنا أرى بوضوح أكثر الآن. لقد تركت الحبوب ومع الوقت سأنضج.

- أن تتركي كل شيء هكذا ومن دون أن تخبري أحدا. مُنحتِ المأوى والطعام، مصروف الجيب، الملابس، ولن أتحدث عن تكاليف الدراسة التي تتطلب ثروة، لقد غششتِ باللعب ولم تأخذي الدراسة على محمل الجد.

- لم أستطع أن أحتمل الضغط الذي مورس عليّ من جميع الجهات، قالت مارياما.

- ما الذي تريدينه هنا إذن؟ صرخت نانا.

- العمل لكي أعيل عائلتي.

- لا مستقبل في هذا، واصلت نانا في فورة غضبها.

- أنت لا تفهمين وضعي نانا. كانت مارياما بخلافها هادئة متزنة.

- لا أفهم غير أني قد خُدعت.

- آسفة جدا، كررت مارياما للمرة الثالثة.

- إن استمررت بهذه الـ آسفة آسفة سأخنقكِ. وصلت نانا حدود الألم ولم تعرف ما تفعل.

- لقد تعلمتُ الكثير وأعرف أكثر بكثير من ذلك اليوم الذي سافرت فيه من بانيول. كنت حينها طفلة صغيرة جاهلة لم تعرف العالم ولم تر أبعد من أرنبة أنفها. كل ما أنا عليه اليوم هو بفضلكِ أنتِ.

- أنت لا شيء والمشروع قد فشل، قالت بسخط.

- صدقيني نانا، سوف أتدبر أمري. لديّ خطط لحياتي ولست وحدي.

- محاطة بالتعساء اللاشرعيين، في أي شيء سيساعدك هذا؟

- وجيهران، صححت مارياما لنانا.

- بمجرد أن يبدأ حياته العملية سيصبح أصدقاؤه أغلالا في ساقيه.

- لا يصح أن تتحدثي عن حبيبي هكذا، قالت مارياما منفعلة. نجحت نانا أخيرا في استثارتها.

- هل هو الذي ألقى بك في هذا المستنقع؟ لكي ينقذك ب «حقوقه الإنسانية»؟

- كان قراري وحدي. كنت قد تخلّفت كثيرا في الدراسة بما يخص المنهج.

- ما الذي سيفعله جيهرانكِ؟ كانت نانا تريد أن تعرف كل شيء وقد بدت مثل مدير تحقيق.

- في البداية سيحاول أن يحصل لي على تصريح عمل، ربما عملي في سينزبيري سيساعد في هذا.

- هذا غير واقعي، أريد التحدث مع المحامي الذي يعمل لديه هذا الشاب.

- اسمه جميل جاوارا، بإمكانك أن تجديه على النت.

إنه محام معروف ومشهور، قالت مارياما فخورة بالرجل الناجح من بلدها.

- هذا هو إذن جزاء إحساني، لا ينفع، ابعدي، قاطعتها نانا
- أنت تسيئين فهمي.
- إنها أنت التي لا تفهم أننا مثل أوان مستطرقة.
- أنت لا ترينني كما أرى أنا نفسي. هزّت رأسها متسامحة.
خطت نانا نحوها تماما وتحسست قلبها يضرب على إيقاع قلبها هي. وقفتا عاجزتين أحدهما أمام الأحرى مرتبطتين بنوايا حسنة وتوقعات عالقة لا أفق لها.

وقع نظر مارياما فجأة على مظهر نانا الرث ونعلها البلاستيكي مفتوح الفم الذي لم يناسبها بالمرة. اختفت أناقتها، أسلوب حياتها الخيالي الذي أعجبت به وحسدتها عليه. وقف أمامها طير منتوف من دون سلطة ثوب الريش بألوانه المشعة. وقف أمامها إنسان عار لا هو غني ولا هو فقير، ولكنه إنسان فقط مثلها مثل أمها مثل روزي. شعرت بخفة حرّرتها. لقد نزلت نانا من السماء. لن تنظر إليها كأمثولة بل كما هي.

- نانا ما الذي حصل لكِ؟ هل أنت بخير؟ قالت واحتوت كتفيها وشدّتها إليها. حركة مارياما غير المتوقعة أحدثت تماسا كهربائيا في رأس نانا. إشارة ألم حادة في الجانب الأيسر وصلتها من رقيقة معلوماتية ذات تحكم عن بعد حذّرتها من خطر محدق. إيعاز يقول إنها في خطر. آلاف من مصابيح فلاش وامضة تتفجر في شبكية عينها.

في رجعٍ بعيد تسلّطَ الضوءُ فيه عليها وجدت نانا نفسها تقف فيِ استوديو التصوير ببدلة التخرج من الثانوية.

المصورة التي تحكمت فيها والتي كانت تمتلك خشونة رجل ببدلة رجالية مقلّمة أمام الستارة السوداء. أجلستها أولا على طابورية ووضعت يديها متصالبتين ومرة عليها أن تبتسم ومرة أن تكون جدية، مرة الأسنان بارزة، ومرة أغلقي فمك وأخفضي غطاء جفنيك. بعدها أمرتها أن تضع يدها على حنكها، شعرها، خديها وصدغيها. وازدادت حدة طبع المصورة أكثر وأكثر بمرور الوقت أثناء التصوير.

تركت الكاميرا على الحامل وراحت ثم عادت بعد لحظة وبيدها كأس من الشراب أفرغتها بجعبتها مرة واحدة. اعتذرت نانا لأنها لم تكن من الوجوه التي تصلح للتصوير ولهذا أتعبت الآنسة في عملها. أسكتت نانا بحركة مسرحية من يدها ويقولها إنه لا علاقة لهذا بالوجه. بإمكان المصور الشاطر أن يحصل على نتيجة جيدة لأي وجه كان، حتى لأقبح الوجوه وأكثرها لا تناسقا. المشكلة التي كانت مع نانا أنها كانت من دون روح ومن غير الروح لا يمكن لها أن تأخذ صورة بورتريه. لم تظهر صورة على اللوح الفوتوغرافي. لم يكن هناك إشعاع. أدارت الآنسة كأسا أخرى لها مع تعليقها أنها لم تصادف مع خبرتها الطويلة في حياتها ظاهرة كهذه. أجل إنها ظاهرة، إنها كانت ظاهرة. لم تكن لها كلمة للاستثناء الغريب غير هذه. أول ما فكرت نانا فيه كان أنه لا بد أن خطأ ما قد حصل في المختبر أثناء «التلقيح الاصطناعي»، ربما قد كانت علميا بتصنيف من الدرجة الثانية. وقبل أن تنتهي من فكرتها شعرت بيد المصورة تحط على كتفها. القامة المعتمة

وضعت قناع الوجه الخشن مائلا كمواساة لها.

دفعت نانا المرأه عنها بحركة عنيفة لتحمي نفسها من شيطان روّعها بقبضته. هذا الجسد المتداعي تحول إلى كتلة مشوهة وتجزّأ إلى غابة من الظلال السوداء التي حوطتها.

شعرت ماريا ما بجمجمتها تضرب حافة الرصيف الحجري بصوت ارتطام قوي أودى بفقدانها لوعيها. انزلقت إلى مملكة الأرواح السحرية. في البدء كانت العتمة بلون الفحم كما في ضباب دخان كثيف. بعدها لمحت ضوءا كشف عن سماء صافية هائلة مرصعة بالنجوم. الفضاء الكبير الفارغ امتلأ بكواكب باردة وشموس حارقة تحل الصقيع وتذيب الجبال الجليدية. أمسكت بغلالة درب التبانة وانحدرت صوب الكوكب الأزرق. حطّت قرب خط الاستواء عند سوق سيرا كوندا، بعيدا جدا عن حبيبها. كانت امرأة بيضاء تهيم في السوق. كان هناك شيء مميز فيها. ولكنها لم تستطع رؤية وجهها الذي كان مغطى بقناع. لِمَ تخفي نفسها؟ لم لا تريد أن تكون هي! ولكن امرأة أخرى داخلها كانت موطنا لتكاثر الأرواح والأشباح الشريرة.

ضاعت نانا عن نفسها في زحام الأرواح. هل كانوا في الحقيقة بيضا لوّنوا بالأسود أوجههم بالمكياج وبألوان الأجساد. هل أصابت عدوى الأسود جلدها الأبيض الناصع؟ هل صارت سوداء بين السود أخيرا؟ استسلمت ويئست من إيجاد نفسها في فوضى السوق وسط مسيرة الشياطين الصاخبين واختفت في غاليري يقع جانبا، قدمت فيه النفوس الخيرة الشاي القوي المحلى لها. لم يكد هدوؤها يعود إليها حتى حطّت اليد

على كتفها تريد منها شيئا لم تفهم مغزاه. وهي بطبيعتها لا تستطيع القيام بشيء من دون السببية. تأثرت عقلانيتها وهي لا علاقة لها بعالم لا يمكن لعقلها أن يستوعبه. ولكن الروح السوداء اقتحمت ساحة أفكارها بمجرد لمسها.

أنصتت مارياما إلى صوتها كأنها أنصتت إلى طيور وريح. كانت طريقة أخرى للتحدث. «أنت لا تذكرين إلا الأشياء السيئة، لا تذكرين الأشياء الحسنة».

قالت لنانا التي اختفت في متاهة أزقة السوق التي لا يعرفها غير أهلها. أحسّت مارياما بنبض الصمت ومن الصمت أقبلت جانيت عليها بثياب سود. «أنت الضوء، أنا الظلمة» قالت. «لقد بحثتُ عنك لكي نطرد الروح»، أجابت مارياما. «لا تخرجي. عندما تتوسط الشمس السماء سيختفي ظلك ومعه روحك» قالت جانيت بلطف كأخت. «اضطررت إلى ترك الروح في بيت الإنجليز» اعتذرت مارياما بقولها. «قفزت من الإطار. لم أشأ أن أكون لوحة على جدار» قالت جانيت. «عليك بجلب الروح لكي يحلّ السلام على الإنجليز» ألحّت مارياما. «لا أستطيع أن أمنحهم سلاما» حوّلت جانيت لونها، أولا إلى الأحمر، ثم إلى الأصفر وإلى الأبيض وأخيرا كان اللون الأسود ثانية والذي يحوي كل ألوان الطيف. كانت على وشك أن تختفي في الصمت ثانية في عمق الهواء الصافي النقي الذي أبطل الوقت. حاولت مارياما أن تُبقي جانيت قبل أن تستيقظ من الحلم ولكن الروح قد غادرتها.

لم تعد نانا سيدة أمرها. لم ينفع أن تذكّر نفسها بأنه لم يكن اللون الأسود ولكن الأبيض ما كانت تخافه، المهرج

الأبيض الذي أفقدها رشدها في أول مرة أخذها والداها إلى السيرك. تحاربَ العقل ولكن بلا نتيجة مع الخوف الجبار الذي خلق هذه الوحوش. كان عليها أن تجتثّ هؤلاء الشياطين. تقتلهم ولمرة واحدة إلى الأبد كي لا يجتاحوا وعيها الأبيض الطاهر البريء. ركبت أمواج قوى الإنسان الأعلى. غضبها البارد خنق الصوت الهائم الذي كان مثل دق أجراس في داخلها. «لا تخافي. أنا صديقتك».

صوت الأم البعيد صار يقترب ويقترب ويدخل عميقا في أذنيها، وفي رأسها يغرق الصوت في الأصوات غير المعتادة التي أيقظت الأم قبل الشروق. أصوات لشاحنات غريبة وباصات، لكبح فرامل شديد، صوت دوس الأحذية، صوت الأبواب التي تُكسر، صوت مشادات بالأيدي، صياح وصراخ، صوت السيارات الثقيلة التي ابتعدت ثانية، صوت الصمت الذي هبط على القرية، وهمس الأم المفزع: «مسلحون ببنادق ومجاريف أخذوا نساء ورجالا معهم، أخي أيضا، خالك. جاء أحدهم وأخبرنا أنهم أدخلوهم عنوة في الباصات وقادوهم إلى مدينة الرئيس مباشرة إلى الثكنات العسكرية ثم أجبروهم وهم يضعون المسدسات في جبهاتهم على شرب شراب أعشاب لاذع نتن الرائحة جعلهم يهلوسون ويتصرفون تصرفات غريبة. البعض منهم أصابه الإسهال والقيء، وآخرون ماتوا بفشل كلوي، وآخرون تم اغتصابهم، لقد أجبروهم على الاعتراف بأنهم سحرة. قالت الإشاعات إن مطاردي السحرة هم الحرس الأمني

الخاص للرئيس الذين تغلغلوا في القرى معا مع أطباء السحر الذين جاءوا من جونيه. مطاردة السحرة كانت انتقاما من الرئيس لموت خالته. قال إنه عمل السحرة من البشر ولكن الضحايا هم أناس نساء ورجال بدون معرفة بفن السحر. عمّك هرب إلى السنغال خوفا من عودة رجال الرئيس إلى القرية». صوت الأم كان غير واضح غير مترابط كأنها أطبقت فمها. لا يتحدث الناس عن هذا النوع من الأحداث بصوت عال بل يسارعون لإخفائها كأشياء فظيعة لم يكن لها وجود.

في لحظة عادت نانا إلى جسدها الذي شعرت به مثل قشرة رقيقة حول جوف فارغ. لم يكن التعرف عليها سهلا ثانية بسبب العنف الذي تملكها. ونما القناع مع الوجه. رأت مارياما تسقط إلى الخلف وتضرب حجر الحافة برأسها ولم تع أنها قد قتلت روحها. لم تر غير عيني مارياما المستديرتين الكبيرتين تنظر بعتب إليها والشفتين بلونهما الأحمر المسوَد اللتين حاولتا أن تكوّنا بضع كلمات.

صوت الإسعاف، صوت الأبواب تنصفق، صوت صرير العجلات الصغيرة، صوت الشراشف المنشاة والبطانيات الناعمة، صوت قناع الأوكسجين، صوت ضربات القلب. «نحن نولد كي نموت». نحن نلتقي لنفترق». «نحن نحصل على الأشياء كي نفقدها».

لم يكن لدى نانا صبر على انتظار المواصلات العامة فاستقلت تاكسي لهارودز. كست نفسها من الداخل إلى الخارج، من الملابس الداخلية الحريرية إلى معطف المنك الأبيض. دفعت المبلغ بالبطاقة الائتمانية الذهبية ورجت

البائعة الأنيقة التي رفضت أن تخدمها في البدء أن تتخلّص من خرقها القديمة. توجهت بعدها مباشرة إلى كازينو ريتز في بيكاديللي. كان المساء قد اقترب والغسق قد ذهب بقمة توتر الأعصاب. فتح الباب الزجاجي لها حاجب يرتدي بدلة ضيقة رمادية غامقة وانزلقت هي هادئة عبره إلى البهو بفستانها الحرير عاجي اللون ومعطف المنك على كتفيها. كان البهو بحر من الضوء ازدانت فيه جزر من إضمامات الزهور الأرجوانية. قصدت كازينو الفندق ودخلت عبر الصالة الأمامية الدائرية. خطت داخل الصالة الرئيسية للقمار. جلس ثلاثة محاسبين عند نضد التبديل والمراهنات يمسكون بالبنك من خلف زجاج ضد الرصاص. تشابههم كان لافتا للنظر في الزي (السموكنج الإجباري) وشكلهم، حتى الأذن اليسرى الموتورة والسورة عند حدود الشَّعر التي جعلت منه من الأمام يأخذ ذات الاتجاه. طلبت نانا تصريف خمسين ألفا من فئة الخمسين والمائة من قطع الرهان وقد اشترت لها كيسا مطرزا من الحرير التايلاندي كي لا تخشخش القطع في حقيبتها.

ظلت واقفة فترة لتأخذ نظرة عامة بخصوص الصالة ذات السقف العالي بالخشب المحفور والجدران المغلفة بالجلد بكل درجات اللون الأحمر. لا نوافذ ولا ساعات. الوقت ساكن في جنة النقود. والإضاءة التي كان مصدر جزء منها الثريا الكريستالية في السقف وجزء من الشمعدانات التي كانت من الحجم ما يسع ويلائم صالة الاحتفالات في القصور قد خلقت أجواء حميمية كأنها كهف بالرغم من حجم صالة الكازينو المركزية

الفارهة. كان هناك خمس طاولات للبوكر، سبع للبلاك جاك وأربع طاولات للروليت. ستارة مشغولة من السقف إلى الأرض بشرائط حريرية ذهبية ملوية تنتهي بشراشب ضخمة، يمكن سحبها إلى الجوانب مثل ستارة مسرح. خلفها في الداخل كان هناك جناح جانبي بطاولات لعب إضافية إن ازداد الضغط على الطاولات في صالة القمار الرئيسية.

اختارت نانا طاولة الروليت القصوى وراحت لتنضم إلى مجموعة البشر خلف الحلقة الداخلية الذين جلسوا على الكراسي ذات المساند العالية. لاحظت إستراتيجية اللاعبين، مدى استعدادهم للمخاطرة أو حذرهم. كانت تبدأ على الدوام بالروليت وتتوجه بعدها إلى البلاك جاك عندما تكون بحاجة إلى أن ترتخي. شعرت بكعبها العالي يغطس عميقا في السجادة الفارسية. ملأها الهدوء متحدا بشعور غيبي بأنها إن فازت بمبلغ كبير اليوم في ريتز ستفوز بمارياما أيضا من جديد. طاقة اللعب مثل القمر ستسحب الماء، والموجة العالية ستقود مارياما إليها.

استغلت فتحة حول الطاولة وخطت داخل الحلقة الداخلية وجلست لصق المسؤول في نادي القمار عن الطاولة. لقد راهنت باثنين من خمسين من قطع الرهان على الرقم ٣ الذي كان رقم السعد والأقرب الذي يمكن عبره أن تكون مسيحية. كانت تؤمن بسحر الأرقام. لم تكن ملحدة، ربما وثنية عاشت السحر في العالم. كانت تشعر بمارياما قريبة جدا في هذه الصالة الرئيسية للقمار حيث لا يدخلها غير المعنيين. وقف

حـول الروليت أناس مهندمون بعيون محملقة شـهوانية تتبـع هذه الكرة الحديدية فوق وتحت بالروليت. الصمت المطبق تبـع استقرارها أخيرا على الرقم ٣ في الأحمر. سرت تنهيدة صامتة عبـر الحلقة حول الطاولة. لم يحرك أحد سـاكنا بوجهه، ولم يلحـظ أحد نانا عندما دفع الموظف لها بصفوف قطع الرهان العالية إليها. شـرعوا يراهنون على اللعب من جديد. وبعد أن أقفلـوا علـى الرهان ضغـط الموظف على زر خفـي تحت حافة الطاولة وبدأ الروليت بالدوران.

شـعرت نانـا بالأدرينالـين يئـز داخـل شـرايينها وعلمت أن الحظ كان معها. كانت قد وصلت الحضيض فلن تخشى شيئا ولا حتـى أن تمـوت فقيـرة. راهنـت علـى الأحمر وفـازت لأربع مـرات متتالية. ثـم انقلب الحظ. وعلى الرغم من الخسـارات التي كانت أكبر من المكاسب فإنها كانت على يقين بأنها ستفوز. كان لديها ما يشبه الثقة الطفولية بالروليت. كان هو منقذها الأوحد ولذا فعليها أن تؤمن به. ولكن لن تساعدها هنا الأدعية. قوانـين المصادفـات والإحصائيات كانت لا تـرحـم. حطّت الكرة سـبع مرات علـى الأحمر وفجـأة انقلبـت إلى الأسـود. راهنت نانـا بأكبر مبلغ مسـموح به للرهـان لثقتها بحظهـا الأحمر. قـد سـمعت أن ذلـك يحدث؛ أن تسـقط الكرة علـى اللون ذاته لـ٢٠-٢٥ مرة متتالية. ولكن في هذا المسـاء انكسر المنحنى بعد سـبع مرات من استقراره على الأحمر. لقد خسرت نانا خمسة آلاف باوند في أقل من ساعة وكان عليها أن تطلب تصريفا من الموظف ثانية.

مـلأ الروليـت كل وعيهـا وقمع قلقها بشـأن وضعهـا المادي الذي لم يكن مضمونا مسـتقبلا مثلما كانت تراه وتعتبره هي وزملاؤهـا من المسـلّمات. وقد كان الأمر أمـر إيمان مثل حظها مع الروليت. أشـارت بطلب شراب كان قد وُضع لها على إحدى الطـاولات المـدورة التي وضعت فـي فضاء الصالـة مثل حبّات الفطر الأسـود بمظلاته على سـاق عالية من حديد. افتتحت نانا بمبلغ كبير مراهنة على الأسود. وظلت تراهن على الأسود. علـت صفـوف قطع الرهان أمامهـا. كان عليهـا أن تتوقف هنا تماما وتنسـحب بهدوء لتشـرب شـرابها في طريقهـا للخروج وتصـرّف الكيس المملوء لآخره بقطع الرهان إلى نقود. ولكنها كانت في عالم آخر تتحدى فيه القدر والإحصاء.

عندمـا انقلـب الحظ راهنت بمبالـغ أكبـر وأكبر. كانت تريد اسـترجاع ما خسـرته بضربة واحدة. ولكي يفـوز المرء عليه أن يراهـن أكثـر. لفّ رأسـها ودار مع الكرة ورقص فـوق وتحت مع دورة الأرقام ولم يتوقف ثانية إلا عندما حطت الكرة في سلتها المشـبّكة. راهنت نانا على الصفر الذي يعطي خمسـة وثلاثين رهانا.

الرجل الذي كان إلى جانبها وقد حسب جداول وكتب نسب الاحتمالات على ورقة دفتر صغير نظر إليها مسـتغربا وأجاب علـى قرارها الشـاذ برفعه لحاجبيـه. كان التحدث بصوت عال ممنوعا عند طاولات اللعب. حدث تدهور سريع بعدها. راهنت علـى الصفر ثلاث مـرات، مرة إثر مرة ممـا جعل اللاعبين من حولها يهزون رؤوسـهم. سـحب الموظف صفوف القطع من فئة

الخمسين والمائة باوند إليه بصوت طشطشة مزعج. انسحبت لتلحس جرحها بالمشروب الذي فتر طعمه للانتظار الطويل. شربته بجرعة واحدة وعادت إلى طاولة اللعب. لم يكن لديها وقت للانتظار فحشرت نفسها بينهم في الحلقة الداخلية. شعرت باللعبة وهي تحفّز دماغها في الحال وتخلق صفاء.

غيّرت نانا طاولتها مرتين خلال سباق المساء والليل ولكن ذلك لم ينفع. لم تضع في اعتبارها تقلبات اللعب فأفلست تماما. بتقدم الليل ترنحت وهي تعبر نضد التحويل الذي اضطرت عنده قبل ساعات لإفراغ أحد حسابات الاحتياط لديها لتتمكن من مواصلة اللعب على الروليت. المصرفيون الثلاثة حيّوها بحركة متحفظة متزامنة دقيقة. خرجت إلى بهو الفندق لتسأل عند الاستقبال عما إذا كان لديهم غرفة شاغرة. احتاجت إلى راحة وتأمل في محيط مريح وهدوء مطلق لوضع استراتيجية للغد. أرسلت بطلب قنينة شراب إلى غرفتها. انتهت تلك الحياة المتواضعة التي اتبعتها حتى الآن في لندن.

المترجمة
في سطور

أ. دنى غالي

● روائية وشاعرة ومترجمة.
● من مواليد البصرة – العراق.
● تخرجت في جامعة البصرة – كلية الزراعة.
● عضوة في اتحاد الكتّاب الدنماركيين ورابطة المترجمين الدنماركيين.
● صدر لها العديد من المؤلفات آخرها: «السأم يتلون»، مجموعة قصصية ٢٠٠٩.
● لها عدة مؤلفات مترجمة آخرها: «بونساي» للكاتبة كيرستن تورّوب، وهي قيد الطبع، و«إنه الخوف في الأعماق يلقي بظلال الأبجدية على الورق»، مختارات شعرية للشاعر بيتر لاوغسن ٢٠١٠.
● صدرت لها عدة مؤلفات بالدنماركية منها: «Fn have med du ft afmand»، مجموعة نصوص شعرية نثرية ٢٠٠٧.
● لها عدة مؤلفات قيد الإنجاز، إحداها «بطنها المأوى» رواية شعرية.

المراجعة في سطور

أ. عواطف جون ضاحي

● تعمل منذ ١٢ سـنة برتبة أستاذ مشـارك في جامعة كوبنهاغن في مجال تدريس اللغة العربية وتطوير مناهجها في جميع المستويات.
● قامت بتطوير المناهج التالية: منهج لتعلم اللغة العربية لغة وقواعد - منهج «دليل» إلى اللهجة السورية - منهج للترجمة من الدنماركية إلى العربية.
● لها عدة ترجمات من العربية إلى الدنماركية، منها:
نجيب محفوظ «خان الخليلي» - منعم الفقير، رؤية إلى الماء «ديوان شعر» - صفاء يوم جديد «أنطولوجيا أدب الربيع العربي» - واسـيني الأعرج، البيت الأندلسي، - إضافة إلى ترجمات في مجال الشعر والقصة.
● كما لها ترجمات من الدنماركية، مثل:
«كريسـتينا ستولتز، الغرفة (شـعر) - كارولينا مينور - الآن أتكلم عن الميناء «شعر» - يوسفينا كلوغارت، الجبال لا تبالي «شعر».

إله الصدفة

نقدم في هذا العدد للقارئ رواية «إله الصدفة» للكاتبة الروائية الدنماركية كيرستن توروب.

لقد اختارت الكاتبة في هذه الرواية ثيمة مختلفة تماما عن رواياتها السابقة، حيث تناولت فكرة نحن والآخر، وذلك بعد زيارة لها إلى غامبيا قبل بضع سنوات ولقائها بطفلة هناك.

ومن الملاحظ أنها تنقلت في روايتها بين ثلاث بيئات مختلفة من العاصمة الدنماركية كوبنهاجن، إلى منتجعات غامبيا - وهي إحدى دول الغرب الأفريقية - المطلة على الأطلنطي، ومنها إلى العاصمة البريطانية لندن.

توغلت كيرستن في روايتها في الجانب النفسي والاجتماعي والسياسي والديني لبطلتيها، والفوارق بين الغنى والفقر، والسلطة والضعف، والمادي والروحي، والأبيض والأسود.

رقم الإيداع: 2013/444
ردمك: 978-99906-0-398-9

